الباب الثالث

طرق الوقاية من الشقاء

obeikandl.com

طـرق[1] الوقاية من الشقاء

تمهيـد

يعيش المجتمع المعاصر على امتداد العالم فى حال من الصراع والشقاء والتضارب النفسى تنذر بالشر والخطر ، وتهدد الحياة الإنسانية بالتحلل والضياع ، والقضاء على أمل ما صنعته قوانين التطور الإجتماعى من روابط التعاون والألفة بين الناس ، وهى حال إذا لم يكن لها منقذ يرد الإنسانية إلى طريقها الطبيعى فى الحياة فهى لا شك عائدة بهذه الإنسانية إلى حياتها الأولى فى صفحات التاريخ حيث كانت تمشى فى تيه من الضلال وتعيش متدابرة متصارعة بالظفر والناب. هذه الحال الأليمة التى تضع الإنسانية بين شقى الرحى وتقف بها فى مفترق الطرق، إنما هى فى الحقيقة نتيجة لتلك الحضارة المادية الراهنة التى أعطت الإنسان كل وسائل الرفاهية وهيأت له كل أسباب التقدم المادى ولكنها أرهقته ، روحاً ونفساً، وحرمته من كل معانى الإستقرار والسعادة والإطمئنان وجردته من جميع القيم المورثة التى كانت تصله بالحياة وبالناس، ذلك لأن هذه الحضارة الآلية الجبارة تقوم أول ما تقوم على الصراع والتدافع، كل جهدها أن تصل إلى الغاية فى أسرع وقت ممكن ومن أقرب طريق، ولقد طبعت الإنسان بهذا الطابع فهو يجرى ويلهث فى سبيل غايته بأقصى ما يستطيع من جهد وسرعة، وهو بدافع من هذه السرعة يتصارع ويتدافع لعله أن يصل قبل غيره، ومن هنا كان القلق الذى يجتاح النفوس،

---

[1] تعريف كلمة طرق

جاء فى المفردات : " طرق : الطريق السبيل الذى يُطْرَق بالأرجل أى يضرب ، قال تعالى ﴿ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ ﴾ سورة طه الآية ٧٧ ، وعنه اسْتُعير كل مسلك يسلكه الإنسان فى فعل محمود كان أو مذموماً ، قال تعالى: ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ سورة طه الآية ٦٣ ، انظر المفردات للأصفهانى صـ٣٠٥

" فالطريق فى اللغة : هو ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى المطلوب ، وعند اصطلاح أهل الحقيقة: عبارة عن مراسم الله تعالى ، وأحكامه التكليفية المشروعة التى لا رخصة فيها ، فإن تتبع الرخصة سبب لتنفيس الطبيعة المقتضية للوقفة والفترة فى الطريق " التعريفات للجرجانى صـ١٤١

معنى الوقاية :

يقول الإمام الراغب : "وَقِيَ : الوقايةُ حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره ، يقال : وَقَيْتُ الشيء أَقِيه وِقَايَةً وَوِقاء ، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ سورة الرعد الآية ٣٤ والتقوى: جعل النفس فى وِقَاية مما يخاف ، ثم يسمى الخوف تارة تقوىً ، والتقوى خوفاً وصار التَّقْوَىَ فى تعارف الشرع حفظ النفس عما يُؤثَمُ" المفردات صـ٤١٧ فالوِّقَايَةُ: ما يُوَقَّى به الشيء.

والتوتر الذى يستبد بالإنسان المعاصر، ومن هنا كان الإفراط فى المسكرات والمسكنات التى لا تزيد الإنسان إلاَّ قلقاً وتوتراً وتلقى به فريسة للمخاوف والسأم واليأس.

ولا صلاح لهذه الحال إلاَّ بالعودة إلى القرآن الكريم بمفهومه النظرى الرحب ومفهومه العملى التطبيقى الدقيق. هذا وقد أشرت فيما سبق- عند الحديث عن الإغترار بالشيطان- طرفاً من الطرق الوقائية من هواجس الشيطان، حيث إن التغلب على نزعات الشيطان ووساوسه ما يحول بين العبد وبين الإشتغال بغير ما أمر به مولاه.

والمتأمل فى الهدى الوقائى من القرآن الكريم يرى أن الله تعالى قد رسم لعباده طريق النجاة والسعادة فى الدنيا والآخرة وحذرهم من الإنحراف عن هذا الطريق الربانى السليم ، وبين لهم نتيجة الإلتزام ونتيجة الإنحراف عن دينه فقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ۞ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾[1].

ومعنى ضنكاً كما يقول **العلامة النسفى** رحمه الله تعالى : "أى ضيقاً والمعنى يسلبه القناعة حتى لا يشبع فمع الدين التسليم والقناعة والتوكل فتكون حياته طيبة ومع الإعراض الحرص والشح فعيشه ضنك وحاله مظلمة"[2].

ويقول **صاحب الظلال** فى تفسيره للآيات الكريمة: " قوله تعالى ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾أى فهو فى أمان من الضلال والشقاء باتباع هدى الله تعالى، وهما ينتظران خارج عتبة الجنة، ولكن الله يقى منهما من اتبع هداه ، والشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقاً فى المتاع، فهذا المتاع ذاته شقوة فى الدنيا، وشقوة فى الآخرة وما من متاع حرام، إلاَّ وله غُصّه تعقبه، وعقابيل تتبعه وما يضل الإنسان عن هدى الله تعالى إلاَّ ويتخبط فى القلق والحيرة والإندفاع من طرف إلى طرف، لا يستقر ولا يتوازن فى خطاه، والشقاء قرين التخبط ولو كان فى المرتع الممرع، ثم الشقوة الكبرى فى دار البقاء، ومن اتبع هدى الله فهو فى نجاة من الضلال والشقاء فى الأرض، وفى ذلك عوض عن الفردوس، المفقود حتى يؤوب إليه فى اليوم الموعود ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى... ﴾ أى

---

[1] سورة طه الآيات ١٢٣-١٢٧

[2] تفسير النسفى ١٠٢٦/٢ ط الأولى – دار القلم – بيروت

والحياة المقطوعة الصلة بالله، ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكون فيها من سعة ومتاع، إنه ضنك الإنقطاع عن الإتصال بالله، والإطمئنان إلى حماه، ضنك الحيرة، والقلق، والشك، ضنك الحرص، والحذر، الحرص على ما فى اليد، والحذر من الفوت، ضنك الجرى وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت وما يشغل القلب بطمأنينة الإستقرار إلاَّ فى رحاب الله ، وما يحس راحة الثقة إلاَّ وهو مستمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها، إنه طمأنينة الإيمان وتضاعف الحياة طولاً وعرضاً، وعمقاً، وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة، الفقر، والحرمان ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ وانقطع الإتصال بى ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾أى فى ذل وضلال فى الدنيا، وذلك جزاءً على إعراضه عن الذكر فى الأولى حتى إذا سأل ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ كان الجواب ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ۝ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ .

ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه، أسرف فألقى بالهدى من بين يديه، وهو أنفس ثراء وذخر، وأسرف فى إنفاق بصره فى غير ما خلق له، فلم يبصر من آيات الله شيئاً، فلا جرم يعيش معيشة ضنكاً ويحشر فى يوم القيامة أعمى"[1].

أى أن الله ﷻ جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه أن يعيش فى الدنيا عيشاً هنياً غير مهموم ولا مغموم ولا متعب نفسه وجعل لمن لم يتبع هداه وأعرض عن دينه أن يعيش عيشاً ضيقاً فى تعب ونصب ، ومع ما يصيبه فى هذه الدنيا من المتاعب ، فهو فى الآخرة أشد تعباً وأعظم ضيقاً وأكثر نصباً.

"وليس هناك أضيق من صدر الملحد والشاك فى الله والآخرة، إن حياته أضيق من سجن، بل من "زنزانة " فى سجن، إنه يعيش معزولاً عن الأزل والأبد، عن الأمس والغد، لا يعرف إلاَّ يومه، ولا يعرف من يومه إلاَّ لذَّاته المحسة، وهو يعيش معزولاً عن الوجود العريض، لا يرى منه إلاَّ شخصه وشخوصاً محدودة أخرى، ولا يرى من شخصه إلاَّ جسمه المادى، ودوافعه الحيوانية.

فإذا رأينا بعض هؤلاء المعرضين عن هدى الله فى بحبوحة من العيش المادى، والنعيم الحسى، فلا يخدعنا ذلك عن حقيقة حالهم، فإن الضنك الحقيقى فى أنفسهم ، وإذا ضاقت النفس، وضاق الصدر ضاقت المعيشة وضاقت الحياة كلها ، وإذا اتسعت النفس، اتسعت الحياة"[2].

---

[1] فى ظلال القرآن ٤/٢٣٥٥ - ٢٣٥٦ بتصرف.
[2] الإيمان والحياة للقرضاوى ١١٣ باختصار.

ولا شك أن أفضل مجتمع فى الوجود هو المجتمع الذى يقوم على أحسن دستور، وليس هناك دستور يكوِّن أفضل مجتمع غير دستور الله سبحانه ، وهو القرآن الكريم مع سنة النبى ﷺ التى تعد كمذكرة تفسيرية له.

قال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [١] وبهذا الهدى الإلهى تصلح المجتمعات وتطهر من الموبقات الظاهرة والمساوىء الباطنة ويعيش الناس فى سلم وأمن وسعادة.

جاء فى **تفسير المنار**: "أن الله ﷻ ذكر للنور ثلاث فوائد :

الأول : أنه يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، أى أن من اتبع منهم ما يرضيه تعالى بالإيمان بهذا النور يهديه الطرق التى يسلم بها فى الدنيا والآخرة من كل ما يرديه ويشقيه فيقوم فى الدنيا بحقوق الله تعالى وحقوق نفسه الروحية والجسدية وحقوق الناس فيكون متمتعاً بالطيبات، مجتنباً للخبائث تقياً مخلصاً، ويكون فى الآخرة سعيداً منعماً جامعاً بين النعيم الحسى الجسدى والنعيم الروحى العقلى.

الثانية: الإخراج من ظلمات الجهل والوثنية إلى نور التوحيد الخالص، حيث يصبح الإنسان حراً كريماً بين الخلق، عبداً خاضعاً بين يدى الخالق وحده.

الثالثة :الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين فى أقرب وقت لأنه طريق لا عوج فيه ولا انراف فيبطىء سالكه أو يضل فى سيره.

وهو أن يكون الإعتصام بالقرآن الكريم على الوجه الصحيح الذى أنزله الله تعالى لأجله بأن تكون عقائده وآدابه وأحكامه مؤثرة فى تزكية النفس وإصلاح القلوب وإحسان الأعمال، وثمرة ذلك سعادة الدنيا والآخرة بحسب سنن الله فى خلق الإنسان"[٢].

وتلك هى رسالة القرآن فى العالم ، وهذه هى مهمة القرآن فى هذا الوجود، أنزله الله تعالى :

١- هداية للناس

٢- علاجاً لأمراض البشرية

٣- ليضع للناس ركائز الحياة الحرة الكريمة

---

[١] سورة المائدة الآيتان ١٥-١٦

[٢] تفسير المنار صـ٣٠٥ -٣٠٦ ط دار المعرفة .

جاء القرآن ليعالج البشرية مما أصابها من مرض نفسى ، وما انتابها من اضطراب روحى لوث فطرتها ، وقضى على انسانيتها.

فالكتاب والسنة الصحيحة منهج حياة للأفراد والمجتمعات يتكفلان بالسعادة الدنيوية والأخروية ، والإعراض عنهما سبب للشقاء فى الدنيا والآخرة ، سواء فى ذلك من أعرض عنهما واستبدل بهما غيرهما من الآحاديث الموضوعة والأبيات المصنوعة، أو من تركهما بالكلية واستغنى عنهما بالمناهج الأرضية والقوانين البشرية.

"فإن الحلول الأخرى- سواء أكانت رأسمالية أم اشتراكية – لم تجلب السعادة لأهلها ولم تحقق لهم رغد العيش وطيب الحياة ولا يزال أصحابها بين حين وآخر يغيرون فيها ويعدلون، وينقضون اليوم ما أبرموه بالأمس وبخاصة "الإشتراكية العلمية" الماركسية التى فتن بها قلة من قومنا ، وأعطوها ما يعطى المتدينون لوحى السماء من القداسة والخلود أو أكثر ، ثم لم تمض السنون حتى أصبح دعاتها أنفسهم يتراجعون عن كثير من مبادئها ، على كره منهم، ومعارضة من متعصبيهم.

لكن الحل الإسلامى وحده هو الذى يحقق التوازن المقسط فى حياتنا الفردية والإجتماعية، فلا تميل به كفة الميزان فى جانب من الحياة على حساب جانب آخر. ذلك أن هذا الحل- من الناحية الموضوعية- هو الحل العادل الوسط المتوازن، الذى يرئ من التطرف، والإندفاع الأعمى إلى اليمين أو اليسار، فسلم من تفريط الرأسماليين الذين جاروا على حق المجتمع من أجل حرية الفرد، ومن إفراط الإشتراكيين الذين طغوا على حق الفرد من أجل مصلحة المجتمع وسلم من غلو الفريقين فى الإهتمام بالمادة على حساب الدين، وبالشهوات على حساب الأخلاق.

إن جماهير الأمة لتعلم حق العلم أن سعادتها- دنيا وأخرى- فى اتباع دينها والإهتداء بكتاب ربها، وسنة رسولها، وتحكيم أمر الله تعالى فى شئون حياتها، وإقامة حدوده عليها، وأن الشقاء والجوع والخوف والمعيشة الضنك- فضلاً عن عذاب الله فى الآخرة – هو جزاء كل من أعرض عن هدى الله تعالى وحكمه وشرعه وانحرف عن طريقه ونبذ كتابه وراءه ظهرياً.

إنه يعنى بالجانب الإقتصادى فى الحياة، والجانب المادى فى الإنسان، ويعنى عناية كبيرة بتدبير المعيشة، وزيادة الإنتاج، والمحافظة على الأموال التى جعلها الله للناس قياماً، والعمل عى تنمية الثروة والعدل فى توزيعها، ويعمل على تحقيق التأمين الإجتماعى، كما يهتم بالجسم الإنسانى وصحته وقوته. ولكن لا يرتضى ذلك غاية للمسلم ومحوراً لحياته، ولا يجعله أكبر همه ومبلغ علمه.

الحياة ليست اقتصاداً فحسب، وليست كل مشكلتها نقص الإنتاج، أو سوء التوزيع وليس الإنسان مجرد "حيوان اقتصادى" كما يزعم المتطرفون، كل همه إشباع رغباته المادية، وكل عمله البحث عن وسائل إشباعها، فإذا زدنا الإنتاج، ونظمنا توزيع السلع والخدمات، فقد انحلت العقدة، وارتفعت الشكوى، وطابت الحياة وسعد الإنسان.

لقد نسى هؤلاء أن النفس الإنسانية ، وما تملكه من فكرة عن الوجود ونظرة إلى الحياة ، ومثل للسلوك، هى العامل الأول، الذى بدونه يفشل كل حل، وينتكس كل علاج.

وما أصدق القرآن الكريم حين بين سنة الله تعالى: أن التغيير المادى للجماعات إنما يتبع تغيير أنفسها، فإذا أردنا تغيير حياتنا الإقتصادية إلى حياة أفضل فلنغير حياتنا النفسية ، فلنغير أخلاقنا وأفكارنا وسلوكنا أولاً إلى ما هو أهدى وأقوم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (١).

إن عيب تلك الحلول المستوردة كلها أنها حلول مادية محض ، لا يهمها فى الحياة إلاَّ الجانب الإقتصادى، ولا يعنيها من الإنسان إلاَّ دنياه العاجلة ، فأما الدار الآخرة وحسابها ، فهذا شىء لا يخطر لهذه الأنظمة والمذاهب الجديدة على بال.

عيب تلك الحلول البشرية أنها دائماً قاصرة وعاجزة عن النظرة الشاملة والنفاذ إلى الأعماق، والإحاطة بجميع الجوانب، فهى جزئية، ووقتية وموضعية وسطحية وناقصة.

وهكذا كان الحل الإسلامى– وهو ربانى المصدر– متميزاً بشمول النظرة وعمقها إلى الحياة بجميع جوانبها، وإلى الإنسان بجميع خصائصه وجميع حاجاته الظاهرة، والباطنة، المادية والروحية، الفردية والإجتماعية الحل الإسلامى هو الذى يتجاوز الجانب المادى إلى الجانب النفسى والمعنوى، فيوجه عناية بالغة إلى "الكائن الداخلى" فى الإنسان، إلى تلك المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب.

ذلك القلب الذى لا يستشعر الطمانينة إلاَّ بمعرفة الله تعالى وذكره، والاعتصام به، ولا تهب عليه نسمات السكينة المنعشة إلاَّ من رياض الإيمان بالله قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾(٢) وقال أيضاً: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾(٣).

---

(١) سورة الرعد الآية ١١

(٢) سورة الرعد الآية ٢٨.

(٣) سورة الفتح الآية ٤

يقول الإمام ابن القيم: " وكما أن الله سبحانه وتعالى جعل حياة البدن بالطعام والشراب فحياة القلب بدوام الذكر والإنابة إلى الله تعالى ، وترك الذنوب ، والغفلة الجاثمة على القلب والتعلق بالرذائل والشهوات يضعف هذه الحياة ولا يزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت، وعلامة موته أنه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً "[١].

الحل الإسلامى هو الحل الوحيد الذى يقوم على أساس من العلم بحقيقة الإنسان والإعتراف بالواقع والفطرة، ولهذا يعترف بهذا الكائن المعنوى فى الإنسان "القلب" أو "الروح" أو "الضمير" ويسعى لرى ظمئه، وإشباع نهمه، وقضاء وطره بذكر الله تعالى وشكره، وحسن عبادته، ويعده لحياة الخلود فى الآخرة، فهو حل يصل الدين بالدنيا، وبهذا تتكامل الحياة ويسود التوازن، وتسير فيها الروح والمادة جنباً إلى جنب، والإقتصاد والعبادة كتفاً إلى كتف قال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [٢]

وقد يقول السطحيون: ما دخل هذا الكلام فى علاج المشكلات الإجتماعية والإقتصادية؟

ونقول : إن أساس المشكلة كلها هو الإنسان وكل علاج لها يتجاهل حقيقة الإنسان وحاجات روحه وأشواق قلبه، إنما هو علاج سطحى، أشبه بالاقراص المسكنة، والأدوية المخدرة، التى تهدىء الألم ساعات من الزمن، ولكنها لا تقتلع جرثومة الداء ولا تصل بالمريض إلى نهاية الشفاء.

إن الذين نظروا إلى الإنسان باعتباره "كائناً اقتصادياً" كل عمله أن ينتج ويستهلك وكل همه ان يأكل ويتمتع، قد جهلوا الإنسان أكبر الجهل، وكان من نتيجة جهلهم بحقيقة الإنسان أنهم لم يستطيعوا أن يحققوا له السكينة والسعادة التى ينشدها، بل زادوا حياته بؤساً ونكراً، وزادوا بحلولهم القاصرة مشكلاته تعقيداً على تعقيد.

أما النظام الإسلامى فإن أول ما يعنى به هو تكوين الإنسان الصالح ،وعلى هذا الأساس تقوم اجهزته كلها فى جوانب التربية والتثقيف والإعلام والتوجيه والتشريع والتنظيم.

ومن هنا نجد "الحل الإسلامى" لا يعتمد على سيف السلطان، وسوط القانون ورقابة الحكومة فحسب، كما هو شأن الحلول البشرية الأخرى، إنما يعتمد بجوار ذلك على الضمائر الحية، والقلوب المؤمنة، التى تحوطه وترعاه وتستجيب لأوامره، وتنهى عن محظوراته، ذلك

---

[١] تهذيب مدراج السالكين صـ٥٩٦

[٢] سورة النور الآية ٣٧

لأنه ليس حلاً ناشئاً من الأرض، ولكنه منزل من السماء، ليس حلاً صادراً عن عقل بشر، ولكن من عند الله رب العالمين.

ومن مزايا الحل الإسلامى: أنه الحل الذى يحقق للأمة الإستقرار والطمأنينة ويرسى حياتها على دعائم ثابته لا تهن ولا تتزلزل، لأنها من صنع الله تعالى ووحى السماء، وبذلك تأمن الإضطراب بين المذاهب والنزعات، والتقلب بين اليمين واليسار والتأرجح بين هذا المعسكر وذاك.

ذلك أن هذا الحل هو الحل الفذ الذى تتلقاه طبقات الأمة كلها بالقبول، وتستقبله بالرضا، لأنه نابع من روحها، مطابق لعقيدتها، نابت من أرضها، متجاوب مع مشاعرها، متصل بأعماقها، وليس دخيلاً عليها، ولا غريباً عنها، ومن هنا لا يجد عداء ولا مقتاً ولا مقاومة ولا سخطاً، ما يجده أى حل آخر يستورد من الشرق أو الغرب، ويفرض على الأمة فرضاً بغير اختيارها ولا رضاها، بل بسلطان القوة وقوة السلطان.

ولهذا يجر غالباً إلى الصراع والعنف، والصدام الدموى بين الشعب والسلطة الحاكمة، وهذا سر الهزات الإقتصادية المتكررة والقلاقل الإجتماعية الدائمة، والإضطرابات السياسية المتتابعة، والإنقلابات العسكرية المتوالية، مما جعل كثيراً من البلاد الإسلامية تخوض بحراً من الدم، وتجتاز كثباناً من أشلاء الضحايا، الذين يعدمون أو يسجنون، أو يطردون، أو يعزلون من مناصبهم أو يحرمون من حق المشاركة فى توجيه وطنهم ومصير أمتهم.

ومزية أخرى نضيفها للحل الإسلامى: فهو الحل الذى يحقق لأمتنا كرامتها وشخصيتها ويبرز أصالتها واستقلالها، بل يضعها موضع الأستاذية للأمم الأخرى حيث تحمل إليها حلاً جديداً لعقد الحياة، ومشكلات الكون والإنسان حلاً غير تلك الحلول اليمينية أو اليسارية التى جرفت الإنسان إلى شفا الهاوية، وجلبت عليها الشقاء والدمار والقلق والرعب ، فباتت فى ذعر وأصبحت فى خوف وأمست فى اضطراب.

إن المجتمعات الإنسانية تحاول اليوم جاهدة القضاء على الفقر وإغناء الفقراء عن الحاجة ، ولم تستطع أن تحقق ذلك ، لا فى المجتمعات الرأسمالية ولا الإشتراكية.

أما الإسلام فقد استطاع- حين أحسن تطبيقه، وحين استقر الوضع السياسى للمسلمين وتهيأ لهم حكم عادل، وخلافة راشدة- أن يمحو الفقر المذل، حتى يتحير صاحب الصدقة أين يضعها، مما أظل الناس من عدل الإسلام وفضل الإسلام.

فى ظل النظام الإسلامى حققت هذه الأمة رخاء منقطع النظير، لا بزيادة الإنتاج فحسب، بل بعدالة التوزيع أيضاً، فلا خير فى تدفق الغنى والثروة على أمة، إذا نعمت به طائفة أو طوائف، وحرم منه آخرون.

إن أفضل أنواع العلاج هو ما جرَّ به المريض، فحسم داءه، وعجل شفاءه، والأحمق من الناس هو الذى يدع الدواء المجرب الموفور عنده، ويبحث عن دواء جديد عند الأجانب عنه، بل عند خصومه وأعداء دينه وأمته، مع أن هذا الدواء الذى يلتمسه لم يشف أصحابه، ولم يهيىء لهم العافية، ولم يزدهم إلاَّ خبالاً.

لقد ذاق الغرب الويل على يدى الرأسمالية الفاجرة، والماركسية الكافرة، ومن المحال أن تفشل هذه المذاهب والأنظمة فى بلادها، وتفلح عندنا نحن، وهى غريبة عنا كل الغربة عن ديننا وقيمنا وشريعتنا وتراثنا وتاريخنا. فإن ظننا أننا سنحل بمذهب نستورده مشكلات مجتمعاتنا ونعالج به فساد أوضاعنا، فنحن كالذى يريد أن يطفىء النار فيرميها بالخشب، فيسكت لسانها المندلع لحظات، ثم يمتد لهيبها فلا يبقى ولا يذر. إن من حمق الإنسان أن يعلّج مشكلة بخلق مشكلات، وأن يتفادى خطأ فيقع فى أخطاء، فيكون كالذى يقضى الدين بالدين، أو الذى يستشفى من داء بداء.

وأخيراً.... إن الحل الإسلامى هو الحل الذى جرب فى هذه الأمة من قبل، فأعطى نتائج باهرة ، وحقق نجاحاً منقطع النظير، وسعت تحت سلطانه بالطمأنينة والعدل والإستقرار. وأطعمها الله به من الجوع، وآمنها من خوف، وأعزها بعد ذل، وعلمها بعد جهل،وهداها بعد ضلال قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [2].

وهكذا كانت الأمة العربية على شفا الهلاك والدمار فى عقائدها وأخلاقها ومجتمعها حتى أنقذها الإسلام وأخرجها من بين الضلال إلى الهدى، ومن الجهل إلى العلم، والعصبية إلى الأخوة، ومن الفوضى إلى النظام، وبعبارة موجزة من الظلام إلى النور.

---

[1] سورة آل عمران الآية ١٦٤

[2] سورة آل عمران الآية ١٠٣

بهذا الحل نحفظ ديننا، وأعراضنا، وأموالنا، وأخلاقنا، ونربح دنيانا وضمائرنا، كما نرضى ربنا، ونرتبط بماضينا ولا ننفصل عن حاضرنا، كما لا نغفل مستقبلنا إنه الحل العادل، لأنه الحل الذى وضعه الله تعالى لعباده دستوراً ومنهاجاً، وحكم به دواء وعلاجاً قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[١] [٢].

جاء الإسلام ليمثل عرش الشيطان، ويقيم عرش الضمير داخل النفس الإنسانية، يتابع تصرفاتها، ويحبط تطلعاتها إلى ما ليس من حقها، ويقهرها بردها عن مطامعها وأشواقها حتى تستقر على طاعة الله تعالى، المطلع على الضمائر، العالم بالسرائر الرقيب على أعمال العباد، القائم على كل نفس بما كسبت.

جاء الإسلام ليقرر سلطان الله فى الأرض المتمثل فى شرائعه وأحكامه ونظامه، المقامة على قاعدة الألوهية الواحدة، التى تكلف بناؤها فى ضمائر الجماعة المسلمة الفترة المكية كلها من عمر الدعوة إلى الإسلام، حتى تمكنت واستغرقت شعاب النفس كلها، وأصبحت العقيدة الإسلامية تضرب بجذورها فى أعماق الأعماق، منها الإنطلاق وإليها وحدها المرجع والمآب.

وامتدت فروعها وأغصانها لتتناول الحياة كلها، وتنظم شئون البشر الدينية والدنيوية كلها كبيرها وصغيرها، فى عالم الشهادة البارز فى الحياة، وفى عالم الغيب المكنون، فى المعاملات المادية وفى أعماق الضمائر ودنيا النوايا والسرائر، حتى تستطيع البشرية فى أطوارها المختلفة فى تقدمها تهذب العقيدة من إسرافها على نفسها، وفى تخلفها تدفعها العقيدة إلى استشعار كرامتها وتحقيق عزتها، فتتلمس البشرية طريقها، وتجد أمنها واستقرارها.

إن العودة إلى الإسلام هى ماء الحياة الذى يرد على الأمة روحها، ويجرى فى أوصالها العافية والقوة، كما أنه المصل الواقى الذى يمنحها المناعة ضد الجراثيم الفتاكة التى يبثها أعداؤها.

العودة إلى الإسلام هى التى تصلح ما فسد من هذه الأمة وتنشئها خلقاً آخر وتسلمها من جديد زمام التاريخ.

ولست هنا بصدد الحديث عما جاء الإسلام من أجل الوفاء به، ولكننى أردت الإشارة إلى جزئيات استحالت مع كل ما جاء به الإسلام إلى شخصيات ووقائع ونماذج عملية رأتها البشرية وشهدتها وتركت آثارها فى واقع الحياة وفى أطوار التاريخ، الأمر الذى كان ولا زال وسيظل أعظم أحداث التاريخ على الإطلاق، أقول أردت الإشارة إليها لتكون ماثلة أمام الحاكم وهو يعمل

---

[١] سورة المائدة الآية ٥٠

[٢] الحل الإسلامى فريضة وضرورة للدكتور القرضاوى ٩٧/٢ وما بعدها باختصار وتصرف

على بعث العقيدة الإسلامية معتمداً على رصيد تجربة إسلامية شاملة وعميقة لأنها من عند الله تعالى عاشت فى ضمائر المسلمين أفراداً وجماعات ودولاً كما عاشت فى حياتهم فى صورة عقيدة وعبادة وخلق تحت الراية الوحيدة وهى راية "لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله"

وإذا كان الإسلام عقيدة وشريعة، فإن الإيمان هو الأساس الأول فى القواعد الذاتية لمجتمعنا الإسلامى ومدخلها الإيمان بالله تبارك وتعالى وبملائكته وكتبه ورسله والثواب والجزاء. وهذه العقيدة تنير أمامنا طريق العبادات وهى الأساس الثانى لبناء المجتمع وتاتى الدعامة الثالثة فى الأخلاق. والقواعد الثلاثة الاولى وهى الإيمان والعبادة والأخلاق هى التى تخلق الفرد المسلم القوى الذى يشكل لبنة صالحة فى مجتمع مؤمن قوى خلاَّق.

والكلام فى هذا الباب ينتظم فى ثلاثة فصول :

الفصل الاول : العقيدة وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم.

الفصل الثانى : العبادات وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم.

الفصل الثالث : الأخلاق وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم.

obeikandl.com

الفصل الأول
العقيدة وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم

ويتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العقيدة وأهميتها

المبحث الثانى: خصائص العقيدة الإسلامية

المبحث الثالث: أثر العقيدة الإسلامية على الفرد والمجتمع المسلم

obeikandi.com

المبحث الأول

العقيدة وأهميتها

obeikandl.com

العقيـــدة وأهميتهـــا

مُقَدِّمَة

إن التحلل الذى دب فى أوصال العالم الإسلامى، وانتهى باستعمار الغرب له كان نتيجة حتمية لبعدهم عن الله تعالى، ونسيانهم لكثير مما ذكروا به، ولم يعلموا أنهم بذلك يفتحون أبواب الذل على مصاريعها ليدخل منها الأعداء ويغزوهم فى عقر دارهم. فلما دهمهم الغرب بحوله وطوله وأجلب عليهم بخيله ورجله استيقظوا ولكن يقظة المذعور المذهول الذى لا يدرى ماذا يفعل، لم تسعفهم قوتهم المادية فى صد الغزاة، ولم يلتمسوا العون من الدين لأنهم هجروه هجراً غير جميل.

فوقفوا بضعفهم أمام القوة وبجهلهم أمام العلم وبفقرهم من الإيمان أمام المادة الطاغية التى سحرت أعين الناس فكان المصير المحتوم وهو الهزيمة لعدم تكافؤ القوى.

ولو أنهم – وقد انهزموا – تماسكوا وتحملوا وطمعوا فى الكرة بعد الفرة ، ولكن أصابهم شر ما يصاب به المغلوب وهو الإعجاب بالغالب والإكبار له والذوبان فيه ورؤية كل شىء فيه حسناً .

والغرب ينهج منهجاً مادياً متطرفاً ينافى تعاليم الأديان ويتعارض مع هاديات السماء وآراء المعتدلين من الفلاسفة الأخلاقيين .. إنه بكتلتيه الشيوعية – والرأسمالية – لا يؤمن فعلاً بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ... إنه يعبد الدنيا ويعتقد أنها حظه ومنتهى أمله وفرحته الوحيدة ، وأن السعادة كل السعادة فى أن يعب منها عللاً ونهلاً ويشرب منها بالكبير وبالصغير وكل فكر المفكرين وجهد العاملين وبراعة الساسة والحاكمين ، مجند لهذه الغاية مسخر فيها ... ومن هنا كثر استهتارهم بالمتع وتهافتهم على اللذات واستخفافهم بالقيم واحتقارهم للمبادىء وعداوتهم لكل ما يجد من مطامعهم ويهذب من غرائزهم ويكفكف من شهواتهم ويطالبهم بالفضل والإيثار.

لهذا كثر الزحام على المغانم والتقاتل على الأسلاب والتنافس فى الشر والتعاون على الإثم والعدوان، تلك فلسفة الغرب التى فتن بها الشرق – مهد الديانات والروحانيات ومشرق شمس النبوات .. وهذا منهجه الذى مع الأسف الشديد – الذى ارتضاه المسلمون.

فالمسلمون يجتهدون فى التحرر من سيطرة الغرب والتفلت من قبضة حكمه ولكنهم فى الوقت نفسه يترسمون خطاه فى منهجه المادى ونظرته إلى الحياة ، وقد يكرهون منهجاً لكتلة من كتل الغرب ويكتشفون عواره وبواره، ولكنهم لا يفرون منه إلى الإسلام وإنما يفرون منه إلى منهج الكتلة الأخرى فلا يزيدهم ذلك إلاَّ خبالاً.

تعريف العقيدة :

تتردد كلمة العقيدة على ألسنة الناس وفى محاوراتهم ومحادثاتهم كثيراً فنراهم يقولون "أنا أعتقد كذا وفلان عقيدته حسنة ، والعقيدة الإسلامية هى السبب الأقوى الذى أدى إلى الإنتصارات الإسلامية العظيمة فى كل زمان ومكان ، والحرب بيننا وبين اليهود وحرب عقائدية فى حقيقتها .... "

فما معنى كلمة (عقيدة) فى اللغة ؟ وما مفهومها فى الشرع؟

العقيدة فى اللغة :

يقول صاحب كتاب مختار الصحاح:"عَقَدَ الحبل والبيع والعهد فانْعَقَدَ، وعَقَدَ الرُّبُ وغيره غَلُظَ فهو عقيد، وبابهما ضَرَبَ، وأعقَدهُ غيره، وعقَّدَهُ تَعقيداً، والعُقْدَة بالضم موضع العَقْد وهو ما عُقِد عليه، والعُقْدة الضَّيْعة، والعِقْدُ بالكسر القِلادة، وكلام مُعَقَّد بالتشديد أى مُغَمَّضُ، واعْتَقَد كذا بقلبه وليس له مَعقودُ، أى عَقْدُ رأى والمُعاقَدة، وتَعاقَد القومُ فيما بينهم والمعَاقد مواضع العَقْد، والعقيد المُعَاقد "[1].

وفى المعجم الوسيط: (عَقَدَ) السائل عَقَداً : غلُظَ أو جَمُدَ بالتبريد أو التسخين ، والعقد من اللسان : حالة خلقية تنشأ عن قصر فى حكمة اللسان فتحد حركته ، وفى التنزيل :﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾[2].

والعقد من كل شىء: وجوبه وإحكامه وإبرامه، وفى التنزيل العزيز:﴿ وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [3].

والعقدة: الحكم الذى لا يُقبل الشك فيه لدى معتقده ، والعقيدة فى الدين ما يقصد به الإعتقاد دون العمل ، كعقيدة وجود الله وبعثة الرسل"[4]

ويقول ابن منظور: "عقد الحبل" شد بعضه ببعض نقيض حله ، ومادة "عقد" فى اللغة مدارها على اللزوم والتأكيد والاستيثاق ، ففى القرآن الكريم :﴿ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ ﴾[5].

---

[1] مختار الصحاح ، مادة عقد صـ٤٤٤ ، ٤٤٥

[2] سورة طه الآيتان ٢٧-٢٨

[3] سورة البقرة الآية ٢٣٥

[4] المعجم الوسيط مادة عقد صـ٦٣٧ ، مطابع الأوفست ١٤٠٥ هـ -١٩٨٥م

[5] سورة المائدة الآية ٨٩

وتعقيد الأيمان إنما يكون بقصد القلب وعزمه ، بخلاف لغو اليمين التى تجرى على اللسان بدون قصد.

والعقود: أوثق العهود ومنه قوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ [١]

وتقول العرب : اعتقد الشيء : صلب واشتد "[٢].

وفى **المصباح المنير**: "اعتقدت كذا: عقدت عليه القلب والضمير، حتى قيل : العقيدة : ما يدين الإنسان به، وله (عقيدة) حسنة سالمة من الشك"[٣].

ويفهم من هذا أنه : ليس من الضرورى أن تكون العقيدة صحيحة لتسمى عقيدة، ولكن قد تكون العقيدة صالحة فتوصف بالصلاح والصحة ، وقد تكون فاسدة فتوصف بأنها عقيدة فاسدة.

أى أن الإعتقاد: هو الحكم الجازم القابل للتغيير، طابق الواقع أم لم يطابقه فإن طابق الواقع فهو اعتقاد صحيح، وإن لم يطابقه، فاعتقاد فاسد.

الخلاصة: العقيدة فى اللغة: "هى ما يعقد الإنسان قلبه عليه ، ثم أصبحت تطلق على ما يدين الإنسان به من الأفكار والآراء التى يؤمن بها، والتى تحل فى قلبه وضميره وتنعكس على تصرفاته وسلوكه، ومن هنا عَرَّف بعضهم الإنسان بأنه كائن يقاد من داخله ، أى من معتقداته وما يؤمن به"[٤].

والعقائد هى: "الأمور التى تصدق بها النفوس، وتطمئن إليها القلوب وتكون يقيناً عند أصحابها، لا يمازجها ولا يخالطها شك "[٥]

العقيدة فى الإصطلاح :

إن علماء المسلمين جعلوا هذا اللفظ علماً بالغلبة على العلم الذى يبحث فيما يجب على الإنسان أن يعتقده ويؤمن به ، ويقيم عليه البرهان الصحيح الذى يفيد اليقين ويطلق أيضاً على المبادىء الدينية نفسها التى ثبتت بالبرهان القاطع.

يقول **الجرجانى فى كتابه التعريفات** : " هى ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل"[٦].

---

[١] سورة المائدة الآية ١

[٢] لسان العرب مادة عقد ٨٣٦/٢

[٣] المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى صـ ٤٢١ تأليف العالم أحمد بن محمد المغربى الفيومى المكتبة العلمية – بيروت – لبنان

[٤] العقيدة الإسلامية (أركانها – حقائقها – مفسداتها) صـ١٧ ، تأليف د/ مصطفى سعيد الخن ، ومحى الدين ديب مستو ، دار الكلم الطيب – بيروت – لبنان – الطبعة الثالثة ١٤١٩ –١٩٩٩م

[٥] العقيدة فى الله صـ١١ ، تأليف د/عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس للنشر والتوزيع الأردن – الطبعة الحادية عشرة ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨م.

[٦] التعريفات للشريف على بن محمد الجرجانى ، صـ١٥٢ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م

ويقول **الشيخ /سيد سابق:**"هى التصديق بالشىء والجزم به دون شك او ريبة"[١]. وقد عرَّف البعض العقيدة الإسلامية : بعلم التوحيد ، وعلم أصول الدين ، أو الفقه الأكبر، فقالوا: "هى العلم الذى يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه"[٢].

ويقول **الدكتور/ محمد خير فاطمة:** " هى نظرة الإسلام العامة إلى الوجود وتصوره الشامل له، أو هى ذلك التصور الكلى اليقينى الشامل عن الحقائق الكبرى التى دعا الإسلام إلى الإيمان بها دعوة ملحة .

والعقيدة الإسلامية هى مجموع من قضايا الحق البديهية المسلمة بالعقل والسمع والفطرة يعقد عليها الإنسان قلبه ، ويثنى عليها صدره جازماً بصحتها، قاطعاً بوجودها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبداً.

وأصول العقائد التى أمرنا الله باعتقادها هى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[٣].

وحددها الرسول ﷺ فى حديث جبريل المشهور بقوله: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث) [٤].[٥]

وصفوة القول :

العقيدة فى الإسلام هى المسائل العلمية التى صح بها الخبر عن الله ورسوله ، والتى يجب أن ينعقد عليها قلب المسلم تصديقاً لله ورسوله.

وهذا ما يؤكده الإمام الأكبر **الشيخ / محمود شلتوت** حيث يقول: " العقيدة هى الجانب النظرى الذى يطلب الإيمان بالله أولاً وقبل كل شىء ، إيماناً لا يرقى إليه شك ، ولا تؤثر فيه شبهه ، ومن طبيعتها تضافر النصوص الواضحة على تقريرها ، وإجماع المسلمين عليها من يوم أن ابتدأت الدعوة مع ما حدث بينهم من اختلاف بعد ذلك فيما وراءها وهى أول ما دعا إليه

---

[١] العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق صـ٨ ،ط دار الفكر بيروت- لبنان- ١٩٨٣م

[٢] المواقف تأليف عضد الدين عبد الرحمن الآيجى صـ٧ مكتبة المتنبى القاهرة.

[٣] سورة البقرة الآية ٢٨٥

[٤] رواه البخارى ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ، وبيان النبى له ١/٥٤.

[٥] منهج الإسلام فى تربية عقيدة الناشىء ، بقلم المربى الدكتور / محمد خير فاطمة صـ٤٥ دار الخير الطبعة الأولى ١٤١٩هـ -١٩٩٨م

الرسول ﷺ وطلب من الناس الإيمان فى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ، وهى دعوة كل رسول جاء من قبل الله ﷻ كما دلَّ على ذلك القرآن الكريم فى حديثه عن الانبياء والمرسلين"[١].

"فالعقيدة هى تنظيم لعلاقة الفرد بربه ، وبيان ما يجب عليه نحوه من الاعتقاد فى وجوده والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر ومعرفة ما يجب أن يوصف به وما يجب أن يتنزه عنه"[٢].

"هذا ومن يتمسك ويلتزم بهذه العقيدة يعش طيب القلب مرتاح النفس منشرح الصدر عزيزاً له دعامة وسيادة وقيادة ، وأعظم من ذلك هو فى الآخرة من السعداء الفائزين"[٣].

هذا وبعد أن بينا إطلاقات العقيدة فى اللغة والإصطلاح ، نلقى الضوء فى هذه السطور على

أهمية العقيدة :-

"تحتاج المجتمعات البشرية إلى عناصر أساسية تقوم عليها حياتها وتستقيم بها أمرها، وترتكز عليها عجلة الزمن، وحركة التاريخ فى دورانها، فإذا غاب عنصر ما من هذه العناصر اختل التوازن فى المجتمع، واضطربت أمور المعيشة فلا يجد الفرد مأمناً يركن إليه، ولا مستقبلاً يسعى له، ولا هوية يعرف بها، فتنقطع الروابط الإجتماعية، وتتلاشى الصلات الإنسانية، فيصبح الأفراد فى المجتمع وحدات مستقلة بعضها عن بعض، ليست هناك صلة تربط الواحد منهم بالآخر، ولا يحس بأدنى شعور يجذبه إلى أخيه الإنسان فى المجتمع الذى يضمهم بين جنباته، لأن عنصر التوحيد والتجميع قد فقد، فلا أثر له بينهم، إذ لا وجود له فى حياتهم، أولى هذه العناصر التى هى عصب الحياة الإجتماعية والعمود الفقرى الذى يجمع شتات الامة ويوجد بين أفرادها (العقيدة) فهى أهم العناصر اللازمة فى حياة المجتمعات والأفراد ....إذ العقيدة هى الأمر الفطرى الجوهرى بالنسبة للإنسان، ولهذا مال الإنسان بفطرته إلى العقيدة، فأمن بقوة تفوق كل ما يقع تحت حواسه من قوى، وتعلو فوق كل ما يتصوره خياله من صور تتمتع بالسيطرة والتحكم فيما حولها "[٤].

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت صـ٩ ، ١٠ بتصرف يسير.

(٢) العقيدة الإسلامية للدكتور / شوقى إبراهيم عبد الله صـ٣٤ ،٣٥ بتصرف ، القاهرة ١٩٨٥م.

(٣) عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين ، تأليف الشيخ / صالح إبراهيم البليهى ١/٣٤ ،٣٥ باختصار ط الثانية ١٣٠٤هـ - المملكة العربية السعودية.

(٤) الإسلام دين ودنيا تأليف د/ محمد شامه صـ٢٥ ،٢٦ باختصار ، ط أولى نشر مكتبة أبوللو ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

"وقد لمسنا فى عصرنا محنة الفرد المسلم، فى المجتمعات التى لا تلتزم بالإسلام منهاجاً لحياتها، ناهيك بالمجتمعات التى تعادى شريعته، وتطارد دعوته، وكيف يعيش هذا الفرد فى توتر وقلق وحيرة، نتيجة لما يحس به من تناقض صارخ بين ما يؤمن به من أوامر دينه ونواهيه من جهه، وما يعايشه وما يضغط عليه من أفكار المجتمع ومشاعره وتقاليده وأنظمته وقوانينه، التى يراها مخالفة لتوجيهات عقيدته، وأحكام شريعته، ومواريث ثقافته من جهة أخرى"(١).

"فالبشرية فى كل زمان ومكان فى أمس حاجة وأعظم ضرورة إلى عقيدة وشريعة وخاصة المسلمون هم فى أعظم ضرورة إلى عقيدة وشريعة صحيحة....، إذ من يتمسك ويلتزم بهذه العقيدة يعيش طيب القلب مرتاح النفس منشرح الصدر، عزيزاً له دعامة وسيادة وقيادة وأعظم من ذلك هو فى الآخرة من السعداء الفائزين .... "(٢).

يقول **د/ القرضاوى** : " إن أول اساس يقوم عليه المجتمع المسلم ويقوم به هو العقيدة : عقيدة الإسلام ، فمهمة المجتمع الأولى هى حماية هذه العقيدة ورعايتها وتثبيتها، ومدَّ نورها فى الآفاق.

وعقيدة الإسلام تتمثل فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(٣).

ولهذه العقيدة عنوان يلخصها أو شعار يعبر عنها هو: شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله هذه العقيدة هى التى وجهت نظر المسلمين إلى الكون، ورب الكون، وإلى الطبيعة وما وراء الطبيعة، وإلى الحياة وما بعد الحياة وإلى العالم المنظور والعالم غير المنظور، وبعبارة أخرى: إلى الخلق والخالق، إلى الدنيا والآخرة، إلى عالم الشهادة وعالم الغيب"(٤).

"فالتوحيد هو عماد الدين وجوهر العقيدة، وأول الدين وآخره، وظاهره وباطنه، قامت عليه الأدلة، ونادت عليه الشواهد وأوضحته الآيات، وأثبتته البراهين، ونصبت عليه القبلة، وأسست عليه الملة، ووجبت عليه الذمة، وعصمت به الأنفس وحقنت به الدماء، وامتازت به دار الإيمان عن دار الكفر، وانقسم به الناس إلى مؤمن وكافر، وسعيد وشقى، ولقد عنى به القرآن

---

(١) ملامح المجتمع المسلم ننشده للقرضاوى صـ٥

(٢) عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين ١/٣٤، ٣٥

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٥

(٤) ملامح المجتمع المسلم صـ٩

الكريم عناية عظيمة، فهو القضية الكبرى، قضية العقيدة التى هى قوام الدين كله، إنها قوام حياة الضمير، وقوام حياة الأسرة لأجيالها المتتابعة وقوام حياة الإنسانية "[١].

يقول **الشيخ شلتوت** مبيناً أن عقائد الإسلام هى أساس كل دين سماوى "إنها هى- عقائد الإسلام- أساس كل دين إلهى، والأديان التى لا تبنى عليها فى حكمه ، أديان باطلة لا يقام لها وزن ، فالإسلام ينكر على الملحدين الذين لم يؤمنوا بالإله الخالق إلحادهم ، وعلى المشركين الذين يعبدون مع الله غيره شركهم ، وينكر على الذين لا يؤمنون بالملائكة والكتب واليوم الآخر عدم إيمانهم ، ويدعوهم إلى الإيمان بتلك العقائد عن طريق النظر والحجة "[٢].

"هذا ولقد جاء الأنبياء- عليهم السلام- برسالات السماء ليصححوا للناس هذا التخبط الذى وقع فيه الإنسان فى رحلة البحث عن المعبود، ونجحوا بعد جدال ومحاورة مع أقوامهم فى تربية الكثير من معاصريهم تربية دينية، بحيث أصبح تصورهم للمعبود تصوراً صحيحاً وعبادتهم له خالية من شوائب الشرك ورواسب الكفر والضلال، غير أنهم ما لبثوا بعد رحيل الأنبياء عنهم أن ضلوا عن الطريق المستقيم، فدخل الشرك فى عقيدتهم، وتغلغلت الصور الزائفة فى عبادتهم، وطمست معالم العقيدة التى بلَّغها الأنبياء لهم، وانمحت صور الإيمان من حياة المجتمع، وأصبحت العقيدة تصورات شتى عن المعبود، وثَنِى ومجوسى، كافر بالله ومشرك معه إله غيره، زنديق وملحد، إلى أن جاء سيدنا محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة تبين للناس بطلان هذه الصور كلها، حيث أعلن لهم أن ما يعبدونه من أوثان يتنافى مع أبسط ما يتصوره عقل، إذ لو أمعن الإنسان النظر فيما يعبد لرآه عاجزاً لا يدفع عن نفسه ضراً ولا يملك لنفسه نفعاً.

ويتضح لنا فيما سبق ضرورة العقيدة بالنسبة للمجتمع والأفراد، وتخبط الإنسان فى البحث عنها، وتصحيح الأنبياء لما وقعت فيه البشرية فى مجال المعبود والعبادة، ثم الضلال الذى وقع فيه الإنسان، على أن جاء سيدنا محمد ﷺ بخاتم الرسالات، فواجه كل صور الضلال، مبيناً ما فيها من فساد، وأنها أشياء لا تضر ولا تنفع "[٣].

نعم: "لقد جاء الإسلام وفى العالم ركام هائل من العقائد والأفكار والأوهام والأساطير والأوضاع والأحوال ، يختلط فيها الحق بالباطل ، والصحيح بالزائف والضمير البشرى تحت هذا الركام الهائل يتخبط فى ظلمات وظنون لا يستقر منها على يقين ، والحياة الإنسانية بتأثير

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية ، مجلة دورية تصدر عن رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية " بالرياض ، صـ٣٥٥ ، ٣٥٦ ط ١٤١٨هـ و١٤١٩هـ العدد الثالث والخمسون

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ / شلتوت صـ٤٤

(٣) الإسلام دين ودنيا للدكتور / محمد شامه صـ٢٦ وما بعدها باختصار

هذا الركام الهائل، تتخبط فى فساد وانحلال، وفى ظلم وذل، وفى شقاء وتعاسة، لا تليق بالإنسان بل لا تليق بقطيع من الحيوان "[١].

فلا شك أن الإسلام جاء وأشرق نوره على العالم، وأخرج الناس من الظلمات والطغيان إلى نور الهدى والإيمان، ومن عبادة الأصنام والأوثان، إلى عبادة الواحد الديان، والقرآن الكريم يصور حال الناس قبل بعثة النبى ﷺ بأنهم كانوا فى ضلال واضح ومبين حيث يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[٢].

يقول **الشيخ سيد قطب** عند تفسيره الآية الكريمة: "أى لقد كان الناس قبل الإسلام فى ضلال مبين، ضلال ما بعده ضلال، ضلال فى التصور والإعتقاد، وضلال فى مفهوميات الحياة، وضلال فى الغاية والإتجاه، وضلال فى العادات والسلوك، وضلال فى الأنظمة والأوضاع، وضلال فى المجتمع والأخلاق "[٣].

ويقول **الشوكانى** فى تفسير الآية الكريمة أيضاً: "هذه الامور التى هى من أعظم صفات الصانع الحكيم مع علم القائل بأنه لا يتهيأ لأحد من الآلهة التى أثبتها الكفار، أن يأتى شىء منها، أو يقتدر عليه، أو على بعضه وهى خلق السموات والارض وتعاقب الليل والنهار، وجرى الفلك فى البحر، وإنزال المطر من السماء، وإحياء الأرض به وبث الدواب فيها بسببه، وتصريف الرياح، فإن من أمعن نظره، وأعمل فكره، فى واحد منها انبهر له، وضاق ذهنه عن تصوره حقيقته، وتحتم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه"[٤].

فقد كان الناس قبل بعثة النبى ﷺ يعيشون فى ظلم وظلام ، وكفر وطغيان وعبادة للأصنام والأوثان حتى أشرقت عليهم شمس النبوة المحمدية ، وأضاءت لهم أنوار العقيدة الإسلامية فى جميع أركان حياتهم، وانتقلوا من عبادة الشيطان إلى عبادة الرحمن حتى أصبحوا بنعمة الله إخواناً متآلفين، لا فرق فيهم بين سيد وعبد، ولا أبيض وأسود، ولا عربى وأعجمى إلاَّ بالتقوى والعمل الصالح حتى صاروا خير أمة أخرجت للناس وكان ذلك بفضل هذه العقيدة الإسلامية التى أجلى عنها النبى ﷺ كل ظلام وكل شائبة، وخرَّج جيلاً جديداً متمسكاً بهذه العقيدة الصحيحة إنه الجيل الذى تم فيه اللقاء بين المثال والواقع، وأدركوا عظمة التحول الذى

---

(١) خصائص التصور الإسلامى للشيخ / سيد قطب صـ٢٣ ط الشروق ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م
(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٤
(٣) تفسير الظلال ٥١١/١
(٤) تفسير فتح القدير للشوكانى ١٦٣/١

حوله من الجاهلية إلى الإسلام كما قال عمر ﷺ: "لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية أى لا يُقَدِّره حق قدره إلاَّ من أدرك الفارق بينه وبين الجاهلية "[١].

يقول **الشيخ /على الزهرانى:** "وكان ذلك بفضل الله تعالى ثم هذه العقيدة الربانية التى رسخت فى نفوسهم، وسرت فى دمائهم، وقد تلقوها من معلم البشرية المربى الأعظم محمد رسول الله ﷺ غضة طرية كما أنزلت، فخرَّج أعظم جيل عرفته البشرية على الإطلاق.....

لقد أنشأتهم هذه العقيدة نشأة جديدة، وصاغتهم حتى لكأنهم خلقوا خلقاً جديداً، فإذا هم يبذلون أرواحهم ودماءهم وأموالهم فى سبيلها، وإذا هم يعذَّبون ويقتلون من أجلها، فلا يتزحزحون عنها ، وإذا بها تملأ حياتهم، وتشمل أوقاتهم ، وتستنفذ كل جهودهم وطاقاتهم فقد أدركوا نعمة هذه العقيدة التى أخرجتهم من الظلمات إلى النور، وأيقنوا أن مصيرهم فى الدنيا والآخرة معقود بالإيمان بها والعمل على إعلائها "[٢].

ويقول **الشيخ / سيد قطب** : " ومن ثم كانت عناية الإسلام الكبرى موجهة إلى تحرير العقيدة وتجديد صورها الصحيحة التى يستقر عليها الضمير البشرى فى حقيقة الألوهية وعلاقتها بالخلق وعلاقة الخلق بها فتستقر عليها نظمهم وأوضاعهم وعلاقاتها الإجتماعية والإقتصادية والسياسية وآدابهم وأخلاقهم فما يمكن أن تستقر هذه الامور كلها إلاَّ أن تستقر حقيقة الألوهية وتبين خصائصها واختصاصاتها "[٣].

ويقول **الدكتور/ محمد شامه:** "لا يستطيع الإنسان أن يدرك مدى هذا التحول الذى أحدثه الإسلام إذا لم يعرف ما كان عليه العرب فى الجاهلية فى مجال العقيدة، حيث تعطلت الروح ، وتحجر العقل ، وتبلد الوجدان، فجاء الإسلام فأخرج الإنسان من هذا المستنقع، وأنقذه من هذا الضياع المهلك ، فهداه إلى عقيدة التوحيد التى حررت عقله وطهرت روحه من أضرار الشرك، وأرهفت وجدانه وتجاوب مع معطياتها فكانت قيمها حلياً له، ومبادئها لباساً ارتداه وأحكامها طريقاً صار على دربه ، وشرائعها نور يهتدى به، وأصبح كل هذا نسيجاً اختلط بالفطرة الإنسانية ، فشكلت الإنسان على صورة قادته إلى المعرفة حيث خطا الخطوة الأولى ، على طريقة بناء الحضارة التى أصبحت فيما بعد معلماً من معالم التاريخ البشرى .... ثم يقول ...

تقاس قيمة العقائد وأهميتها فى حياة الشعوب والمجتمعات الإنسانية بمقدار ما تحدثه فيها من تغيرات تنقلها إلى حياة أفضل مما كانت عليه قبل ظهور العقيدة وما تضيفه عليها من

---

[١] واقعنا المعاصر للشيخ / محمد قطب صـ١٥ ط مؤسسة المدينة بالصحافة ط الأولى ١٤٠٧هـ -١٩٧٨م.

[٢] الإنحرافات العقدية والعلمية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ، وآثارهما فى حياة الأمة ، تأليف على بن بخيت الزهرانى ١/٣٤ -٣٦ باختصار

[٣] خصائص التصور الإسلامى صـ٣٨

مظاهر تبعث الحيوية فى أرجاء المجتمع ، وتدفع عجلة النشاط الإنسانى إلى الأمام ليحرز الإنسان مزيداً من التقدم فى ركب الحضارة، وليقفز فوق الدرجات فى سلم المدينة، يزداد رسوخاً فى الأرض، فتمتد جذور شجرة الحياة ليتزايد ثباتاً وتعلو فروعها فى السماء لتضفى على الإنسان راحة واطمئناناً وسكينة وأمناً ، وحينئذ تثمر له ما تقر له الأعين فى الدنيا وتفرح به النفس فى الآخرة، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

وكلمة الإيمان مركز الكلام الطيب، ومتعة وأصل العمل الصالح ، وبوابته، منها يتحول الإنسان من الحيوانية إلى الملائكية، ومعها يتغلب على مصاعب الحياة والآمها وبفضلها يتخطى عقبات طريق المسيرة الإنسانية، ويقوى على قهر دعوتها، وحل آمادها، وعلى أركانها تقوم الحياة الإنسانية وتتطور، فهى تدفع صاحبها إلى العمل الدؤب والإنتاج المتميز، فيتدفق عطاؤه للحياة، ولا يتوقف، ويستمد تطوره فلا يتعثر ويمشى قدماً فلا يتراجع.

وفيما أحدثته العقيدة الإسلامية فى المسلمين الأوائل خير شاهد على هذا كله، فلم يكن التحول الذى أحدثه الإسلام فيهم تحولاً عادياً، عندما نقيسه بالمقاييس التقليدية فى حياة المجتمعات، بل كان قفزات فى جميع الميادين، وطفرات فى كلا الإتجاهين، الزمانى والمكانى، سواء كان فى داخل الإنسان نفسه، أو فى ظاهر الحياة حوله، إذ غيرت العقيدة الإسلامية عقل المؤمن الجديد تغيراً كلياً وسريعاً، حيث هزته هزاً عنيفاً فخلصه من الضلال الذى ضرب حوله، وقشعت عنه الظلام الذى ران على قلبه، فانطلق بحيوية ونشاط يؤثر فى الحياة، ويتفاعل معها، ويتألق فى أرجائها مبدعاً ومبتكراً، فوجد ذاته بعد أن فقدها عبر القرون المظلمة، وأكد فاعليته فى مجال الحياة بصورة أذهلت من حوله، وحيرت فى تلمس أسبابها الباحثين، الذين غابت عنهم الحقيقة الواضحة، ألا وهى الإيمان، لأن الإيمان قادر على أن يمكن صاحبه من عمل المعجزات .....

لقد دعا الإسلام تشكيل العقل البشرى، فهداه إلى العمل فى آفاق الدنيا الواسعة، بل دفعه إلى البحث فى جوانبها المتعددة، والتنقيب عن أسرارها المتناثرة فى أرجائها، ففى ذلك تأكيد لإنسانية الإنسان، وكشف لأسرار الوجود، حيث يهتدى إلى خالق هذا الكون ومدبره فيصل بذلك إلى معرفة الله سبحانه، بالإضافة إلى ما يعود عليه النفع فى حياته الدنيوية، حيث يتوصل عن

---

[1] سورة إبراهيم الآيتان ٢٤-٢٥

طريق عمل العقل إلى بناء حضارى يعود عليه فى حياته بما يضفى عليه سعادة وراحة وهدوءاً"[١].

"فالعقيدة الصحيحة هى التى تقدم للإنسان التفسير الصحيح الشامل للوجود الكونى والإنسانى"[٢].

وصفوة القول ... إن عقيدة الإسلام أصح العقائد وأوفاها فى كل ضرب من ضروب الحياة، تلك العقيدة التى تضمن لبنى الإنسان رفاهية الدنيا وسعادة الآخرة، فهى فى الحقيقة الشرع والمنهاج الذى ينهل من معينه كل طالب للهداية والرشد سواء فى حياته الخاصة أم العامة على حد سواء.

---

[١] الإسلام دين ودنيا صـ١٤٤، ١٤٥

[٢] دراسات فى العقيدة الإسلامية لعبد الحميدعبد المنعم مدكور صـ٣٢ ط دار الثقافة العربية القاهرة – بدون

obeikandl.com

المبحث الثانى

خصائص العقيدة الإسلامية

obeikandl.com

خصائص العقيدة الإسلامية

مُقَدِّمَة

كان العالم فى حاجة ماسة إلى دين ينظم شئونه ويصلح من أحواله ويسلك بالإنسانية كلها فى مسلك الحق والعدل والخير والمساواة ذلك لأن الإنسانية تناست دعوة الرسل السابقين الذين بعثهم الله هداة للبشرية ومشيئة الله سبحانه اقتضت أن يبعث إلى كل أمة رسولاً يصحح عقائدهم ويقوِّم ما أعوج من أخلاقهم.

ومضت الإنسانية فترة لم يبعث الله إليهم رسولاً فسادت موجة من الفساد والإفساد، انحرفت العقائد فترك الناس عبادة الخالق وعبدوا المخلوق بل زينت لهم شياطين الجن والإنس الإنحرافات العقائدية فعبدوا الشمس وسجدوا للقمر وقدسوا الحيوان والاحجار وعبدوا النار ونبذوا دعوات الرسل وراء ظهورهم وألقوا ما جاؤهم به من عند الله بعيداً عن واقع المجتمع واستبدلوا بنظام التآلف نظام التباغض وتقطعت أواصر المودة وضاعت القيم الأخلاقية فكان القوى يأكل الضعيف والظالم يستبد بالمظلوم .

أمام هذا الإضطراب العقائدى والإجتماعى كان العالم فى حاجة ماسة إلى دين ينظم أمره ومنهاج يصلح شأنه ودين يأخذ بيد الإنسانية لتتبوأ مكانها وتصلح الحياة لتتحقق خلافة الله للإنسان فى الأرض.

فى هذا الجو الخانق المضطرب وتلك الحالة الملتهبة التى لا يطمئن الإنسان فيها على نفسه ولا يضمن الإستقرار لأسرته شاءت مشيئة الله تعالى أن ينقذ البشرية من هذه الحالة التى ظهر فيها الفساد فى البر والبحر وأن يبعث النبى صاحب الدعوة العالمية والمنهج العظيم ليأخذ بيد الإنسانية الحائرة ويصل بها إلى بر الأمان والنجاة ، اختار ﷻ محمداً ﷺ لهذه المهمة العظيمة.

والمنهج الذى جاء به نبى الله والرسول الخاتم سيدنا محمد ﷺ يهدف فى مضمونه إلى إسعاد الجنس البشرى والسمو به والارتقاء بالإنسانية فى مضمار التقدم والحضارة حتى تتمتع بنعم الله وتأكل من رزقه وخيره وتسعى فى مناكب الأرض وتتجه إلى الله بعملها وتوحده وتفرده بالعبادة وتعمل بشرعه ومنهاجه الذى أوحاه الله إلى أنبيائه ورسله حيث جمع الشرائع السابقة فى شريعة الإسلام والكتب السماوية فى القرآن الكريم.

. والإيمان بالله والإعتراف بربوبيته هو الفطرة الثابتة فى أعماق الإنسان وهى أكرم ما فيه من خصائص فالأجدر بالإنسانية الراشدة أن تجتمع على تلك الخصائص الثابتة التى يهتف

بها الوجدان الإنسانى وتنطق بها الفطرة النقية فأولى بالبشرية أن تجتمع على تلك المبادىء وهذه القيم، وتصحح عقائدها حتى تصل نفسها بالله رباً خالقاً قادراً، وبالإنسانية أخوة ومحبة وبراً ورشداً وهذا هو الإسلام الذى أتمه الله تعالى نعمة علينا.

تعريف الخصائص

الخصائص فى اللغة :

يقول **صاحب كتاب مفردات غريب القرآن:** " التخصيص والإختصاص والخصوصية والتخصص: تفرد بعض الشيء بمالا يشاركه فيه الجملة، وذلك خلاف العموم والتعمم، والتعميم، خصان والخصان كالخاصة، ومنه قولهم: إنما يفعل هذا خصان الناس، أى: خواص منهم"[١].

وجاء فى **مختار الصحاح:** "خ ص ص : خَصَّهُ بالشيء خصوصاً وخُصوصيَّة بضم الخاء وفتحها والفتح أفصح واخْتَصَّهُ بكذا خصه به والخَاصَّةُ ضد العامة "[٢].

الخصائص فى الإصطلاح :

جاء فى **المعجم الوجيز:** "الخصائص هى : الصفة التى تميز الشيء وتحدده"[٣].

ويقول **الجرجانى** ": الخصائص هى : مالا يوجد بدون الشيء والشيء قد يوجد بدونها مثل الألف واللام لا يوجدان بدون الإسم والإسم يوجد بدونهما كما في زيد"[٤].

من خلال ذلك يتضح لنا أن معنى خصائص العقيدة أى ما تتميز به عن غيرها.

"فالعقيدة الإسلامية بكل أركانها وخصائصها هى الأساس المكين، لأى بنيان اجتماعى متين، وأى بنيان على غير عقيدة فهو بنيان على الرمال، يوشك أن ينهار. وأسوأ منه أن يراد مجتمع ينتمى إلى الإسلام على غير عقيدة الإسلام، وإن كتب عليه- زوراً- اسم الإسلام، إنه غش فى المواد الأساسية للبناء، لا يلبث أن يسقط البناء كله على ما فيه ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٥]

لقد رأينا المجتمع الشيوعى، أيام ازدهاره وسلطانه، يجسد العقيدة الماركسية وفلسفتها المادية يتمثل ذلك فى دستوره الذى يعلق: أن لا إله والحياة مادة، وفى تشريعه وقوانينه، وفى تربيته وتعليمه وفى ثقافته وإعلامه، وفى سائر أنظمته ومؤسساته وسياساته، وهذا شأن كل

---

(١) مفردات غريب القرآن للأصفهانى صـ١٥٥ مادة خص
(٢) مختار الصحاح ٧٥/٧٤/١
(٣) المعجم الوجيز صـ١٩٩
(٤) التعريفات للجرجاني صـ٩٥
(٥) سورة التوبة الآية ١٠٩

مجتمع عقائدى، فلا غرو أن يكون المجتمع المسلم مرآة تعكس عقيدته وإيمانه، ونظرته إلى الكون والإنسان والحياة، وإلى رب الكون وبارىء الإنسان وواهب الحياة "[١].

ومن هذه الإشارات الإجمالية ننتقل إلى شىء من التفصيل عن أهم ما تمتاز به العقيدة الإسلامية.

فمن أهم خصائصها :

١ - أنها تدعو إلى الوحدانية : أى تدعو الخلق جميعاً إلى أنه ليس لهذا العالم إلاَّ إله واحد يخضع له بالقهر والجبروت عن كل ما سواه، وأنه واحد أحد فرد صمد قال تعالى ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾[٢]

أى أنه " **الواحد** فى ذاته، وصفاته، وفى أفعاله، وفى كل شأن من شئونه، ومنزه عن التركيب من جواهر متعددة، أو من مادة معينة، كما أنه ﷻ منزه عن الجسمية والتحيز ومشابهة غيره **والصمد** هو الذى يصمد إليه الخلق فى حوائجهم ويقصدونه وحده بالسؤال والطلب لا يستغنون عنه، وهو الغنى عنهم يقرون بأنه خالق السموات والأرض، وخالقهم، وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها، وهو الثابت فى جميع المخلوقات إذ الكل متجه إليه تعالى طوعاً وكرهاً وهو سبحانه وتعالى **لم يلد** أى منزه عن أن يكون له ولد أو بنت، لأن الولادة تقتضى انفصال مادة منه، وذلك يقتضى التركيب المنافى للأحدية والصمدية، ولأن الولد من جنس أبيه، وهو تعالى منزه عن مجانسة أحد ثم هو تعالى **لم يولد**، فهو منزه عن أن يكون له أب او أم لأن المولودية تقتضى أيضاً التركيب المنافى للأحدية، والصمدية أولاقتضائها سبق العدم أو المجانسة، فكل ذلك مستحيل عليه تعالى لأنه سبحانه ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[٣] وهو سبحانه لم يكن له كفواً أحد أى أنه ﷻ منزه عن الشبه والنظير والمماثل والمشابه ولم يكن أحد من خلقه مكافئاً، ولا مشاكلاً، ولا مناظراً له تعالى "[٤].

هذا "ولقد نفى ﷻ عن ذاته التعدد، كما نفى عن ذاته أيضاً النقص والإحتياج ونفى عن ذاته كذلك أن يكون والد أو مولود، ونفى عن نفسه أيضاً الأنداد والأشياء والمماثلة "[٥].

---

(١) ملامح المجتمع المسلم صـ٢٧ ، ٢٨
(٢) سورة الإخلاص بتمامها
(٣) سورة الحديد الآية ٣
(٤) الإسلام عقيدة وعمل صـ٢٠ ، ٢١ ط وزارة الأوقاف المصرية - بدون
(٥) التفسير الوسيط للدكتور / محمد سيد طنطاوى صـ٧٥٧ ، ٧٥٩ ط السعادة ١٤١٣هـ ١٩٨٣ ، وكتاب الإسلام عقيدة وعمل صـ٢٠ ، ٢١

يقول **المراغى فى تفسيره:** "فما من أحد من الملائكة والإنس والجن، إلاَّ وهو مملوك له سبحانه، ينقاد لحكمه، ويلتجىء إليه حين الحاجة، ويخضع له خضوع العبد لسيده، فقد حصرهم الله وأحاط بهم، وهم تحت أمره وتدبيره، يعلم ما خفى من أحوالهم وما ظهر ، لا يفوته شىء منها ، وكل شىء عنده بمقدار، وكل امرىء منهم يأتيه يوم القيامة وحيداً منفرداً عن الأهل والأنصار ، منقطعاً إليه تعالى، محتاجاً إلى معونته ورحمته "[١].

وصدق الله إذ يقول : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۞ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾[٢]

يقول **الشيخ / عبد الكريم الخطيب:** " أى إن كل ما فى السموات والأرض إلاَّ وهو ملك له خاضع لمشيئته كلهم عبد ، وعابد له ، وهو لبيان قدرة الله تعالى ، وسلطانه على هذا الوجود، وإن كل موجود فيه صغر أو كبر، إنما هو بيد الله ﷻ ، صاحب القدرة الممسكة به، والعالم بكل ما فى ظاهره وباطنه، وكل إنسان سيأتى يوم القيامة فرداً، لا يصحبه أهل ولا ولد ولا مال ولا متاع، فهؤلاء الضالون محصون فى علم الله معروفون بذواتهم وأعمالهم ، ومعدود عليهم كل نفس يتنفسونه به، فلا يقع فى ظنهم أنهم غائبون عن الله تعالى تائهون فى خضم هذا الوجود"[٣].

ويمكن القول: بأن من أهم ما يميز هذه العقيدة ، أنها تدعو إلى التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك، فلا إله إلاَّ الله، هو الخالق الذى لا يضاهيه مخلوق، ولا يشاركه أحد، هذا هو المفهوم الأول للمنهج الإسلامى فى بناء العقيدة الإسلامية، توحيد خالص بعيد كل البعد عن صور وأشكال الوثنية، إذ لا يقبل فى الإسلام أى شكل من أشكالها حتى وإن تغلف بغلاف التوحيد.

٢- **ومن خصائص العقيدة الإسلامية أيضاً** : أنها عقيدة الفطرة . فمن أبرز خصائص الإسلام التى أعطته طابع العالمية أنه دين الفطرة الذى لا تجد فيه نصاً أو حكماً أو قاعدة تتعارض مع فطرة الله تعالى التى فطر الناس ، أو تقف منها الطبيعة الإنسانية موقف التردد أو المعارضة . قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٤]

---

[١] تفسير المراغى للأستاذ / أحمد مصطفى المراغى ٨٧/١٦ بتصرف يسير – ط الحلبى – مصر – الطبعة الخامسة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م.

[٢] سورة مريم الآيات ٩٣-٩٥

[٣] تفسير القرآن للقرآن للشيخ / عبد الكريم الخطيب ٧٧٣/١٦ دار الفكر العربى بدون.

[٤] سورة الروم الآية ٣٠

يقول **العلامة ابن عطية** فى تفسير الآية الكريمة: "والذى يعتمد عليه فى تفسير الفطرة أنها الخلقة والهيئة فى نفس الطفل التى هى معدة ومهيئة، لأن تميز بها مصنوعات الله ﷻ، ويستدل بها على ربه، ويعرف شرائعه، ويؤمن به، فكأنه قال فأقم وجهك للدين الذى هو دين الإسلام الحنيف وهو فطرة الله التى فطرالبشرعليها "[١].

والمعنى : " أقبلوا على الدين الحق والزموه، فإنه يلبى بأحكامه وشرائعه حاجات النفوس السليمة والفطر المستقيمة تلك التى لا قدرة لأحد على تغييرها من حيث هى ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ ، أو أن الكلام على سبيل النهى أى لا تبدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها وذلك بالإخلال بمقتضاها اتباعاً للهوى ووساوس الشيطان ، وقوله سبحانه ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ إشارة إلى ما أمرهم الله به من الثبات على الدين ، وبيان لعلة هذا الأمر من كونه الدين المستقيم الذى لا عوج له.

ومن هنا تبرز أهمية الحاجة إلى الدين لضبط الحركة الإنسانية على مقتضى الفطرة فلا تتنازع العواطف ولا تتبعثر الجهود وإلى ذلك أشار الحق سبحانه بالمثل يضربه فقال ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٢]

والقول الكريم يبرز حقيقة التلازم بين التوحيد الذى هو أصل الفطرة ومطلوبها الأول، وبين سلامة العبد باطناً وظاهراً ، ولذا جاء تذييل الآية بالحمد لله الذى اصطفى لعباده الدين وهداهم إليه فاستسلموا له ، وانقادوا لأمره سبحانه.

وهذا الإستسلام والإنقياد والخضوع شعور يرفه عن القلب بما يفتحه من آفاق الإمكان ، ويضع عن النفس الأثقال ، ويحطم ما حولها من الأغلال ، ويكاد لا تعثر فيه على كلمة المحال، فإذا اشتدت الأزمات وضاقت الحلقات أمام المتدين تراءى له من خلالها أبواب الفرج ليس دون انفراجها إلاَّ أن يأذن معبوده فهو بين الرغبة والرهبة والخوف والرجاء"[٣].

"فالإنسان بفطرته سليماً مبرأ من كل عيب ، ولكنه قابل لأن يشكل على الشكل الذى يريده له أبواه أو أمه أو معلمه، وهو أصلح ما يكون لدين الفطرة دين التوحيد، فإذا اتجه به أبوه أو أمه نشأ على الدين الذى يخالف طبيعة البشر، ومثله فى ذلك كمثل البهيمة تولد سليمة كاملة الأعضاء، وأصحابها هم الذين يملكون أن يحافظوا على سلامتها، ويملكون أن يشقوا أذنها

---

[١] تفسير المحرر الوجيز ٣٣٦/٤ بتصرف ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان
[٢] سورة الزمر الآية ٢٩
[٣] النبأ العظيم ، للدكتور / محمد عبد الله دراز صـ٤٩ ، ط دار القلم ، الكويت ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

ويقطعوا أنوفها، وكل ما قدره الله للإنسان يجرى عليه ، فمن قدر الله له السعادة كان سعيداً ، ومن قدر الله له الشقاء كان شقياً لا يغير ما قدر الله له ولا يبدل "[١].

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول (ما من مولود إلاَّ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمسحانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة ﷺ ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [٢]. [٣]

"ويفهم من صريح الحديث النبوى الشريف أن الإسلام دين الفطرة فلا يحتاج إلى تأثير من الأبوين ، أما الأديان الأخرى ففيها من تلقين الآباء "[٤].

"وعليه فإن كل ما جاء فى القرآن الكريم يتفق مع هذه الفطرة لأن تشريعاته تحمل من المرونة واليسر ما يجعلها صالحة لفطرة الناس جميعاً ، رغم ما بين الجماعات البشرية من اختلاف الألوان والأجناس وتعدد فى الظروف والبيئات ، فما فيه من أحكام تتفق وطبيعة الإنسان الفكرية يؤكد أنه من العليم الخبير الذى يعرف فطرة الناس ، وما ركب فيها من اختلاف المناهج والمشارب ، فهى صالحة لكل المستويات الفكرية ، ولا تقتصر فيما وراء العقيدة الأصلية ، وأصول التشريع ، على لون واحد من التفكير ، أو منهج واحد من التشريع ، لأن صيغتها جاءت على نحو يتسع ليشمل جميع الثقافات الصحيحة ، والحضارات النافعة التى يتفق عليها العقل البشرى فى صلاح البشرية وتقدمها مهما ارتقى العقل ونمت الحياة ، ولم تكن تعاليم القرآن الكريم حجر عثرة فى طريق تقدم البشرية ، بل على العكس من ذلك ، كانت باعثة على التقدم والبحث والتفكير فيما حول الإنسان ، وتلك فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهى فطرة التفكير والبحث والاستقصاء لما حوله من مظاهر الكون "[٥].

" وقد قامت حياة العلم الحديث على اتساق الفطرة واضطرادها الثابت لديه فى ميادينه المختلفة بالمشاهدات والتجارب.

---

(١) الإسلام عقيدة وعمل صـ٢٥

(٢) سورة الروم الآية ٣٠

(٣) رواه البخارى كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه ؟ وهل يُعرض على الصبى الإسلام؟ ١٣٥٩/١ ، ويراجع كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٢٧٦/٣ ، ٢٧٧ ، للشيخ / محمد فؤاد عبد الباقى ، ط عيسى الحلبى – بدون

(٤) الإيمان والحياة للقرضاوى صـ٣٩ ، ٤٠ ط مكتبة وهبه

(٥) الإسلام دين ودنيا للدكتور / محمد شامه صـ٢٤ ، ٢٥

وإذا كان العلم يقرر اليوم اتساق الفطرة واضطراد السنن واستحالة التناقض بينها فإن هذا من أصول الإسلام التى سجلها القرآن ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [١].

فالإسلام دعا إلى العلم دافعاً إلى الفطرة سبيلاً على معرفة الله تعالى ، ومفهوم الإسلام أن المدنية شطران متكاملان العلم والعدل ومن وراء ذلك مخافة الله ومحبته.

ولقد علم الله سبحانه وتعالى أن هذه المدنية ستكون ، وأن الإنسانية ستتقلب فى أطوارها التى تقلبت فيها ، وأنها سيفتح لها أبواب العلم ، وأن هذا العلم سيفتح لها فنوناً من القوة وأن هذه القوة ستسلمها إلى صنوف من المشكلات لا تحل حلاً مرضياً إلاَّ طبق ما سن الله للفطرة من سنن وللنفس البشرية من قوانين عرفت الإنسانية بعضها وجهلت منها أكثر مما تعرف فلو أن الإنسانية وكلت إلى نفسها وعلمها وجهدها وحده ما خرجت وما أمكنها أن تخرج من ورطاتها، التى هى لا بد واقعة بتعمقها فى العالم الطبيعى الذى يفتح لها كنوز الأرض من غير أن يريها طريق العدل فى استعمالها "[٢].

وهذا هو سر الإسرار فى الفطرة ، وهذا هو مفهوم منهج المعرفة الإسلامى وقد جمع الله فيه للإنسان : مناهج العلم ، ومناهج الإنسانيات فى حدود الهدف الواضح الذى فطر الله عليه الكون وفى حدود المهمة التى وكلها الله إلى الإنسان فى الحياة.

٣- ومن أهم ما تمتاز به العقيدة الإسلامية : أيضاً أنها عقيدة واضحة ، لا تعقيد فيها ولا غموض ، وذلك يتلخص فى أن وراء هذا العالم إله خالق لهذا الكون وقدَّر فيه كل شيء، وليس له شبيه ولا شريك ولا مثيل.

يقول **د/ القرضاوى**: "هذا الوضوح المشرق فى العقيدة الإسلامية بالنظر إلى الأنبياء عامة ، وإلى محمد ﷺ خاصة، يقابله غموض مطبق فى العقائد الأخرى وأبرزها : المسيحية التى لم يتضح لأتباعها حقيقة المسيح: ما هى ؟ حتى أنهم عقدوا المجامع تلو المجامع للبحث فى طبيعة المسيح ما هى ؟ أو إله؟ أم ابن إله؟ أم بشر خالص ، أم بشر حل فيه الإله ؟ أوجزء من أقانيم ثلاثة يتكون منها الإله هى الأب، والإبن، والروح القدس"[٣].

إلى غير ذلك من الاحتمالات التى يعترف رجال الدين المسيحى بغموضها ، واستحالة قبول العقل لها.

---

[١] سورة الفتح الآية ٢٣

[٢] مجلة منبر الإسلام العدد ٩ ، السنة ٣٠ ، رمضان ١٣٩٢هـ -أكتوبر ١٩٧٢م تحت عنوان عالمية الإسلام دين الفطرة للأستاذ أنور الجندى صـ١٢٦

[٣] الخصائص العامة للإسلام للكتور / يوسف القرضاوى صـ١٧٦

يقول **د/ شوقى ابراهيم:** "ومن أجل ذلك يطلبون من الناس إلغاء العقل والتسليم المطلق بكل ما يقال خلافاً للعقيدة الإسلامية التى تقوم أول ما تقوم على العقل ، والفهم والتفكير ، فالقرآن الكريم ينفى على أولئك الذين أوقفوا عقولهم ، وحواسهم على التأمل فيما حولهم كى يدركوا ما هم عليه من عقائد، هى محض الضلال والباطل ، وليست لموقفهم هذا مبرر سوى تقليدهم لما درج عليه الأجداد والآباء يقول تعالى : ﴿**وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [١].

وبهذا يظهر لنا أن روح القرآن الكريم تقرر فى وضوح أن العقائد لا يصلح اكتسابها إلا بالإستدلال العقلى أو النقلى أو هما معاً ، فالعقائد لا تتمكن من القلب إلاَّ إذا دعمت بالدليل"[٢].

أما بالنسبة للسلوك فإن العقيدة أيضاً هى أساس تقويم السلوك فما من إنسان التزم بما أمره الله واجتنب نهيه، ورسخت العقيدة فى قلبه إلاَّ وكان سلوكه حسناً وكان قدوة لغيره إذ العقيدة هى منبع سلوك الإنسان، ومصدر كل عمل يقوم به.

يقول **الدكتور/ محمد شامة:** "عناصرتصور الإله هى التى تشكل تعاليم الدين وتصورها، وطبيعته فى كل دين تنعكس على كل ما يحتويه من تعاليم، ونوع العلاقة بينه وبين الإنسان يشكل سلوك أتباعه، ويحدد طبيعة مسارها.

ولهذا كان التوحيد فى الإسلام هو منبع سلوك المسلمين ، ومصدر كل عمل يقومون به، إذ تغرس كلمة لا إله إلاَّ الله فى قلب من يقولها إيماناً صادقاً بأنه لا سلطان لأحد عليه إلاَّ الله، فهو لا يخضع لظالم ولا ينتمى لكافر، ولا يرضى عن فاسق، ولا يساعد محتالاً، ولا يقدم عوناً لمن حاد عن طريق الله، فليس بينه وبين الظالمين صلة، ولا يربطه بالمنافقين أدنى رباط، هو لا يعمل إلاَّ لله، ولا يغضب إلاَّ لله ولا يرضى عن أحد إلاَّ إذا كان سلوكه مطابقاً لما أمر الله به"[٣].

"ومن ثم كان أول ما يستشعره القلب والعقل أمام العقيدة الإسلامية ، الإستقامة والبساطة والوضوح، وهذه هى السمة التى تجذب الأفراد الذين فى هذا الدين من الأوربيين والأمريكيين المعاصرين، فيتحدثون عنها بوصفها أول ما طرق حسهم من هذا الدين، وهى ذاتها السمة التى تجذب البدائيين، فى أفريقيا وأسيا فى القديم والحديث لأنها سمة الفطرة التى يشترك فيها الناس أجمعون متحضرين وبدائيين "[٤].

---

[١] سورة الأعراف الآية ٢٨

[٢] العقيدة الإسلامية للدكتور / شوقى إبراهيم عبد الله صـ٤٧ ، ٤٨

[٣] الإسلام دين ودنيا صـ١٢٥ ، ١٢٦

[٤] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للشيخ/ سيد قطب صـ١٩٥.

من خلال ما سبق يتضح لنا أن أهم ما يميز العقيدة الإسلامية ، أنها واضحة خالية من الغموض.

٤- **وأيضاً من خصائص العقيدة الإسلامية : الواقعية** . فقد جاء الإسلام بعقيدة واقعية، تصف حقائق قائمة وثابته فى الوجود ، والناظر إلى القرآن الكريم يجد ذلك واضحاً وجلياً، فمثلاً العقيدة ، دعت إلى الإيمان بالله ورسوله فى أكثر من آية فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾[١].

كما دعت إلى الإيمان بجميع علوم الغيب التى أشار إليها القرآن الكريم من جنة ونار وثواب وعقاب وغير ذلك.

يقول **الدكتور القرضاوى**: " فالعقيدة الإسلامية تدعو إلى الإيمان بإله واحد دل على نفسه بآياته التكوينية فى الأنفس والآفاق ، وآياته التنزيلية مما أوحى به إلى رسله فهو ليس كإله الأساطير الذى تتحدث عنه أقاصيص اليونان ، وحكايات الرومان ، وغيرهم من الشعوب.

وهى أى العقيدة أيضاً تدعو إلى الإيمان برسول بعثه الله رحمة للعالمين ليختم به النبوات ويتمم به مكارم الأخلاق، رسول هو بشر مثلنا لا يتميز عن الناس إلاَّ بالوحى، ليس إلهاً ولا ابن إله ولا ملكاً إنما هو إنسان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، عاش ومات كما يعيش الناس ويموتون، باع واشترى وصادق وعادى وسالم وحارب، وتزوج وأنجب، كان يرضى ويصخب، ويفرح ويحزن، ويحب ويكره، دل على صدقه سيرته الذكية، ودعوته الهادية، وتأييد الله إياه، ونصره على أعدائه، وأثره فى أصحابه وفى العالم من حوله، وكتابه الذى تحدى به المعارضين فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، وأعلم أنه محفوظ من الله تعالى فلم يزل محفوظاً إلى اليوم، لم يبدل فيه كلمة ولا حرف، هذا الكتاب الإلهى هو القرآن الكريم .... وتدعو العقيدة أيضاً إلى الإيمان بحياة أخرى بعد هذه الحياة، يجزى فيها كل مكلف بما عمل من خير أو شر، ثواباً وعقاباً، نعيماً وجحيماً، جنة وناراً "[٢].

وهكذا تبدو لنا واقعية العقيدة الإسلامية ومواءمتها لطبيعة الإنسان ، وواقعتها لكل وقت وكل زمن إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٥- **وكذلك من خصائص العقيدة الإسلامية : الوسطية**. فالعقيدة هى وسط بين كل شىء بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله ، وبين الذين يعددون الآلهة ، كذلك وسط بين الذين

---

[١] سورة النساء الآية ١٣٦

[٢] الخصائص العامة للإسلام صـ١٤٨ ، ١٤٩ باختصار.

يعتبرون الكون هو الوجود الحق وحده وبين الذين يعتبرون الكون وهماً لا حقيقة له ، وأيضاً العقيدة وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده لمعرفة حقائق الوجود ، وبين الذين لا يؤمنون إلاَّ بالوحى والإلهام ، ولا يعترفون للعقل بدور فى نفى أو إثبات ، وهى وسط أيضاً بين الذين يقدسون الأنبياء ورفعوهم إلى درجة الألوهية أو النبوة ، وبين الذين كذبوهم واتهموهم ، وكذلك العقيدة أيضاً وسط بين الذين يؤلهون الإنسان ويعتبرونه إله نفسه ، وبين الذين جعلوه كريشة معلقة فى الهواء أو فى مهب الريح تسيرها الأقدار كيفما تشاء.

وقد أشار إلى ذلك **د/ القرضاوى** نلخص قوله فى النقاط التالية :

أ- فهو- أى الإسلام- وسط فى الإعتقاد بين الخرافيين الذين يسرفون فى الاعتقاد فيصدقون بكل شىء ويؤمنون بغير برهان، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس ولا يستمعون لصوت الفطرة ولا لنداء العقل ولا صراخ المعجزة ، فالإسلام يدعو إلى الاعتقاد والإيمان ولكن بما قام عليه الدليل والبرهان قال تعالى : ﴿ **قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[1].

ب- وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط ... وبين الذين يعددون الآلهة ، فالإسلام يدعو إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له ، وكل من عداه ، وما عداه مخلوقات لا تملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ** ﴾ [2] .

جـ- وهو وسط بين الذين يعتبرون الكون هو الوجود الحق وحده وما عداه خرافة ووهم وبين الذين يعتبرون الكون وهماً لا حقيقة له وسراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

---

[1] سورة البقرة الآية ١١١
[2] سورة الأحقاف الآية ٥

فالإسلام يعتبر وجود الكون حقيقة لا ريب فيها ولكنه يعبر عن هذه الحقيقة إلى حقيقة أكبر منها وهى من كونه ونظمه قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١].

د- وهو وسط بين الذين يؤلهون الإنسان ، ويضفون عليه خصائص الربوبية ويعتبرونه الإله نفسه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية فهو كريشة فى مهب الريح.

فالإنسان فى نظر الإسلام مكلف مسؤل سيد فى الكون ، عبد لله ، قادر على تغيير ما حوله بقدر ما يُغير ما بنفسه قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٢].

هـ- وهو وسط بين الذين يقدسون الأنبياء حتى رفعوهم إلى مرتبة الألوهية أو النبوة للإله ... وبين الذين كذبوهم وصبوا عليهم كؤوس العذاب.

فالأنبياء بشر مثلنا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، ولكثير منهم أزواج وذرية قال تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[٣]. [٤] فالعقيدة الإسلامية وسط بين كل ما ذكر ويكفي ما قلناه خشية الإطالة.

٦- **وأيضاً من أهم ما تمتاز به العقيدة الإسلامية : الشمول** .إن الناظر إلى العقيدة الإسلامية يجد أنها شاملة لكل زمان ومكان ، فليست عقيدة الإسلام خاصة بزمن دون زمن ، ووطن دون وطن ، بل هى شاملة لجميع أمور الحياة ، وشاملة لجميع التعاليم الإسلامية ، فهى رسالة الماضى ورسالة المستقبل ورسالة جميع الأنبياء والمرسلين.

يقول **د/ القرضاوى** عن شمولية العقيدة الإسلامية:

أ- توصف بالشمول باعتبار أنها تفسير لكل القضايا الكبرى فى هذا الوجود القضايا التى شغلت الفكر الإنسانى ، ولا تزال تشغله وتلح عليه بالسؤال وتتطلب الجواب الحاسم الذى

---

[١] سورة آل عمران الآيتان ١٩٠ -١٩١
[٢] سورة الرعد الآية ١١
[٣] سورة إبراهيم الآية ١١
[٤] الخصائص العامة للإسلام صـ١٢٣ - ١٢٤ باختصار وتصرف يسير

يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة ، وينتشله من متاهات الفلسفات والنحل المتضاربة قديماً وحديثاً ، قضية الألوهية ، قضية الكون ، قضية الإنسان ، قضية النبوة، قضية المصير.

فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها وقالت كلمتها منها ، بشمول واضح ووضوح شامل.

ب- وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول كذلك لأنها لا تُجزىء الإنسان بين إلهين اثنين، إله الخير والنور، وإله الشر والظلمة، كما كان فى المجوسية، أو بين الله والشيطان الذى سمى فى الأناجيل باسم رئيس هذا العالم ... إن الشيطان فى نظر الإسلام يمثل قوة الشر لا مراء ولكنها قوة لا سلطان لها على ضمير الإنسان إلاَّ سلطان الوسوسة والإغراء، والدعوة إلى الشر وتزيينه فى الأنفس، فهذا مبلغ كيده وجهده ، وهو كيد ضعيف أمام يقين المؤمنين المعتصمين بالله المتوكلين عليه ، يقول تعالى على لسان الشيطان نفسه فى مخاطبة من أغواهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾[1].

ويقول سبحانه فى مخاطبة الشيطان: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾.[2] ويقول سبحانه أيضاً: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾[3].

جـ- وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول من ناحية أخرى وهى: أنها لا تعتمد فى ثبوتها على الوجدان، أو الشعور وحده ، كما هو شأن الفلسفات الإشراقية والمذاهب الصوفية، وكما هو شأن المسيحية التى ترفض تدخل العقل فى العقيدة رفضاً باتاً ، بحيث لا تؤخذ إلاَّ بالتسليم المطلق على حد قولهم "أعتق وخذ وأنت أعمى".

وهى كذلك لا تعتمد على العقل وحده ، كما هو شأن جل الفلسفات البشرية التى تتخذ العقل وسيلتها الفذة ، فى معرفة الله وحل ألغاز الوجود.

وإنما تعتمد على الفكر والشعور معاً ، أو العقل والقلب جميعاً باعتبارهما آداتين متكاملتين من أدوات المعرفة الإنسانية والوعى الإنسانى.

إن الإيمان الإسلامى الصحيح ، هو الذى يبعث من ضياء العقل وحرارة القلب وبذلك يؤدى دوره ، وتؤتى أكله فى الحياة.

---

[1] سورة إبراهيم الآية ٢٢
[2] سورة الإسراء الآية ٦٥
[3] سورة النحل الآيتان ٩٩ -١٠٠

د- وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول أيضاً : لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة لابد أن تأخذ كلها بكُل محتوياتها دون إنكار أو حتى شك فى أى جزء منها فمن آمن بتسع وتسعين من مائة من مضمون هذه العقيدة ، وكفر بواحد من مائة لم يعد بذلك مسلماً فالإسلام يقتضى أن يسلم الإنسان قياده كله لله ، ويؤمن بكل ما جاء من عنده.

لا يجوز فى نظر العقيدة الإسلامية أن يقول مسلم : أنا مؤمن بالقرآن فى شأن الشعائر والعبادات مثلاً ، ولكن لا أؤمن بما جاء به فى شأن الأخلاق والآداب ، أو يقول آخذ من القرآن العبادة والأخلاق ، ولكن لا أستمد منه النظام والتشريع ، أو آخذ منه ذلك كله ، ولكن لا أصدقه فى كل ما يرويه من أحداث التاريخ ، أو أصدقه ، وأسلم له فى كل ما ذكرنا ولكن لا أعتقد ما جاء فى وصف الآخرة ، وحقيقة الجنة والنار ومن ثم أنكر القرآن الكريم أشد الإنكار على بنى إسرائيل إيمانهم ببعض الرسل دون بعض ، وببعض الكتاب الإلهى دون بعض ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ۞ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[1].

ويقول سبحانه أيضاً : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2]. [3]

وخلاصة القول : أن العقيدة الإسلامية شاملة لكل القضايا ، وشاملة لكل صغيرة وكبيرة فى هذا الوجود ، ولا تقبل التجزئة بأى حال من الأحوال وشاملة لكل شئون الحياة والإنسان فى الماضى والحاضر والمستقبل.

هذا وإن ما ذكر من خصائص العقيدة الإسلامية لا يعد حصراً لكل الخصائص ولكن ما هى إلاَّ نماذج توضح بعض وأهم خصائص وميزات العقيدة الإسلامية.

---

(١) سورة النساء الآيتان ١٥٠ -١٥١

(٢) سورة البقرة الآية ٨٥

(٣) الخصائص العامة للإسلام للدكتور / يوسف القرضاوى صـ١٠٣ -١٠٥ باختصار ومن أراد المزيد فليرجع إلى نفس المرجع حيث ذكر القرضاوى خصائص العقيدة الإسلامية بالتفصيل ، ولكننى ذكرتها بإيجاز خشية الإطالة.

المبحث الثالث

أثر العقيدة الإسلامية على الفرد والمجتمع المسلم

obeikandl.com

أثر العقيدة الإسلامية على الفرد والمجتمع المسلم

مقدمة

ليس من شك فى أن الإسلام فى تعاليمه ونظمه الأساسية يهدف إلى تحقيق سعادة الإنسان فى حياته المادية والروحية ويتوخى فى مبادئه أن تكون متمشية مع الإعتبارات البشرية ومع المثل الصحيحة العالية حتى تتم للإنسان عافيته وتتحقق له سعادته الكاملة.

والإنسان كإنسان يعيش فى عالمين ، هذا العالم المادى الذى يتحرك فيه بمادته وعالم آخر روحى مثالى يكسبه مقومات إنسانية ، ويميزه عن المخلوقات الأخرى ، وتبعاً لهذا العالم الآخر يتفاوت الناس فى إنسانيتهم ، بقدر قربهم أو بعدهم منه ، وإذا صلح هذا العالم الآخر وهو الجانب الروحى صلح الإنسان وكملت إنسانيته ، وإذا فسد فسدت الإنسانية فى الإنسان وضاعت منه مقوماته ومشخصاته.

وعلى هذا الأساس تقوم فكرة الرسالة الإلهية فى الإسلام محققة لسعادة الإنسان متوخية لخيره وصلاحه ، وتعنى بذلك تحقيق المعنى الإنسانى فى الإنسان بتحريره من الأوهام والشقاء والبؤس حتى يعيش فى جو من الإطمئنان وسلامة الخاطر والعافية النفسية.

وأول هذه المقومات للسعادة هو الإيمان بالله تعالى الذى يشرق على القلب بأنواره فيكسب المؤمن قوة يتغلب بها على الاضطراب والتردد والشك والحيرة تلك الخصال التى هى آفة السعادة وسبب الشقاء بما تؤدى إليه من هم وضعف وتأخر وانتكاس ، فهؤلاء الشاكون المترددون يهلكون أنفسهم بخورهم وضعفهم وترددهم فى حياتهم فلا يجدون طمأنينة فى قلوبهم أو نوراً يضىء طريقهم، وإنما هم تألهون فى ظلمات الشك غارقون فى لجة التردد والخوف، وويل للذين يشكون ويترددون فى حياتهم ، ما أتعسهم وأيأس حالهم لأنهم حرموا نعمة الإيمان والقوة والثبات والقلوب.

تعريف الأثر :

جاء فى **مختار الصحاح** : " الأثر من التأثير والتأثير إبقاء الأثر فى الشىء"[١].

وجاء فى **مفردات غريب القرآن** " أثر الشىء حصول ما يدل على وجوده، يقال: أثر وأثر، والجمع: الآثار. قال تعالى ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا﴾ [٢]. ﴿ وَآثَارًا فِي

---

[١] مختار الصحاح صـ٥ ط دار الكتاب العربى.
[٢] سورة الحديد الآية ٢٧

الْأَرْضِ﴾[١]. والاستئثار التفرد بالشيء دون غيره ، وقولهم : استأثر الله بفلان ، كناية عن موته، تنبيه أنه ممن اصطفاه وتفرد تعالى به من دون الورى تشريفاً له"[٢].

" والأثر العلامة وبقية الشيء ، جمعه آثار "[٣].

يقول **الجرجانى:** " هى اللوازم المعللة بالشيء "[٤].

فأثر العقيدة : أى النتيجة التى نتجت عن الإلتزام بالعقيدة الإسلامية. هذا وإن المتمسك بالعقيدة الإسلامية يجد لذلك آثاراً واضحة ، هذه الآثار تعود عليه بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا تسود الوحدة والمحبة والقوة والثبات والنصيحة والتضحية والعطف ويسود الأمن والأمان ، ويزدهر الفكر فى جميع مجالات الحياة ، وهذا ما حدث فى عهد النبى ﷺ حيث تمسكوا بعقيدتهم الصحيحة مقتدين فى ذلك برسول الله ﷺ ، فأصبحوا قوة لا تقهر بفضل إيمانهم بربهم ، وتمسكهم بسنة نبيهم ، فاعتصموا بحبل الله ﷻ ، وجمعتهم العقيدة بعد شتات وفرقة.

يقول **د / القرضاوى** : " هذه هى العقيدة التى يقوم عليها المجتمع المسلم ، عقيدة لا إله إلاَّ الله ، محمد رسول الله ، ومعنى قيام المجتمع المسلم على العقيدة الإسلامية ، أنه يقوم على احترام هذه العقيدة وتقديسها ، ويعمل على تثبيتها فى العقول والقلوب ، ويربى ناشئة المسلمين عليها ، ويرد عنها أباطيل المفترين ، وشبهات المضلين ، ويجلى فضائلها وآثارها فى حياة الفرد والمجتمع ، عن طريق الأجهزة التوجيهية التى تؤثر فى سير المجتمع من المساجد والمدارس وغيرها.....

وليس معنى قيام المجتمع المسلم على العقيدة الإسلامية ، إكراه غير المسلمين على التخلى عن عقائدهم ، كلا ، فذلك لم يخطر ببال المسلم من قبل ، ولن يخطر من بعد ، لأن القرآن حسم هذه القضية من قبل ، حين أعلن بصريح العبارة أنه ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾[٥].

وقد أثبت التاريخ أن المجتمع الإسلامى فى عصور ازدهاره ، كان أكثر المجتمعات سماحة مع المخالفين له فى العقيدة ، بشهادة الأجانب أنفسهم.

---

[١] سورة غافر الآية ٢١

[٢] المفردات فى غريب القرآن صـ١٩ مادة أثر.

[٣] المعجم الوجيز صـ٥

[٤] التعريفات للجرجانى صـ٩

[٥] سورة البقرة الآية ٢٥٦

ومعنى قيام المجتمع على العقيدة الإسلامية، أنه ليس مجتمعاً سائباً، بل هو مجتمع ملتزم، قد التزم عقيدة الإسلام ، وليس مجتمعاً مادياً ، ولا مجتمعاً علمانياً ، ولا مجتمعاً وثنياً، ولا مجتمعاً يهودياً أو نصرانياً ، ولا مجتمعاً رأسمالياً ، ولا مجتمعاً اشتراكياً ماركسياً إنما هو مجتمع يدين بعقيدة التوحيد ، عقيدة الإسلام ، وعقيدة الإسلام تعلو ولا تعلى ، عقيدة الإسلام لا تقبل أن تكون على هامش الحياة فى المجتمع وأن تزاحمها عقيدة أخرى تبدل نظرة الناس إلى الله تعالى والإنسان والكون والحياة "[١].

فمن آثار العقيدة الإسلامية :

١ – الود والتراحم والمحبة : إن التمسك بالعقيدة الإسلامية ، يؤدى إلى انتشار الود والتراحم بين الأفراد والجماعات فى سائر المجتمع المسلم.

يقول **الشيخ /عمر عوده الخطيب** : "من هذا المنطلق الكريم منطلق الإيمان الخالص ورسوخ العقيدة الإسلامية : تبنى العلاقات فى المجتمع الإسلامى على أسس إسلامية من ود وتراحم ، وذلك مصداق حديث رسول الله ﷺ الذى رواه النعمان بن بشير يقول قال رسول الله ﷺ (ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى) [٢].

والفرق الكبير بين إقامة المجتمع على أساس معنوى ، وقيامه على أساس مادى، فالمجتمع المعنوى ، يقوم على علاقات روحية تربط بين أجزائه فى تراحم وتلاحم ، بحيث لا يمكن لهذه العلاقات أن تتفكك ، ولهذه الأجزاء أن تتبعثر ، وبالتالى فإن البناء يصبح فى منعة من التداعى والسقوط ، ولما كان المجتمع الإسلامى يقوم على رابطة العقيدة ، فإن الرابطة هى أوثق ما تؤلف بين البشر ، أمام المجتمع المادى فالعلاقات بين أفراد تقوم على المصالح الموقوته، والمنافع العاجلة وليست لهذه أثارة من القيم الإنسانية ، والتعاون والتضحية والإيثار والود والإخلاص ، وغير ذلك من المثل العليا ليس لها أى وزن فى معيار المادة ، بل ربما كانت نقائص تدل على سذاجة وغفلة "[٣].

"وإن من أجلّ ما تؤديه العقيدة الإسلامية للجماعة الإنسانية ، أنها تربط بين قلوب معتنقيها بأواصر لا تنفصم من المحبة ، إلاّ قوة وتراحم ، وهذه وظيفة إيجابية ذات أثر عميق

---

[١] ملامح المجتمع المسلم صـ٢٣ ، ٢٤ باختصار

[٢] رواه البخارى ، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس بالبهائم ٨٢/٤ ، ورواه مسلم بشرح النووى ١٤٠/٦

[٣] المسألة الإجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية الشيخ / عمر عودة الخطيب صـ١٩٤ باختصار وتصرف يسير.

فى كيان الجماعة ، لأن رابطة العقيدة لا تعدلها أى رابطة أخرى من نسب أو جنس أو لون أو لغة أو جوار أو مصالح مشتركة.

فهذه كلها تظل روابط سطحية لا تكاد تجمع حتى تفرق إذا اختلفت الأهداف ، وتصادفت النزعات ، وتضاربت المصالح بل لا تزال تتخلل هذه الروابط الشكلية حواجز كبيرة من اختلاف النفوس ، وتمايز العناصر الشكلية ، وتفصل بينهما الفجوات المختلفة التى تباعدها عن الوحدة والوئام ، حتى تشدها أصرة الأخوة فى العقيدة فى تفاعلها العميق مع وجدان المؤمن ، على هدى وبصيرة ، ومحبة وتعاون ، ومشاركة فى المثل العليا ، فإذا الكثرة المتفرقة وحدة مجتمعة وإذا التقوى فى ألفها وصفائها كالمرايا المتقابلة تنعكس صور بعضها فى بعض وتذوب الفوارق مهما عظمت ، وتتقارب الديار مع بعضها مهما تناءت ، يعم الحياة روح العقيدة ، وتسودها مبادىء الحق الثابت الخالد الذى لا يتغير أو يزول ، ولا يعتريه نقص ، وفى ذلك يقول الحق : ﴿هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

ولقد قامت دعوة الإسلام على إنكار كل نوع من أنواع التفرق الذى ينافى الوحدة القائمة على العقيدة باعتبار المؤمنين كياناً عضوياً واحداً ، تسرى فيه روح المودة والرحمة والتعاطف .... كما يحرص الإسلام على صيانة رابطة العقيدة من كل ما يخدشها أو يؤدى إلى وهنها ، وذلك بقطع كل أسباب التنازع والشحناء ، وتعد أى دعوة إلى العصبية المفرقة هدماً لروح الأخوة الإسلامية ، وإثارة للأوضاع الجاهلية التى حاربها الإسلام وقضى عليها ، وفى ذلك ما يقوض وحدة الأمة ، ويشيع فيها العداوة والبغضاء ، ويسلبها مقومات شخصيتها التى تميزت بها على سائر الأمم "[2].

من خلال ما سبق نجد أن العقيدة تربط بين القلوب بالمحبة والأخوة والتراحم، وهذا له أثر عميق فى كيان الفرد والجماعة ، وأن رابطة العقيدة لا تعد لها أى رابطة أخرى من نسب أو جنس أو لون أو لغة ، فلا فرق بين إنسان وإنسان ، وعربى وأعجمى ، وأبيض وأسود إلاَّ بالتقوى والعمل الصالح ، وإذا رسخت المحبة والود والتراحم فى النفوس ، تذوب الفوارق مهما عظمت ، وتتقارب الديار مهما تناءت ، ويعم الحياة روح العقيدة ، وتسودها مبادىء الحق الثابت الذى لا يتغير ولايزول.

---

[1] سورة الأنفال الآيتان ٦٢- ٦٣

[2] لمحات من الثقافة الإسلامية تأليف الشيخ / عمر عودة الخطيب صـ٣٦٧ ، ٦٣٩ مؤسسة الرسالة – بدون

يقول **الشهيد عبد الله عزام:** " عن العقيدة وأثرها فى زرع المحبة بين أفراد المجتمع المسلم " هو مجتمع متحاب أفراده كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

مجتمع إذا صاحت امرأة مستغيثة فى عمورية – هب الخليفة لنجدتها من بغداد وتحرك الجيش بأسره لمجرد صرخة ألم انطلقت من فم مسلمة.

مجتمع يقول عمر بن الخطاب ﷺ لئن أتقدم إلى سيف فيقطع عنقى فى غير معصية أحب إلىَّ من أن أتأمر على الناس وفيهم أبو بكر"[١].

٢ – ومن أثر العقيدة على الفرد والمجتمع المسلم: أنها تعالج الأزمات: فإن الأمم تختلف كما تختلف الأجسام فى القدرة على عمل ما يلازم العارض الجديد من تغيير ، وتختلف كذلك فى استعدادها لقبول المرض أو رفضه والخلاص منه ، وعلاج الأمم كعلاج الأفراد ، فالفرد الذى يشتكى من مرض ما أياً كان هذا المرض ، فإنه يذهب إلى الطبيب ويشتكى له دائه ، ويعطى الطبيب الدواء لهذا الداء ، فهكذا الأمم فإنها إذا اشتكت من داء وجب الإسراع إلى وصف الدواء ، لأن الداء الذى يحل بالأمة يحل بها عقب هزة تحل بها فتشكل خطراً عليها من النواحى الإقتصادية والإجتماعية والعسكرية وغير ذلك ، والأخطر من ذلك يكون فى كيفية علاج هذه الأزمات ، ولا شك أن الأمة حينما عانت من هذه الأشياء المختلفة ، جاءت العقيدة الصحيحة بمعالجة هذه الأمراض الخطيرة وعالجت هذه الأمم من أزماتها ، فأزاحت عنها ستار الجاهلية ، وأخرجتها من ظلمات الكفر والطغيان إلى نور الهدى والإيمان وفى ذلك يقول الله ﷻ: ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

يقول **الشيخ سيد قطب** فى تفسيره للآية الكريمة : "وفى هذا النداء الإلهى لأهل الكتاب ، يسجل عليهم أنهم مدعوون إلى الإسلام ، مدعوون للإيمان بهذا الرسول ونصره وتأييده ، كما أخذ عليهم ميثاقه ، وسجل عليهم شهادته سبحانه بأن هذا النبى الأمى هو رسول إليهم ، كما أنه رسول إلى العرب ، وإلى الناس كافة ، فلا مجال لإنكار رسالته من عند الله أولاً، ولا مجال للإدعاء بأن رسالته مقتصرة على العرب ، وليست موجهة لأهل الكتاب ثانية"[٣].

---

[١] العقيدة وأثرها فى بناء الجيل للدكتور / عبد الله عزام صـ٩٩ ، ١٠٠ ، ط دار ابن حزم – بيروت ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م

[٢] سورة المائدة الآيتان ١٥ – ١٦

[٣] تفسير الظلال ٨٦١/٢

ويقول **الشيخ عودة الخطيب:** "وإن الطبيعة الأصيلة لهذه الأمة ، أنها أمة عقيدة مبناها التوحيد الخالص الذى حررها من الخضوع لغير الله تعالى ، وأنقذها من أغلال الطاغوت ، وطهرها من أضرار الجاهلية ، ونقلها من حضيض التمزق والتخلف والفساد، إلى ذروة الوحدة والتقدم والإستقامة ، وهى أمة نظام كامل شامل شرعه الله للناس كافة ، رصيد إيمان لا ينفذ ، ومصدر قوة لا تضعف ومنهاج حق وعدل ، لا يهادن باطلاً ، أو يرضى بظلمه ، وفى ذلك يقول تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

وفى ضوء هذه الحقيقة يمكن القول: بأن هذه الأمة ما يزال فيها من القوة الذاتية والحصانة الطبيعية ما يجعل الأمل كبيراً فى قدرتها على التغلب بالجد والتصميم والصبر على نتائج الهزيمة وآثارها البعيدة ، وهى إن كانت واقعة تحت ضغط الأزمة الحادة ، فليست مستعدة لقبول الحلول الجاهزة ، التى تضعها الأيدى الغريبة وسلبيتها هذه إزاء كل تجربة دخيلة ووسيلة مغلوطة ، دليل على توافر المناعة فى كيانها ، وقد يخال الأعداء ولو جاءوا بثياب الأصدقاء ، أن المحنة فرصة مواتية لزعزعة ثقة الأمة بشخصيتها ، ونشر ضباب اليأس فى نفوس أبنائها ، وزرع بذور الشك فى قدرتها على الحياة ، واستئناف السير من جديد دون سقوط أو تعثر ، ولكنهم فى ذلك واهمون وإن أصغت إليهم بعض الأسماع ، ووقعت فى شركهم بعض العقول ، ولقيت محاولتهم تلك صدى واستهواء ، فى بعض الإتجاهات والأفكار، ومنشأ الوهم عند هؤلاء ومن تابعهم من مرضى القلوب ، أنهم لم يعرفوا طبيعة هذه الأمة، التى تستعصى على الذوبان، وتأبى فى أشد الظروف قسوة أن ترضى بالدنية والذل والاستسلام، وقد مرت بها فى تاريخها الطويل أيام عصيبة ونكبات شتى لو أصابت غيرها لقضت عليها، وأبادتها وجعلتها أثراً بعد عين ، إن سرّ هذه المناعة العجيبة التى صيرت أعداءها وأوعزت بالحقد، وحملتهم على العدوان المستمر فى موجات غزو ضارية متلاحقة ، يعود إلى هذه الحقيقة البسيطة الرائعة (العقيدة) العقيدة التى ترتفع بالأمة من مستوى الغرور والإستعلاء إذا انتصرت، والخضوع والإستسلام إذا انهزمت ، العقيدة التى تغرس فى قلوب أبنائها، أن النصر من عند الله تعالى يؤتيه من يشاء ، فإذا حلت بها الهزيمة فى معركة قومت بميزان عقيدتها ما حل بها فعرفت عوامل هزيمتها وأسباب نكبتها وكان ذلك لها درساً نافعاً فى مستقبل حياتها.

---

[1] سورة المائدة الآيتان ١٥ – ١٦

العقيدة هى: أعز على أبناء هذه الأمة من أرواحهم وأبناءهم وأموالهم، لأنهم يُضَحون بهذا كله، ولا يفرطون بعقيدتهم مصدر كرامتهم وعزتهم "[١].

وإن من أراد أن ينظر إلى آثار هذه العقيدة الإسلامية فى معالجة الأزمات، فلينظر إلى السنة المطهرة، يجد ذلك واضحاً وجلياً "حسبنا نعيش لحظات مع هذه العقيدة وآثارها البالغة فى بث روح العزيمة الصادقة، والعزة المؤمنة، فى ذلك اليوم العصيب، الذى امتحن فيه المؤمنون يوم أحد، ففى ذلك اليوم الذى نال فيه المشركون من المسلمين، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، ووقف أبو سفيان بن حرب يقول فى ملأ من أصحابه، أفى القوم محمد؟ فلم يجبه أحد لأن رسول الله ﷺ نهاهم عن ذلك ثم قال أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ فلم يلق جواباً فقال : أفى القوم ابن خطاب؟ فلم يرد عليه أحد أيضاً فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، لو كانوا فى الأحياء لأجابوا، فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه فقال: كذبت ياعدو الله، قد أبقى الله لك ما يخزيك.... فأخذت أبو سفيان العزة بالإثم فقال: أعل هبل، أيمل هبل[٢] وهنا قال رسول الله ﷺ: أجيبوه قالوا ما نقول؟ قال: قولوا الله أعلى وأجل فقال أبو سفيان ألا إن لنا العزّى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ: قولوا الله مولانا ولا مولى لكم ، قال أبو سفيان: يوم ببوم بدر والحرب سجال، عن موعدكم بدر العام القابل فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : قل نعم هو بيننا وبينكم موعد"[٣].

إلى غير ذلك من النماذج التى تبين أثر العقيدة فى معالجة الأزمات، وإن الناظر للعصر الحديث يجد أيضاً ، أنه ما حدث فى عهد النبى ﷺ قد حدث الآن ففى عام ١٩٦٧م انهزم المسلمون بسبب ضعف العقيدة ، فعاشوا فى أزمة شديدة ، حتى عدوُ العدة وتسلحوا بالعقيدة الصحيحة ، ورجعوا إلى ربهم ، وتمسكوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، رسخت العقيدة بهذه الصورة فى قلوبهم ، فانتصروا على أعدائهم، وجمع الله شتاتهم، ورفعوا راية الإسلام خفاقة عالية ، وجعلوا كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، وها نحن الآن نعيش أزمة شديدة ! بسبب تفرق المسلمين وعدم وحدتهم ، وعدم رسوخ العقيدة فى نفوس كثير منهم ، فكان المقابل أن نال منا العدو ، فلو تمسك المسلمون بعقيدتهم ، لتركت فيهم أثراً واضحاً وهو النصر على هؤلاء الأعداء.

يقول الشيخ **سيد قطب:** " لقد وضع الله منهجاً متكاملاً للعمل فى هذه الأرض منهجاً يقوم على الإيمان والعمل الصالح ، ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ، ليأخذ بأيديهم إلى الهدى ، وما يهتدى إلاّ أولئك المتهيئون المستعدون ، وإن كانت الرحمة تتحقق للمؤمنين ولغير

---

[١] لمحات من الثقافة الإسلامية صـ٢٧١ ، ٢٧٢

[٢] أى : أظهر دينك ، وهبل : اسم صنم يعبد من دون الله تعالى

[٣] لمحات من الثقافة الإسلامية صـ٣٧٣، ٣٧٤ ، ويراجع أيضاً سيرة ابن هشام ٩٩/٣ ط الشعب – بدون.

المؤمنين، ولقد كفل الكتاب الكريم للعقل البشرى حرية العمل بكفالة حقه فى التفكير ، ثم ترك له الحرية فى دائرة الأصول المنهجية التى وضعها فى حياة البشر"[١].

ويمكن أن نقول: أن ما يعانيه المسلمون اليوم من تفكك وضعف ، هو نتاج عدم تمسكهم بكتاب الله تعالى ، ولم يكن ذلك نهاية الأمر حتى نيأس جميعاً ، ولكن الخير ما زال موجوداً لأن الله ﷻ كتب الأرض لعباده الصالحين ، وهذا يعد إنذاراً لأعداء الإسلام أنه مهما طال صمودهم ضد الحق ، فالحق سينتصر وسينهزم الباطل ، وذلك واضح من خلال قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾[٢].

ومن هنا يجب علينا أن نتمسك ونعتصم بحبل الله ، ونتحد ونصبر على الشدائد ونتسلح بالإيمان ، إذ الإيمان يتطلب منا القول والعمل منهجاً وسلوكاً ، حتى نخرج من هذه الأزمات ، وهذه الشدة ونجتمع بعد شتات ونتحد بعد فرقة، ويكون ذلك بالإقتداء بكتاب الله والاهتداء بسنة رسول الله ﷺ وهذا ما تحويه العقيدة الإسلامية الصحيحة ، ولذلك ساد المسلمون الأرض ، وانتصروا على الأعداء ، واتسعت دولة الإسلام فى مدة زمنية وجيزة ، وكلما تخلوا عن عقيدتهم الصحيحة ، لقنهم الله سبحانه درساً حتى يرجعوا عماهم فيه.

٣- **ومن آثار العقيدة الإسلامية أيضاً** : أنها تحرر الإنسان من عبادة العباد والمخلوقات إلى عبادة الله وحده : أى أن العقيدة الإسلامية كانت بمثابة ميلاد جديد للإنسانية أخرجتهم جميعاً من حيرة وقلق وتخبط فى الظلام إلى نور الهداية وطريق الحق ، وحررتهم من الظلام والضلال والطغيان إلى نور الهدى والإيمان.

يقول الشيخ/ **سيد قطب:** " ثم نجىء إلى الأثر المنفرد الذى ينشؤه التصور الإسلامى فى ضمير المسلم وفى حياته ، وفى كيان المجتمع المسلم ، وفى نشاطه بخاصية التوحيد التى يتضمنها ويقوم عليها، إنه تحرير الإنسان، أو بتعبير آخر- ميلاد الإنسان- إنه توحيد الألوهية وتفردها لخصائص الألوهية ، واشتراك ما عدا الله ،ومن عاداه فى العبودية وتجردهم من خصائص الألوهية "[٣].

---

[١] تفسير الظلال ٤/٢٤٠١

[٢] سورة الأنبياء الآيتان ١٠٥ – ١٠٦

[٣] خصائص التصور الإسلامى ومقوماته صـ١٩٧ – ١٩٩ باختصار

قال تعالى : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[١].

يقول **الصابونى** فى تفسير الآية: "قوله تعالى ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ ﴾ أى إن الحكم فى أمر العبادة والدين إلاَّ لله رب العالمين، وأمر سبحانه بإفراد العبادة له لأنه لا يستحقها إلاَّ من له العظمة والجلال، وذلك الذى أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله هو الدين القويم الذى لا اعوجاج فيه "[٢]. وقال تعالى أيضاً: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللّهُ ﴾[٣].

يقول الشيخ **سيد قطب** فى تفسير الآية الكريمة: "وليس لأحد من خلق الله، أن يشرع غير ما شرعه الله وأذن به كائناً من كان ، فالله وحده هو الذى يشرع لعباده ، وبذلك يتوحد مصدر التشريع ويكون الحكم لله وحده ، وهو خير الحاكمين ، وما عدا هذا النهج هو خروج على تشريعة الله تعالى ، وعلى دين الله وعلى ما وصى به أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام "[٤].

وقال تعالى أيضاً: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [٥].

يقول صاحب الظلال: "يقسم الله بذاته العالية أنه لايؤمن مؤمن حتى يحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمره كله ثم يمضى راضياً بحكمه، مسلماً بقضائه، ليس فى صدره حرج منه، ولا فى نفسه تلجلج فى قبوله"[٦].

ويقول الصابونى فى تفسير الآية أيضاً: "فوربك يا محمد لايكونون مؤمنين حتى يجعلوك حكماً بينهم، ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور، ثم لايجدوا فى أنفسهم ضيقاً من حكمك، وينقادوا انقياداً تاماً كاملاً من غير معارضة ولامدافعة ولامنازعة"[٧].

هذا وإن الناظر لما سبق من النصوص القرآنية، يجد أن العقيدة تحرر الإنسان وتخرجه من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، إذ الإسلام هو الذى يرد وحده أمر التشريع والحاكمية، وهذا يعد حقيقة كبرى ومن ثم هو ميلاد للإنسان.

---

(١) سورة يوسف الآية ٤٠

(٢) تفسير صفوة التفاسير للإمام محمد على الصابونى ٥٢/٢ ط دار القلم – بيروت ط الخامسة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

(٣) سورة الشورى الآية ٢١

(٤) تفسير الظلال ٣١٥٢/٥ – ٣١٥٣

(٥) سورة النساء الآية ٦٥.

(٦) تفسير الظلال ٦٩٦/٢.

(٧) تفسير صفوة التفاسير ٢٨٦/١.

ويعلق على مما سبق الشيخ/ سيد قطب فيقول: "..... والتصور الإسلامى بهذا القطع الحاسم فى هذه المسألة، يعلن تحرير الإنسان بل يعلن ميلاده، إنه بهذا الإعلان يخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، والإنسان بمعناه الكامل لايوجد فى الأرض إلا يوم تتحرر رقبته وتتحرر حياته من سلطان العباد، فى أى صورة من الصور، كما يتحرر ضميره واعتقاده من هذا السلطان سواء.

والإسلام وحده يرد أمر التشريع والحاكمية لله وحده، وهو الذى يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحدة... وهذا هو تحرير الإنسان فى حقيقته الكبيرة، وهذا من ثم هو ميلاد الإنسان"(١).

ويوضح ذلك الدكتور/ مصطفى الخن فيقول: "إن العقيدة جعلت البشر عباداً لله الواحد القهار، وهم مخلوقون له وحده فهم سواسية أمامه حكاماً ومحكومين، وبذلك يكون قد قضى على نظام الطبقات فى مجتمع يتكون فيه أسياد وعبيد، فلاعبرة لكثرة المال، ولا العلو فى المنصب مادام ذلك الإنسان لايتقى الله ﷻ، فقد يكون الإنسان فقيراً معدوماً ومع ذلك فهو قريب من الله تعالى، سعيد بما هو فيه، بل يرى نفسه أنه أفضل من هذا الغنى الذى لايتقى الله تعالى، لأنه يعلم أن الكل سوف يلقى الله عبداً مخلوقاً، كما أشار سبحانه فى قرآن فقال جل جلاله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۞ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾(٢)(٣).

٤- **ومن أثر العقيدة الإسلامية أيضاً أنها:** اهتمت بالعقل اهتماماً بالغاً وجعلت له دوراً رئيسياً فى بناء الحضارة الإسلامية، من أجل هذا اهتم الإسلام إهتماماً كبيراً وبالغاً بالعقل لدرجة أن أول الآيات التى نزلت كانت موجهة إليه، فلنتدبر قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٤).

نجد أن هذه الآيات تهتم بالعقل فتكرار كلمة إقرأ وكلمة علم أكثر من مرة، يشير إلى الإهتمام البالغ بتكوين عقلية الإنسان، وتميز ذلك من الآيات التى دعت الإسلام إلى التدبر والتعقل والتفكر والتذكر، وكل ذلك لايتم إلا بالعقل، ولم يتم الإهتمام بالعقل الإهتمام البالغ إلا فى

---

(١) خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ١٩٨-١٩٩ بإختصار.
(٢) سورة مريم الآيات ٩٣-٩٥.
(٣) العقيدة الإسلامية للدكتور/ مصطفى الخن صـ ٦٠١، بإختصار ط دار الكلم الطيب بيروت- ١٩١٧م.
(٤) سورة العلق الآيات ١-٥.

ظل الإسلام والعقيدة الصحيحة وذلك إن دل فإنما يدل على بناء حضارة جديدة يفكر فيها الإنسان التفكير الصحيح ويفرق فيها بين الخبيث وبين الطيب.

"فالعقل يلعب دوراً رئيسياً فى بناء الحضارة الإنسانية، ولهذا اهتم به الإنسان إهتماماً بالغاً لدرجة أن أول الآيات التى نزلت من القرآن الكريم كانت موجهة إليه تحثه على العمل فى مجال تحصيل المعرفة ألا وهى قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (١).

فقد تكررت كلمة إقرأ فى هذه الفقرة الأولى التى نزلت من الوحى على سيدنا محمد ﷺ مرتين، كما تكررت كلمة علم ثلاث مرات، ثم جاءت الإشارة فيها إلى القلم كأداة يتعلم بها الإنسان، فهذا يشير إلى أن الإهتمام البالغ بتكوين عقلية الإنسان وذلك يدل على أن الإسلام يأخذ بيد الإنسان إلى طريق العلم والمعرفة، ويدفعه دفعاً إلى خوض غمار الحياة منقباً فيها بعقله، باحثاً فى جنباتها بفكره، متأملاً فى مظاهرها ليستنطق جمادها، ويستخرج كنوزها ويستكشف أغوارها ويزيح الحجب عن أسرارها حتى تلين له فيشكلها طبقاً لما أمره الله سبحانه وتعالى فتتحقق بذلك كلمة الله فى خلق الإنسان على هذه الأرض قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (٢).

لايتأتى الإستعمار إلا إذا عرف الإنسان كيفيته، وليس له سبيل إلى ذلك إلا بالعلم والمعرفة، ولهذا ركز الإسلام على قضية العلم والتعلم، واهتم بها إهتماماً بالغاً لم يقتصر فيه على أن أول آية نزلت حثته على العلم والقراءة، بل توالت بعدها على مدى نزول القرآن الكريم، وهو ثلاث وعشرون سنة، الآيات تحث على القراءة، والتفكر واستعمال العقل والتدبر والغوص فى باطن الأشياء استنباطاً ونفعاً وتعليماً.

فلقد هز الإسلام بهذه الآيات وأمثالها عقل الإنسان هزاً عنيفاً، فأيقظه من نومه حيث كانت الأساطير تسيطر عليه، والأوهام والخرافات تكبله بأغلال لايستطيع منها فكاكاً، فظل أسير التقاليد الآسنة، والمعارف البالية، والأفكار البدائية دهوراً طويلة، وانتزعته من حالة الإستسلام والإنقياد لما وجد عليه آباءه من معارف تعوقه عن التقدم وتمنعه من الإنطلاق إلى آفاق العالم الواسع الذى يدعو إلى إعمال العقل ليكشف أسراره ويستمتع بما أودعه الله فيه من خيرات كانت هذه الآيات إيذاناً للإنسان بأن عهد الإستسلام إلى المسلمات البالية قد إنتهى، فلا مكان للسكون

---

(١) سورة العلق الآيات ١-٥.
(٢) سورة هود الآية ٦١.

إلى الواقع الذى صنعته الأساطير والأوهام، فلا ينبغى للإنسان أن يرضى بما توارثه عن الآباء والأجداد دون إعمال الفكر فيه حتى يميز بين الخبيث والطيب، ويتبين بعقله وفكره النافع من الضار فهو دائم البحث عن الكمال الذى يليق بمعطيات الدين الجديد، فكان هذا إيذاناً بميلاد حضارة جديدة أساسها العقيدة الصحيحة"[١].

فالعقيدة الإسلامية حررت عقل الإنسان وكرمته ووضعته فى موقعه الصحيح الذى استطاع منه أن يؤثر تأثيراً بعيد المدى فى بناء الحضارة، وأخرجت - أى العقيدة - العقل من الظلام الحالك إلى النور، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التحول فسماه خروجاً من الظلمات إلى النور يقول تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٢].

وقال أيضاً: ﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [٣].

يقول د/ محمد شامة" "فلو استعرضنا التحولات الكبيرة التى حدثت فى هذا المجال عند المسلمين الأوائل لتبين لنا أن العقيدة كانت من أولى العوامل وأهمها أثراً فى الحضارة الإسلامية، وليس ذلك بغريب لأنها حررت عقل الإنسان وكرمته ووضعته فى موقعه الصحيح الذى استطاع منه أن يؤثر تأثيراً بعيد المدى فى بناء الحضارة، إذ بتحويلها الإنسان من الإيمان بآلهة متعددة إلى الإعتقاد فى إله واحد، أخرجته من دائرة التشتت بين آلهة متعددة إلى وحدة الألوهية فهو تحول من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن تقديس الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الله الواحد الذى لاتلمسه الأيدى ولاتراه العيون وهذه نقلة عقلية كبيرة، ارتفع بها عقل الإنسان من القناعة والرضا بالمحسوسة إلى التحليق فى آفاق تعلو على معطيات الحس الغريب فخرج بذلك من دائرة الملموس إلى التفكير فيما الحس فأكسبه ذلك قدرة على التخلص من السلاسل التى قيدته بالمادة فارتفع عنها إلىالروحانية، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التحول فسماه خروجاً من الظلمات إلى النور يقول تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [٤] ويقول تعالى أيضاً: ﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ

---

[١] الإسلام دين ودنيا صـ١٢٨، ١٥٠ بإختصار .
[٢] سورة البقرة الآية ٢٥٧.
[٣] سورة إبراهيم الآية ١.
[٤] سورة البقرة الآية ٢٥٧.

النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [١] فهو تحول كامل من النقيض إلى نقيضه، إذ بعد أن كان الإنسان مغلولاً بالمادة لايرى سواها ولايؤمن إلا بما يشاهده منها، إذ بالإيمان يطلقه من قيده، ويحرره من أغلاله، فيسبح فى آفاق المعرفة التى لاتحدها أسوار المادة، ولا تحيط بها تلك الأصنام التى استعبدته وأخضعته لإرادتها وما كانت إرادته إلا أوهاماً فى عقله وترهات فى داخله، حبس نفسه بها فى دائرة ضيقة تحول بينه وبين القيام بمهمته فى الكون، ألا وهى استعماره فى الأرض، واستخراج ما فى باطنها من كنوز الله لينتفع بها فى حياته[٢].

٥- **ومن آثار العقيدة الإسلامية أيضاً التضحية:** إن الإيمان بالله ﷻ ليس قولاً فحسب يعلن، ولاشهادة تنطق، ولا التظاهر أمام الناس بقراءة آيات من القرآن الكريم، ولانصائح يرددها الإنسان بلسانه، إنما العقيدة الراسخة الصحيحة هى التى تطلب من الإنسان القول والعمل، وذلك يكون بالتضحية بالنفس والمال والولد، والشهادة فى سبيل الله ﷻ، إن تطلب الأمر ذلك، فيكونون شجعاناً فى الحق لايبالون بما يصيبهم فى سبيل الله من متاعب وآلام، ولا يخافون الموت مادام ذلك فى الدفاع عن الدين والنفس والعرض والوطن، وإن الناظر إلى سير السابقين يجد أنهم كانوا يضحون بكل ما يملكون من مال أو نفس أو ولد أو أى أمر، من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، أما من لم يلتزم بذلك ولم تدفعه العقيدة الصحيحة إلى فعل ما سبق، فإنه يصبح شخصاً تافهاً لاوزن له فىالحياة، فهو حى ميت بين الناس، لايحقق خير له ولا لمجتمعه.

فالمظهر الخارجى لايعد إيماناً بالمعنى الصحيح إلا إذا إلتزم بالعقيدة الصحيحة والإيمان العميق الذى يستقر فى القلوب وتصدقه الأعمال، قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٣].

أى ليس كل مسلم مؤمناً وإنما كل مؤمن مسلم، لأن المسلم لم يستقر الإيمان فى قلبه، ولكن غاية الأمر أنه أعلن الإسلام فى الظاهر فقط دون الإلتزام بتعاليمه، فقولكم أنكم آمنتم بالله دون الإلتزام بمقتضيات الإيمان غير صحيح، إذ مقتضيات الإيمان تطلب من الإنسان، البذل، والعطاء، والتضحية والفداء، دون الإنتظار لمنفعة دنيوية بعيدة عن طاعة الله تعالى، إنما الهدف هو طاعة الله تعالى ﷻ، حتى ولو أدى بالإنسان إلى بذل كل ما يملك قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

---

[١] سورة إبراهيم الآية ١.
[٢] الإسلام دين ودنيا صـ ١٤٦، ١٤٧.
[٣] سورة الحجرات الآية ١٤.

الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١).

يقول الشيخ/ سيد قطب فى تفسير الآيتين السابقتين: "أراد الله تعالى أن يعلمهم حقيقة ما هو قائم فى نفوسهم وهم يقولون هذا القول، وأنهم دخلوا فى الإسلام إستسلاماً، ولم تصل قلوبهم بعد مرتبة الإيمان، فدل بهذا على أن حقيقة الإيمان لم تستقر فى قلوبهم ولم تشربها أرواحهم.

فالإيمان تصديق القلب بالله ورسوله، التصديق الذى لايرد عليه شك ولا ارتياب التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذى لايتزعزع ولا يضطرب ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور، والذى ينبثق فيه الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله تعالى، فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه، لابد مندفع لتحقيق حقيقته فى خارج القلب فى واقع الحياة فى دنيا الناس (أولئك هم الصادقون) الصادقون فى عقيدتهم، الصادقون حين يقولون أنهم مؤمنون، فإذا لم تتحقق تلك المشاعر فى القلب، ولم تتحقق آثارها فى واقع الحياة، فالإيمان لايتحقق، والصدق فى العقيدة وفى إدعائها لايكون"(٢).

وهذه الآية تشير إلى أن تنتبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق، وأخطار الرحلة، لتعزم أمرها وتحتسب وتستقيم ولاترتاب عندما يدلهم الأفق، ويظلم الجو وتشتد العواصف والرياح.

ويقول الشيخ/ عبد المنصف محمود عبد الفتاح: عن التضحية: "إن من آثار العقيدة الحقة أننا نرى المؤمنين أحراراً لايتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله تعالى، ولايذلون أنفسهم لمخلوق سواه، ونراهم شجعاناً فى الحق لايبالون بما يصيبهم فى سبيله، من متاعب وآلام ولايهابون الموت فى سبيل عزة الإيمان، والدفاع عن الأوطان، بل يرون الموت والإستشهاد فى سبيل الله عين البقاء... ولكن عندما يفتقد المسلم هذه العقيدة، فإنه يصبح شخصاً تافهاً لاوزن له فى الحياة، فلايستطيع أن يسهم فى بناء المجتمع الذى يعيش فيه بما يحقق الخير له ولأمته، لأنه فقد مابه يحيا هو نفسه لعدم الإذعان والإستجابة لنداء الإسلام والله سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٣)(٤).

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٥.

(٢) تفسير الظلال ٦/٣٣٤٩.

(٣) سورة الأنفال الآية ٦٤.

(٤) من آداب الإسلام السامية وتوجيهاته الرشيدة ٢/٩٦٨ تأليف الشيخ/ عبد المنصف محمود عبد الفتاح، عضو لجنة الدعوة الإسلامية بمحافظة الشرقية والمدير العام الأسبق للدعوة والإعلام الدينى بالأزهر، دار المدينة للطباعة- بدون.

كما ينبغى أن يعلم المؤمن أن طريق الإيمان مملوء بالصعاب، وقد يضحى الإنسان بماله فى سبيل طاعة الله تعالى، ورفع راية الإسلام كما فعل صحابة النبىﷺ ، وقد يتطلب من الإنسان التضحية، وإيثار الموت على الحياة، قال تعالى: ﴿الم۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (١).

يقول شهيد الإسلام سيد قطب: "إن الإيمان ليس كلمة تقال، إنما هو حقيقة ذات تكاليف وأمانة ذات أعباء وجهاد يحتاج إلى صبر وجهد يحتاج إلى إحتمال، فلا يكفى أن يقول الناس: آمنا وهم لايتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم"(٢).

والمعنى: أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين جل يمتحنهم الله تعالى بضروب المحن حتى يبلو صبرهم وثبات أقدامهم صحة عقائدهم ليتميز المخلص من غير المخلص والراسخ فى الدين من غيره.

وقال تعالى أيضاً: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (٣).

يقول الصابونى فى تفسير الآية الكريمة: "والله لتمتحنن وتختبرن فى أموالكم بالفقر والمصائب، وفى أنفسكم بالشدائد والأمراض، ومن يصبر على ذلك ويحتسب كان من المؤمنين الصادقين"(٤).

ويقول الشيخ/ سيد قطب فى تفسير الآية أيضاً: "إنها سنة العقائد والدعوات لابد من بلاء، ولابد من أذى فى الأموال والأنفس، ولابد من صبر، ومقاومة واعتزام، إنه الطريق إلى الجنة، وقد حفت الجنة بالمكاره، بينما حفت النار بالشهوات"(٥).

إذن من يلتزم بما سبق، يكن من المؤمنين الصادقين، مضحياً بكل ما يملك فى سبيل طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله، ومن التزم بذلك مكنه الله تعالى فى الأرض، وجعله فى أمن وأمان، وأعدَّ له الأجر العظيم قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

---

(١) سورة العنكبوت الآيتان ١-٢.
(٢) تفسير الظلال ٥/٢٧٢٠.
(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٦.
(٤) تفسير صفوة التفاسير ١/٢٤٩ بتصرف.
(٥) تفسير الظلال ١/٥٣٩.

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

يقول الطبرى فى تفسير الآية الكريمة: "إن الله وعد بالإنعام على هذه الأمة، بما أخبر فى هذه الآية بأنه منعم به عليهم"(٢).

ويقول الصابونى فى تفسير الأية الكريمة: "قوله تعالى ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ إستئناف بطريق الثناء عليهم، كالتعليل للإستخلاف فى الأرض، أى يوحدوننى ويخلصون لى العبادة لايعبدون إلهاً غيرى"(٣).

ويقول الشيخ سيد قطب فى تفسير الآية أيضاً: "إن الإستخلاف فى الأرض، قدرة على العمارة والإصلاح، لاعلى الهدم والإفساد، قدرة على تحقيق العدالة والطمأنينة لاعلى الظلم والقهر، وقدرة على الإرتفاع بالنفس البشرية والنظام البشرى، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان"(٤).

كما ينبغى أن يعلم الإنسان أيضاً: أن هذه التضحية تسعد الإنسان فى دنياه وأخراه، فيكون له أجر عظيم وثواب كبير عند الله تعالى، بفضل التزامه بعقيدته الصحيحة، التى ترجموها بالأعمال الصالحة، فرضوا ربهم، ورضى الله عنهم، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۞ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٥).

"فهذا حكم قاطع لاجدال فيه ولامحال، إنه الإيمان الذى ينشأ آثاره فى مواقع الحياة وليس هو الكلام الذى لايتعدى الشفاه (جزاؤهم عند ربهم جنات) بالإقامة الدائمة فى نعيمها، وهذا كله متوقف على صلة القلب بالله تعالى، ونوع هذه الصلة والشعور بخشيته، خشية تدفع إلى كل صلح وتنهى عن كل إنحراف"(٦).

يقول الدكتور/ محمد شامة: "ليس الإيمان نصائح يرددها الإنسان بلسانه ليسمعها الآخرين ولادراسة يتقنها لتعليمها لغيره إحترافاً، وإنما هو تصديق بالقلب، يقوّم السلوك ويدفع

---

(١) سورة النور الآية ٥٥.
(٢) تفسير الطبرى ١٤٢/١٨.
(٣) تفسير صفوة التفاسير ٣٤٨/٢.
(٤) تفسير الظلال ٢٥٢٩/٤.
(٥) سورة البينة الآيتان ٧-٨.
(٦) تفسير الظلال ٣٩٥٣/٦.

الإنسان إلى التضحية بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وترسيخ مبادئ الدين فى المجتمع سلوكاً ونظاماً، فالمصدر الخارجى الذى لايكون صدى فيما وقر فى القلب، لايعد إيماناً بالمعنى الصحيح، ولهذا رد الله على الأعراب ادعاءهم بالإيمان لأنه لم يكن صادراً عن القلب قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾"[١].

فالإيمان تصديق بالقلب يحمل المؤمن على البذل والعطاء دون انتظار لمنفعة دنيوية، إنما هدفه طاعة الله تعالى وإحقاق الحق، وتطبيق النظام الإسلامى، ولا يألو المسلم جهداً فى تحقيق ذلك ولو أدى الأمر إلى بذل كل ما يملك فى الحياة وغيرها قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [٢].

فالإيمان بالله رسالة شاقة، وطريقها عسير، هى تطلب من المرء أن يتنازل عن المال الذى تسعى النفوس عادة إلى جمعه، قد تسعى إلى إكتنازه، كما يقوم الإيمان الصادق على إيثار الموت على الحياة، وهى أعز ما يحرص الإنسان عليه، وأكثر ما يجبن بسببه وليس هذا طريقاً سهلاً، إذ طريق المؤمن ملئ بالصعاب وملغم بالمحن والأزمات بل تكاد تكون الصعاب هى السمة الغالبة فى حياة المؤمن، وتلك هى الأمور البدهية وإلاّ ادعى كثير مما لم يخترق الإيمان شغاف قلوبهم أنهم أصدق الناس إيماناً يقول تعالى ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [٣].

فمن كان هذا شأنه فى إيمانه وصدق عقيدته، مكن الله له فى الأرض، وأسبغ عليه نعمه الظاهرة والباطنة يقول تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٤].

---

[١] سورة الحجرات الآية ١٤.
[٢] سورة الحجرات الآية ١٥.
[٣] سورة آل عمران الآية ١٨٦.
[٤] سورة النور الآية ٥٥.

كما يرضى الله ﷻ عنه، فيجزيه فى الآخرة جزاءً حسناً يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ۞ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (١).

ومن يحرص على الإيمان بالله ورسوله لايكون هدفه الجزاء الدنيوى فحسب ولن ينتظر من وراء إيمانه اليسر فى الحياة الدنيا، فهو عاقد العزم على مواجهة الصعاب وملاقاة المتاعب، ليحقق ما أمره الله به، وعند ذلك سينال ما وعد الله به المؤمنين من الإستخلاف، والثواب فى الآخرة فسوف يتحقق ذلك لكل من آمن ولم يرتب وجاهد فى سبيل الله بما له ونفسه، جهاداً خالصاً لوجهه سبحانه وتعالى"(٢).

هذا وإن هذه الآثار التى ذكرنا بعضاً منها قد ظهرت على المسلمين الأوائل فصاروا سادة الناس وأقوى الناس وأعلى الناس لأنهم التزموا بعقيدتهم، وتمسكوا بدينهم، وجاهدوا من أجل رفع راية الإسلام، وضحّوا بكل ما يملكون، وبذلوا فى سبيل قول لا إله إلا الله كل غال ونفيس، "فضحوا بدمائهم وأموالهم فى سبيل ذلك، وتخلقوا بأخلاق الإسلام، فكانوا مصاحف تمشى على الأرض، يحبون ويبغضون فى الله تعالى، ويوالون ويعادون لله قاموا بأمر الدين أتم قيام، وسعوا فى أرجاء الأرض لنشر كلمة الإسلام فحق لهم أن يخلد ذكرهم فى القرآن، ويذكر الله جل وعلا فى محكم الفرقان، قال تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣).

فخرج أعظم جيل عرفته البشرية فى التاريخ، جيل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ذلك الجيل الذى تربى فى مدرسة النبوة، والذين حق لزمانهم أن يكون خير الأزمان وقرنهم خير القرون، يقول ﷺ: (خير الناس قرى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجئ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته قال إبراهيم وكانوا يضربوننا على الشهادة والعهد) (٤).

هذا حال الجيل الأول الذى إستطاع أن يطيح بأعظم امبراطوريتين فى ذلك الزمن فى فترة شديدة القصر مع قلة العدد، وضعف العدة وشغلوا الباحثين والمفكرين من غير المسلمين

---

(١) سورة البينة الآيتان ٧-٨.
(٢) الإسلام دين ودنيا صـ ١٢٦- ١٢٨ بإختصار وتصرف.
(٣) سورة آل عمران الآية ١١٠.
(٤) رواه البخارى، كتاب الشهادات، باب لايشهد على شهادة جور إذا شهد ٥٢/٢، ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ٨٤/٦.

فأخذوا يبحثون عن الأسباب الكامنة وراء ذلك الانتصار العظيم، وإن كثيراً منهم لينفى بخبث ودهاء أن يكون الدين هو الدافع لذلك جرياً على عادتهم فى طمس الحقائق وقلب الأمور"[١].

وخلاصة الأمر: أن العقيدة الإسلامية هى الأساس فى بناء الإسلام، لذلك حرص الإسلام أول ما حرص على أن يكون أساسه قوياً فأعطى لرتسيخ العقيدة زمناً كافياً يكفى لإرسائها فى قلوب أتباعها بالتجارب المريرة، وصهرها فى نفوسهم فى طاقات كبرى من الإحتمال والتضحية والفداء، "هكذا لبثت الدعوة الإسلامية ثلاثة عشر عاماً فى مكة فى وضع الأساس لبنائها، وتربية جيل من الناس يحمل العقيدة فى صدوره مطمئنة بها قلوبه، مقتنعة بها عقوله، محتملة أعصابه، أشد ألوان العذاب، مستعذبة أبدانه أعنف ألوان الأذى، مستعدة نفوسه لبذل الحياة بأسرها من أجل أن تظل العقيدة نابضة بالحياة تؤدى رسالتها الإنسانية الكبرى"[٢].

إن العقيدة الإسلامية الصحيحة تهذب النفوس وتنير العقول، وتكون الشخصيات وتحدد الغايات، وتبنى الأمم وتضئ العقل للطريق المستقيم وتمهد له السبيل، وتأخذ بيده إذا كبا، وترشده إذا ضل وغوى، وإذا أعوج وتسايره إذا إهتدى وتحدد له معالم الخير والشر وتبين له مواضع النفع والضر وتسوقه إلى سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

هذا وإن ما ذكرناه ليس كل الآثار التى تنتج عن العقيدة الإسلامية ولكن ما ذكرناه بعد أهم هذه النتائج التى توصل إليها بعض العلماء والمفسرين.

---

(١) الإنحرافات العقدية والعلمية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما فى حياة الامة للشيخ على الزهرانى ١/٤٦، ٤٧.

(٢) العقيدة والقوة معاً، صـ ٢١ تأليف محمد عبد الله السمان، دار الجيل – بيروت الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

obeikandl.com

الفصل الثانى

العبادات وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم

ويحتوى هذا الفصل على خمسة مباحث:

المبحث الأول : العبادات وأهميتها

المبحث الثانى : الصلاة وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم

المبحث الثالث : الزكاة وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم

المبحث الرابع : الصوم وأثره على الفرد والمجتمع المسلم

المبحث الخامس : الحج وأثره على الفرد والمجتمع المسلم

obeikandl.com

المبحث الأول

العبادات وأهميتها

obeikandl.com

العبادات وأهميتها

مقدمة

العقيدة الصافية ليست لفظاً عابراً تنتهى بانتهاء الحروف لكنها دوام التقديس والتنزيه فى القلب والوجدان ولذلك كانت العبادات روافد تنبع من الإيمان وتمد القلب بالأنوار فيثبت التوحيد ويتجدد ويزداد ويدوم دوام نبض الحياة فى روح الإنسان وبهذا الإيمان وبتلك الأركان تتمخض أقوال الإنسان وأفعاله وخواطره وآماله تقديساً دائماً وعبادة مستمرة للحى القيوم صاحب الفضل الدائم والنعم المتتابعة.

فالدين الإسلامى دين البشرية الخالد، ودين المثل الإنسانية الرفيعة، قدم والناس فى ظلام فبدل الظلام نوراً، وخلق من المسلمين ولاة راشدين وقادة فاتحين وأخوة متحابين، فيهم الفقير ولكن ليس فيهم المحروم، فيهم الضعيف ولكن ليس فيهم المظلوم، حيث شرع بينهم رابطة الأخوة بالبر والزكاة وصلة العطف بالرحمة والصداقة وجعل منهم أمة واحدة لها عبادة قلبية واحدة هى الإيمان بالله ورسوله، وعبادة بدنية مشتركة عنوانها الصلاة فالحج، وعبادة مالية مشتركة عنوانها الزكاة والصدقة، وعبادة روحية مشتركة عنوانها الصيام، وجعل قبلتنا واحدة وأمتنا واحدة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١)، وقال: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (٢).

الدين الإسلامى هو الدين القيم، جعل الله له أركاناً خمسة من آمن بها ظفر بجنة عرضها السموات والأرض لأنها تؤدى إلى أهداف سامية نبيلة، ومن أنكرها أو بعضها فهو من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم وخاب جهدهم، وكانت عاقبة أمرهم خسراناً مبيناً.

وهذه الأركان الخمسة هى: الإقرار بوحدانية الله وبرسالة سيدنا محمد ﷺ وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت للمستطيع.

أما الركن الأول: فهو الأساس الذى تبنى عليه باقى الأركان، وهو الإيمان بالله ﷻ وبرسالة سيدنا محمد ﷺ هذه الرسالة التى غيرت وجه التاريخ وأتت بمعجزة خالدة لم يستطع العالم الإتيان بمثلها، ضمن الله لها البقاء وآمن بها قرابة خمسمائة مليون من البشر بدون أن تكون هناك جماعات تبشيرية تدعو إليها، أو حكومات تكره الناس عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٠.
(٢) سورة المؤمنون الآية ٥٢.

الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢].

وفقدان هذا الركن يعتبر إنهياراً لإيمان الإنسان من أساسه، وبذلك تنتفى جميع الأركان، أما فقدان أى ركن من الأركان الأخرى بدون إنكار فيه ينتقص من دين المرء مع إعتباره مسلماً.

أما الركن الثانى: وهو الصلاة ففيها يقضى الإنسان فترة من يومه بعيداً عن الحياة الآلية الرتيبة، ويخرج إلى ميدان الحرية الفكرية والصفاء الروحى، واقفاً بين يدى ربه يناجيه متذكراً متدبراً وفيها يجد الإنسان تحقيقاً لما يشرح صدره ويطمئن قلبه، ذلك أن الإنسان كما هو معلوم مدنى بطبعة ويحب أن يجد الأنس والسرور فى مصاحبة بنى جنسه والإلتقاء بهم ولكن هذه المصاحبة هى فى صميمها على مستوى إنسانى وكثيراً ما يكون الغرض منها ماديا تستهدف مقاصد دنيوية وقد يكون الجانب الوجدانى الخالص ليس متحققاً، ولذا نرى أن الإنسان يحاول أن يجد لنفسه رفيقها الأعلى فلا يجد ذلك إلا فى العالم المثالى، فى رحاب الله وكنفه، وأن الصلاة فيها هذا المعنى السامى، لأنها تتضمن السعى إلى الله للوقوف بين يديه، وتنطوى على التعبير عن الشوق الكامن إلى من يستجيب لدعائه ويكشف عنه السوء ويضفى عليه من رحمته فيزداد تضرعاً لله وخضوعاً وصفاء نفس واطمئنان قلب وتزول عنه المخاوف التى تساوره وتنزاح الأعباء التى تثقل كاهله فى معترك حياته المادية وينكشف ما يمسه من ضر وشقاء، ويملأ نفسه الأمن والرضا والسعادة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[٣].

وأما الزكاة: فهى بذل المادة فى سبيل الله تعالى إنها بذل المادة التى يجرى وراءها البشر، ويكادون يعبدونها بذلها بعد امتلاكها، وبذلها وقد كان فيها -لو أراد الوسيلة للملاذ والشهوات إنها تجرد عن المادة توحيداً لله سبحانه، فهى تقوى عاطفة الرحمة لدى المؤمنين وتزيل الشقاء لدى المحتاجين مما يوطد روح التعاون والحب والإخاء، ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٤].

وفى الصوم: الذى هو أمر بين العبد وربه، فلايقع تحت رقابة الناس أسرار من تربية النفس، إن فيه تمكيناً لخلق الأمانة واستحضاراً للرقابة الإلهية وتحقيقاً لإخلاص النية لله تعالى،

---

[١] سورة الإسراء الآية ٩.
[٢] سورة الحجر الآية ٩.
[٣] سورة العنكبوت الآية ٤٥.
[٤] سورة المعارج الآيتان ٢٤-٢٥.

وتعويداً على الصبر أمام الشهوات وتمريناً على كبح جماح الغريزتين الطاغيتين من البطن والفرج وفيه بكل ذلك تربية للضمير على التقوى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

وفى الحج: من أساليب التربية النفسية الشئ الكثير لمن أدرك أسرار القرآن فيه التعويد على الصبر وكبح الغرائز والشهوات، وترك العادات فى اللباس والتعطر وقص الشعر وملامسة النساء، وفيه التعويد أيضاً على غض البصر عند إزدحام الرجال مع النساء فى الطواف والسعى، اللذين لم يفصل فيهما الشرع بين النساء والرجال ليعلم المسلم والمسلمة كيف يعليان نفسيهما فى حضرة الله تعالى حول بيته وفيه التعويد على التخلق بالسكينة والهدوء والتواضع والتساوى وترك الفسق والصخب والجدال والمراء، وفيه جعل هذا التعود على التقوى فى أشهر الحج، كالزاد يحمله المسلم إذا رجع إلى بلاده وحالته الإعتيادية، وهذا معنى قول القرآن ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (٢).

تعريف العبادة:

جاء فى المصباح المنير: "عَبَدتُ: الله (أَعْبُدُ) (عِبَادَةً) وهى الإنقياد والخضوع والفاعل (عَابد) والجمع (عُبَّادٌ) و (عَبَدَةٌ) مثل كافر وكُفَّار وكفرة ثم استعمل فيمن إتخذ إلهاً غير الله وتقرب إليه فقيل: عابد الوثن والشمس وغير ذلك(٣).

وفى **مختار الصحاح:** "أصل العُبُودية الخضوع والذل، والتَّعْبِيد التذليل (التَّعبيد) أيضاً (الإستعْباد) وهو اتخاذ الشخص عبداً، و (العبَادة): الطاعة، و(التَّعَبُّد): التنسك"(٤).

ويقول الدكتور أحمد الشرباصى: "تقول اللغة العربية أن العبد هو الإنسان حراً كان أو رقيقاً، لأن الإنسان مربوب لله ﷻ، والعبودية هى إظهار التذلل لأنه يقال: طريق معبد أى مذلل بالمشى فيه، ويقال: بعير معبد أى مذلل، وعبدت فلاناً أذللته، ومن ذلك قول القرآن المجيد: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥).

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٣.
(٢) سورة البقرة الآية ١٩٧.
(٣) المصباح المنير كتاب العين صـ ٣٨٩.
(٤) مختار الصحاح مادة عبد صـ ٤٠٨.
(٥) سورة الشعراء الآية ٢٢.

والعبادة أبلغ من العبودية لأن العبادة هى غاية التذلل ولايستحقها إلاّ من له غاية الأفضال وهو الله جل جلاله ولذلك قالوا: إن العبادة هى الحب بغاية الذل والخضوع والتعبد هو التذلل والخضوع.

وكلمة العبد تطلق بمعنى المملوك وبمعنى الذى تستعبده الدنيا فيعكف على شهواتها وخدمتها، وبمعنى المخلوق الذى أوجده الله وخلقه، وبمعنى الذى يعبد الله مخلصاً ويستشعر روح الخضوع له دائماً، وهذا المعنى الأخير هو المناسب للمجال الأخلاقى الذى نستعرض فيه عقد الفضائل التى دعا إليها القرآن الكريم[١].

ويقول الشيخ حسن أيوب: "العبادة مأخوذة من عبد بمعنى إنسان خاضع ذليل لسيده ومالك أمره قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾[٢]، أى خاضعاً ذليلاً للرحمن، وعبد الطريق: ذلله وعبد إنسان إنساناً: أخضعه له، قال موسى عليه السلام رداً على فرعون فى كبريائه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[٣]، والمعنى: هل تعتبر إخضاعك بنى إسرائل وظلمك وجورك وإذلالك لهم نعمة تستحق أن تمن بها علىّ؟ إن هذا قلب للحقائق وعلّم الله المسلمين أن يقولوا فى كل ركعة من الصلاة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٤].

والمعنى: لانعبد أحداً غيرك، ولانستعين بأحد سواك فأنت وحدك المستحق للعبادة، وأنت وحدك المعين لمن يستعين بك.... وعبادة الله تعالى معناها الخضوع لله تعالى خضوعاً كاملاً فى جميع ماجاء به كتابه الكريم، وفى جميع ما بينه نبيه العظيم عليه أفضل الصلاة والتسليم مع شدة حبه لله وشدة الخوف منه.

وهى بهذا المعنى تشمل الخضوع لله فى العقيدة وأنواع القرب كالصلاة والزكاة والحج وفى أنواع المعاملات .... وفى كل ما يتصل بحياتنا الشخصية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية بشرط واحد هو أن يريد المسلم بخضوعه وجه الله ويطلب به رضاه فإذا التزم المسلم بالعمل بالكتاب والسنة وفعل ما أمره الله به، وترك ما نهاه الله عنه قاصداً بذلك وجه الله فهو عابد لربه يستحق على عبادته المثوبة فى الدنيا والآخرة حتى ولو كان عمله فى ظاهره عملاً

---

[١] مجلة منبر الإسلام، العدد الخامس، السنة ٢٨جمادى الأولى ١٣٩٠هـ، يوليو ١٩٧٠م والمقال للدكتور/ أحمد الشرباصي تحت عنوان العبودية لله تعالى صـ ٤٦.

[٢] سورة مريم الآية ٩٣.

[٣] سورة الشعراء الآية ٢٢.

[٤] سورة الفاتحة الآية ٥.

دنيوياً محضاً ثم يقول: والخلاصة: أن كل إنسان مسلم يلتزم بالكتاب والسنة مبتغياً بذلك رضا الله تعالى فهو عابد لله بالمعنى العام المطلق لكلمة عبادة كما سبق[١].

يقول الجرجاني: "العبادة هي فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيماً لربه ﷻ والعبودية: عهود وحفظ الحدود والرضا بالموجود والصبر على المفقود"[٢].

ويقول الشيخ سيد سابق: "العبادة معناها: طاعة الله ﷻ، والخضوع له والتزام بما شرعه من الدين قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

والعبادة بهذا المعنى معناها: أن العبد لايخضع إلا للحق الذى أوحاه الله إليه، وتجنبه الظنون والأوهام والأباطيل، وتحول بينه وبين الخضوع لسيطرة ردال الدين وتفتح أمامه الطريق ليتصل مباشرة لله تعالى"[٤].

ويقول الشيخ عبد المجيد عزيز الزنداني: "وردت العبادة فى القرآن الكريم بثلاثة معان أولاً: بمعنى العبودية قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ۞ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ۞ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[٥].

قال الطبرى فى تفسير هذه الآية: "عابدون أى أنهم مطيعون متذللون يأتمرون بأمرهم ويدينون لهم والعرب تسمى كل من دان لملك عابداً له"[٦].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[٧].

والمراد بالعبادة للطاغوت فى هذه الآية هو: العبودية والطاعة له ومعنى الطاغوت فى إصطلاح القرآن: هو كل دولة أو سلطة، وكل إمامة أو قيادة أو شخصية تبغى على الله وتتمرد

---

(١) تبسيط العقائد الإسلامية للشيخ/ حسن أيوب، صـ ٢٢٧- ٢٢٩ بإختصار، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة- بدون.
(٢) التعريفات للجرجانى صـ ١٤٦.
(٣) سورة يوسف الآية ٤٠.
(٤) إسلامنا للشيخ/ سيد سابق صـ ١٧، بتصرف ط دار الفتح الإعلامى العربى بدون.
(٥) سورة المؤمنون الآيات ٤٥-٤٧.
(٦) تفسير الطبرى ٣٣/١٠.
(٧) سورة الزمر الآية ١٧.

على أحكامه سبحانه ثم تنفذ حكمها فى أرضه، وتحمل عباده على طاعتها بالإكراه أو الإغراء أو بالتعليم الفاسد، فاستسلام المرء لمثل تلك السلطة أو الإمامة أو الزعامة أو الشخصية وتعبده لها ثم طاعته إياها، كل ذلك منه العبادة- ولاشك- للطاغوت.

ثانياً: العبادة بمعنى الطاعة قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١).

والمعروف أن الناس جميعاً يلعنون الشيطان فى هذه الدنيا، ولكن العبادة للشيطان هنا بمعنى الطاعة لأمره واتباع حكمه قال تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢).

والمراد باتخاذ العلماء والأحبار أرباباً من دون الله ثم عبادتهم فى هذه الآية هو: الإيمان بكونهم مالكى الأمر والنهى، والاتباع لأحكامهم بدون سند من عند الله أو الرسول قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٣).

ثالثاً: العبادة بمعنى التأله قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء﴾ (٤).

ويتجلى من بيان هذه الآية: أن المقصود بالمعبودين فيها هم الأولياء والأنبياء والصلحاء، والمراد بعبادتهم هو الإعتقاد بكونهم أجل وأرفع من خصائص البشر والظن بكونهم متصفين بصفات الألوهية، وقادرين على الإعانة الغيبية، وكشف الضر والإغاثة ثم القيام بين يديهم بشعائر التكريم والتعظيم مما يكاد يكون تألهاً وقنوتاً"(٥).

فالعبادة لغة: "الطاعة مع الخضوع وأصل العبودية الخضوع والذل، والتعبد: التذلل، يقال: طريق معبد إذا كان مذللاً بكثرة الوطء"(٦).

---

(١) سورة يس الآية ٦٠.
(٢) سورة التوبة الآية ٣١.
(٣) سورة المائدة الآية ٤٤.
(٤) سورة الفرقان الآيتان ١٧-١٨.
(٥) التوحيد ٣/٤٥، وما بعدها تأليف الشيخ/ عبد المجيد عزيز الزندانى، ط دار السلام الطبعة الثانية ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
(٦) تهذيب اللغة مادة عَبَدَ، لمحمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق عبد الحليم النجار، مراجعة محمد على النجار، القاهرة- الدار المصرية، ولسان العرب مادة عَبَدَ ٣/٢٧١ وما بعدها بتصرف وإختصار.

وفى الإصطلاح: "فهى إسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة".

فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث، وأداء الأمانة وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والجهاد للكفار المنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الأدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه، وأمثال ذلك من العبادة لله"[١].

قال **ابن القيم**: "العبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع..، فمن أحببته خاضعاً له لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة تكن عابداً له، حتى تكون محباً خاضعاً"[٢].

ونخلص مما سبق إلى:

أن معنى العبادة لغة: الخضوع والتذلل أى إستسلام المرء وانقياده لغيره إنقياداً لامقاومة معه ولاعدول عنه ولا عصيان له حتى يستخدمه هو حسب ما يرضى وكيف يشاء.

وإصطلاحاً هى: إسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فالظاهرة: كالتلفظ بالشهادتين والصلاة والصوم، والباطنة: كالإيمان بالله وملائكته والكتب والرسل والخوف والرجاء... فمفهوم العبادة فى الإسلام قد شمل كل ما من شأنه أن يخلق مجتمعاً مؤمناً قوياً يقوم على الإخلاص.

يقول الشيخ عفيف عبد الفتاح طبارة: "إن العبادة المشروعة لابد لها من أمرين:

(١) الإلتزام بما شرعه الله ودعا إليه الرسل أمراً ونهياً، وتحليلاً وتحريماً، وهذا هو الذى يمثل عنصر الطاعة والخضوع لله ﷻ.

(٢) أن يصدر هذا الإلتزام من قلب يحب الله تعالى، فليس فى الوجود من هو أجدر من الله تعالى بأن يُحَب فهو صاحب الفضل والإحسان ثم يفصّل هذا الإجمال فيقول:

الأمر الأول: من العبادة الذى قوامه العبادة والخضوع لله تعالى، يحمل كل ما أمر الله به، ودعا إليه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

---

[١] العبودية صـ ٣، لأحمد بن عبد الحليم من تيمية تحقيق محمد حامد الفقى- القاهرة- مكتبة السنة المحمدية.
[٢] مدارج السالكين لابن القيم صـ٣.

أما الأعمال الظاهرة: فتشمل الأركان الشعائرية من الصلاة والصيام والزكاة والحج ويطلق عليها العبادات، كما تشمل مازاد على ذلك من ألوان التعبد التطوعى من ذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن ودعاء واستغفار، وتسبيح وتهليل، وتكبير، وتحميد لله سبحانه وتعالى.

كما تشمل العبادة الظاهرة حسن المعاملة والوفاء بحقوق الأقارب كَبِرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى اليتيم والمسكين وابن السبيل، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وكل ما أوحى الله به من الأخلاق الفاضلة. والعبادة الباطنة تشمل: خشية الله تعالى والإنابة إليه، وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والرضا بقضائه.

والأمر الثانى: من العبادة الذى هو بمعنى غاية الحب والذل لله فهو مما يحرر الإنسان من الذل والخضوع لكل ما سوى الله من أنواع الآفة التى تستعبد الناس وتسترقهم ذلك أن فى قلب الإنسان خاصية ذاتية إلى معبود يتعلق به، ويسعى إليه ويعمل على رضاه فإذا لم يكن هذا المعبود هو الله تخبط فى عبادة آلهة شتى وأرباب أخر، الأمر الذى يشتت عقله، ويرميه فى متاهات الخرافات والأساطير والأوهام"[١].

أنواع العبادة: العبادة نوعان:

"عبادة بالتسخير، وعبادة بالإختيار وهى لذوى النطق، وهى المأمور بها فى نحو قوله، ﴿اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [٢]، ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ﴾ [٣]، والعبد يقال على أربعة أضرب:

الأول: عبد بحكم الشرع وهو الإنسان الذى يصح بيعه وإبتياعه نحو ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾[٤]، و ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [٥].

الثانى: عبد بالإيجاد وذلك ليس إلاّ لله وإياه قصد بقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [٦].

الثالث: عبد بالعبادة والخدمة والناس فى هذا ضربان:

عبد الله مخلص، وهو المقصود بقوله ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [٧]،﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[٨]. ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [٩]،﴿عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [١٠]،﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

---

(١) الخطايا فى نظر الإسلام صـ ٢٧٠، وما بعدها بإختصار.
(٢) سورة البقرة الآية ٢١.
(٣) سورة النساء الآية ٣٦.
(٤) سورة البقرة الآية ١٧٨.
(٥) سورة النحل الآية ٧٥.
(٦) سورة مريم الآية ٩٣.
(٧) سورة ص الآية ٤١.
(٨) سورة الإسراء الآية ٣.
(٩) سورة الفرقان الآية ١.
(١٠) سورة الكهف الآية ١.

سُلْطَانٌ﴾[١]، ﴿كُونُواْ عِبَادًا لِّي﴾[٢]،﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٣]، ﴿وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾[٤]، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[٥]، ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾[٦]، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[٧].

وعبد للدنيا وأغراضها وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها وإياه قصد النبى ﷺ بقوله: (تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخيمصة إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرض)[٨].

وعلى هذا يصح أن يقال: ليس كل إنسان عبد الله فإن العبد على هذا بمعنى العابد لكن العبد أبلغ من العابد، والناس كلهم عباد الله بل الأشياء كلها كذلك، لكن بعضها بالتسخير وبعضها بالإختيار"[٩].

هذا وإن العبادة والعبودية فيهما معنى التذلل والخضوع، غير أن الأولى حقيقة دنيوية والثانية حقيقة كونية، وتتحقق العبادة فى الشرع بالطاعة والإمتثال القائمة على امتثال الأوامر واجتناب النواهى سواء فى ذلك الإعتقاد والعمل.

يقول الدكتور/ **أحمد الشرباصى**: "العبودية نوعان: عامة، وخاصة.

فالعبودية العامة: "هى خضوع أهل الارض والسموات كلهم لجلال الله وقهره وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع فى قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾[١٠].

والعبودية الخاصة: هى عبودية الطاعة والمحبة وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[١١]، فهؤلاء العباد هم الذين خضعوا لربهم طوعاً وإختياراً"[١٢].

---

[١] سورة الحجر الآية ٤٢.
[٢] سورة آل عمران الآية ٧٩.
[٣] سورة الحجر الآية ٤٠.
[٤] سورة مريم الآية ٦١.
[٥] سورة الفرقان الآية ٦٣.
[٦] سورة الدخان الآية ٢٣.
[٧] سورة الكهف الآية ٦٥.
[٨] أخرجه البخارى، كتاب الرقائق ٧/١٧٥ ح رقم ٥٩٥٥.
[٩] مفردات غريب القرآن للأصفهانى صـ ٣٢٢، ٣٢٣.
[١٠] سورة مريم الآية ٩٣.
[١١] سورة الزمر الآيتان ١٧-١٨.
[١٢] مجلة منبر الإسلام، العدد الخامس، السنة ٢٨، جمادى الأولى ١٣٩٠هـ- يوليو ١٩٧٠م، والمقال للدكتور/ أحمد الشرباصي تحت عنوان: من أخلاق القرآن العبودية لله تعالى صـ ٤٦.

ويفرق بعض العلماء بين الطاعة والعبادة بأن العبادة تنطوى علىالطاعة والخضوع كما تنطوى على الحب أو يدفع إليها الحب فيقول الدكتور **الأحمدى أبو النور** "إن العبادة للمعبود هى الطاعة الخالصة له، المبنية على حبه، المؤدَّاه على وجه يشعر بمنتهى الخضوع له، ولكن العبادة بهذا المعنى لاتكون إلا لله وحده، وهى أخص من الطاعة التى تتحقق فى مطلق الإمتثال فكل عبادة طاعة، وليس كل طاعة عبادة فأنت إذا إمتثلت أمر والديك، يقال لك: أنت أطعتهم ولايصح أن يقال: أنت عبدتهم فالعبادة أعلى مقام فى الطاعات وهى المعراج الروحى الذى يصعق منه العباد إلى درجة كأنهم يرون فيها الحق سبحانه وتعالى، فإن لم يصلوا إلى ذلك فليشعروا بأنه تعالى يراهم[١].

فضيلة العبادة:

ولسمو فضيلة العبادة والعبودية ذكرها القرآن الكريم فى عشرات من الآيات، كما جعلها صفة لخاتم الأنبياء وإمام المرسلين، فقال فى سورة البقرة ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[٢]، وقال فى سورة الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٣]، وقال فى سورة الكهف ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا﴾[٤]، وقال فى سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[٥]، وقال فى سورة الجن ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[٦]، وقال فى سورة الأنفال ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[٧].

---

[١] من هدى القرآن للدكتور/ الأحمدى أبو النور، وزملائه د/ إبراهيم عبد الحميد سلامة، د/ القصبى محمود زلط، د/عبد الحى حسين الفرماوى، ود/ محمد عبد المنعم خريبة، الطبعة الأولى ١٣٩٥- ١٣٩٦هـ، ١٩٧٥- ١٩٧٦م طبع الحضارة العربية.

[٢] سورة البقرة الآية ٢٣.

[٣] سورة الإسراء الآية ١.

[٤] سورة الكهف الآية ١.

[٥] سورة الفرقان الآية ١.

[٦] سورة الجن الآية ١٩.

[٧] سورة الأنفال الآية ٤١.

والعبد المراد فى هذه الآيات الكريمات هو رحمة الله للعالمين سيدنا محمد ﷺ وكان ممن الممكن أن تصفه الآيات هنا بالنبوة أو الرسالة أو الرحمة أو غير ذلك من الصفات السامية الدالة عليه، ولكن الآيات آثرت وصفه فى هذه المواطن الشريفة الكريمة بصفة "العبودية" لأنها أشرف الفضائل التى يفخر بها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أمام خالقه تبارك وتعالى.

فعن ابن عيينة حدثنا زياد هو إبن علاقة أنه سمع المغيرة يقول قام النبى ﷺ حتى تورمت قدماه فقيل له غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: (أفلا أكون عبداً شكوراً) [١].

وكذلك جعل القرآن الكريم فضيلة العبودية صفة وخلقاً للأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فقال فى سورة ص عن داود: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٢]، وقال فى السورة نفسها عن سليمان ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [٣]، وقال فيها: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [٤].

وقال عن زكريا فى سورة مريم ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [٥]، وقال فى السورة ذاتها عن عيسى ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [٦]، وقال فى سورة الإسراء عن نوح ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [٧]، وقال فى سورة التحريم مشيراً نوح ولوط ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ [٨]، ويمضى القرآن بعد هذا فى التنويه بشأن فضيلة العبودية فيقول فى سورة الكهف ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [٩]، ثم يصف بها الأبرار الأخيار من المؤمنين المستجيبين لله تعالى فيقول فى سورة الفرقان ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [١٠]، ويقول فى سورة الزخرف ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا

---

[١] رواه البخارى، كتاب تفسير القرآن، باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنب وما تأخر ٣/٢٧٠.
[٢] سورة ص الآية ١٧.
[٣] سورة ص الآية ٤٤.
[٤] سورة ص الآية ٤٥.
[٥] سورة مريم الآية ٢.
[٦] سورة مريم الآية ٣٠.
[٧] سورة الإسراء الآية ٣.
[٨] سورة التحريم الآية ١٠.
[٩] سورة الكهف الآية ٦٥.
[١٠] سورة الفرقان الآية ٦٣.

أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [١]، ويقول فى سورة الإسراء مخاطباً الشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [٢].

وهكذا يشعرنا حديث القرآن الكريم عن العبودية بأنها إحدى المنازل السامية التى يتطلع إليها الأبرار من المؤمنين، ويفاخرون بها.

يقول **الإمام الفخر الرازى:** "واعلم أن العبادة والعبودية مقام عال شريف، ويدل عليه آيات:

الأولى: قوله تعالى فى آخر سورة الحجر ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [٣]، فأمر محمدا ﷺ بالمواظبة على العبادة إلى أن يأتيه الموت ومعناه: أنه لايجوز الإخلال بالعبادة فى شئ من الأوقات، وهذا يدل على أن العبادة تزيل ضيق القلب، وتفيد انشراح الصدر، وما ذاك إلاّ لأن العبادة توجب الرجوع من الخلق إلى الحق وذلك يدل على غاية جلاله أمر العبادة.

الآية الثانية: فى شرف العبودية: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [٤]، ولولا أن العبودية أشرف المقامات، لما وصفه الله بهذه الصفة فى أعلى مقامات المعراج.

الآية الثالثة: فى شرف العبودية: أن عيسى أول ما نطق قال: ﴿إِنِّي عبد الله﴾ [٥]، وصار ذكره لهذه الكلمة سبباً لطهارة أمه، ولبراءة وجوده عن الطعن، وصار مفتاحاً لكل الخيرات ودافعاً لكل الآفات، وأيضاً لما كان أول كلام عيسى ذكر العبودية كانت عاقبته الرفعة كما قال تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [٦].

الآية الرابعة: قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [٧]، أمره بعد التوحيد بالعبودية، لأن التوحيد أصل، والعبودية فرع، والتوحيد شجرة، والعبودية ثمرة، ولاقوام لأحدهما إلا بالآخر فهذه الآيات دالة على شرف العبودية"[٨].

---

[١] سورة الزخرف الآية ٦٨.
[٢] سورة الإسراء الآية ٦٥.
[٣] سورة الحجر الآيات ٩٧- ٩٩.
[٤] سورة الإسراء الآية ١.
[٥] سورة مريم الآية ٣٠.
[٦] سورة آل عمران الآية ٥٥.
[٧] سورة طه الآية ١٤.
[٨] تفسير الرازى ٢٥٤/١.

وأقول: لاعجب فالعبودية هى أعلى مراتب الدين وأرقى درجات الطاعة، وهى حلية المؤمن الذى يوقن بوحدانية ربه ﷻ، ويوقن بلقائه وجزائه، فهو سبحانه يستعد دائماً لهذا اللقاء بالعمل الصالح، واجتناب الإشراك بالله سبحانه ولذلك يقول القرآن فى سورة الكهف ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١).

العبادة حق الله تعالى وحده:

ليست العبادة إلا نوعاً من الخضوع البالغ حد النهاية، وهذا الخضوع ينشأ عن استشعار القلب عظمة المعبود، ويجعله يشعر بسلطة له غاية ما يعرفه عنها أنها محيطة به وأنها فوق إدراكه.

وإذا نظرنا إلى العرب قبل الإسلام وجدنا بينهم من كان يعترف بوجود خالق ولكنه ينكر البعث والحساب، وكان هناك من يعبد الملائكة ويصورهم كما شاء له خياله، ويغير هذه الصورة إذا ما شاء له فكره، وهناك من يعبد الجن، وفى هذا نقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (٢).

ومن ناحية أخرى: كانت الكثرة من العرب تعبد الأصنام يتخذونها من أحجار أو من خشب أو من معدن، يقول تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ (٣).

ولقد طالب القرآن الكريم المسلمين بعبادة الله عبادة خالصة فى سور كثيرة أعد منها قوله تبارك وتعالى: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤).

والنداء الإلهى فى هذا القول الكريم نداء إلى الناس كلهم يطالبهم فيه ربهم بعبادته لأنه هو الخالق لهم ولمن قبلهم، وإذا كان سبحانه هو الذى تفرد بالخلق فليتفرد بالعبادة، تلك العبادة التى تصل بهم إلى مقام التقوى والخشية من رب العالمين.

---

(١) سورة الكهف الآية ١١٠.
(٢) سورة سبأ الآيتان ٤٠-٤١.
(٣) سورة الفرقان الآية ٥٥.
(٤) سورة البقرة الآيتان ٢١-٢٢.

وكيف لايعبد الناس ربهم وقد أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لهم، ولاشك أن الماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

ومن هنا لايليق بمن أدرك هذه الحقيقة عن الله تبارك وتعالى أن يتركه إلى غيره مهما كان هذا الغير سواء أكان فى صورة ألهة تعبد أم فى صور أخرى خفية ونجد فى القرآن الكريم أيضاً دعوة إلى عبادة الواحد الأحد، قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٢).

يقول الطبرى عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: "إن هذا خاص فيمن سبق فى علم الله تعالى أنه يعبده فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص، والمعنى: وما خلقت أهل السعادة عن الجن والإنس إلا ليوحدون، وأصل العبودية: الخضوع والذل، والتعبيد: الإستعباد وهو أن يتخذه عبداً، والعبادة الطاعة، والتعبد التنسك، فمعنى ليعبدون: ليذلوا ويخضعوا ويعبدوا"(٣).

ويقول **ابن كثير** فى تفسيره للآية أيضاً: "أى إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتى لا لإحتياجى إليهم"(٤).

يقول **صاحب الظلال**: "هذه الوظيفة المعينة التى تربط الجن والإنس بناموس الوجود هى عبادة الله تعالى، أو هى العبودية لله... أن يكون هناك عبد ورب، عبد يَعبد، ورب يُعبد، وأن تستقيم حياة العبد كلا على أساس هذا الإعتبار.

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التى هى غاية الوجود الإنسانى أو التى هى وظيفة الإنسان الأولى أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة فى مدلول العبادة قطعاً، وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن فى أمرين رئيسيين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله فى النفس أى إستقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً، عبداً يَعبد ورباً يُعبد، وأن ليس وراء ذلك شئ، وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الإعتبار، ليس فى هذا الوجود إلا عابد ومعبود، وإلا رب واحد والكل له عبيد.

والثانى: هو التوجه إلى الله بكل حركة فى الضمير، وكل حركة فى الجوارح، وكل حركة فى الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٠.
(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦.
(٣) تفسير الطبرى ٥٢/١٧ بإختصار.
(٤) تفسير ابن كثير ٢٧٤/٧.

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة، ويصح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد فى سبيل الله، والجهاد فى سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضا بقدر الله ﷻ كلها عبادة، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التى خلق الله الجن والإنس لها، وكلها خضوع للناموس العام الذى يتمثل فى عبودية كل شئ لله دون سواه"[١].

والحق سبحانه وتعالى بعث أنبياءه ورسله ليأمروا الناس بأن يعبدوه ويوحدوه، وهذه كانت هى وظيفة الأنبياء والرسل من لدن آدم إلى سيدنا محمد ﷺ خاتم النبيين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [٢].

يقول الطبرى فى تفسير الآية الكريمة: "يقول تعالى ذكره: ولقد بعثنا أيها الناس فى كل أمة سلفت قبلكم رسولاً كما بعثنا فيكم، بأن أعبدوا الله وحده لاشريك له، وأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادة، ﴿وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ يقول وابعدوا عن الشيطان، وإحذروا أن يغويكم ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ﴾ يقول: فمن بعثنا فيهم رسلنا من هدى الله فوفقه لتصديق رسله، والقبول منها والإيمان بالله والعمل بطاعته ففاز وأفلح ونجا من عذاب الله، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾ يقول: وممن بعثنا رسلنا إليهم من الأمم آخرون حقت عليه الضلالة، فجاروا عن قصد السبيل فكفروا بالله وكذبوا رسله واتبعوا الطاغوت، فأهلكهم الله بعقابه، وأنزل عليهم بأسه الذى لايرد عن القوم المجرمين"[٣].

ويقول **ابن كثير** فى تفسير الآية الكريمة أيضاً: "فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ، فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهى تمكينهم من ذلك قدراً فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لايرضى لعباده الكفر، وله فى ذلك حجة بالغة، وحكمة قاطعة، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا بعد إنذار الرسل فلهذا قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أى اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل، وكذب

---

[١] تفسير الظلال ٣٣٨٧/٦.
[٢] سورة النحل الآية ٣٦.
[٣] تفسير الطبرى ١٣٨/١٤.

الحق كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١)،(٢).

ويقول المولى ﷻ فيما أوحاه إلى الرسل بأن يأمروا قومهم بأن يعبدوه سبحانه أيضاً ولايشركوا به شيئاً قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٣).

يقول الطبرى "يقول تعالى ذكره: وما أرسلنا يامحمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم إلا نوحى إليه أنه لامعبود فى السموات والأرض تصلح العبادة له سواى، ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ يقول: فأخلصوا لى العبادة، وأفردوا لى الألوهية" (٤).

هذا ولقد أمر المولى ﷻ أن يسير النبى ﷺ على نهج من سبقه من الأمر بعبادة الله ﷻ حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ (٥).

أى فاعبد الله وحده لاشريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصح العبادة إلاَّ له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (٦)، أى لايقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العمل لله وحده لاشريك له"(٧).

فالعبادة هى غاية التذلل والخضوع لله رب العالمين قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٨).

يقول **الإمام الرازى** "المراد أنه ما من معبود لهم فى السموات والأرض من الملائكة والناس إلاَّ وهو يأتى الرحمن أى يأوى إليه، ويلتجئ إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً راجياً كما يفعل العبيد"(٩).

ويقول **القرطبى** فى تفسيره للآية: "أى ما كل من فى السموات والأرض إلاَّ وهو يأتى يوم القيامة مقراً له بالعبودية خاضعاً ذليلاً كما قال ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ (١٠)، أى صاغرين

---

(١) سورة الملك الآية ١٨.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/٢٧٥.
(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٥.
(٤) تفسير الطبرى ١٧/٢١.
(٥) سورة الزمر الآية ٢.
(٦) سورة الزمر الآية ٣.
(٧) تفسير ابن كثير ٧/٥٣.
(٨) سورة مريم الآية ٩٣.
(٩) تفسير الرازى ٧/٥٦٧.
(١٠) سورة النمل الآية ٨٧.

أذلاء أى والخلق كلهم عبيده فكيف يكون واحد منهم ولداً له ﷻ؟ تعالى عما يقول "الظالمون والجاحدون علواً كبيراً"[١] ويقول **الطبرى**، فى تفسير الآية أيضاً: "ما جميع من فى السموات من الملائكة وفى الأرض من البشر والإنس والجن إلاَّ آتى الرحمن عبداً، يقول إلا يأتى ربه يوم القيامة عبداً له ذليلاً خاضعاً مقراً له بالعبودية"[٢].

فالعبادة لاتكون إلاَّ له سبحانه وتعالى، فهو المعين لمن يستعين به قال ﷻ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٣].

يقول **ابن كثير** فى تفسير الآية الكريمة: "روى الضحاك عن ابن عباس، رضى الله عنهم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعنى إياك نوحد ونخاف ونرجوك ياربنا لاغيرك، ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها، وقال قتادة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أموركم، وإنما قدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة له هى المقصودة، والإستعانة وسيلة إليها والإهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم والله أعلم"[٤].

وجاء فى تفسير **الجلالين** عند تفسير الآية الكريمة: "أى نخصك بالعبادة من توحيد وغيره، ونطلب المعونة على العبادة وغيرها"[٥].

ويقول الصابونى "أى نخصك ياالله بالعبادة، ونخصك بطلب الإعانة، فلانعبد أحداً سواك، لك وحدك نذل ونخضع ونستكين ونخشع، وإياك ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك، فإنك المستحق لكل إجلال وتعظيم، ولايملك القدرة على عوننا أحد سواك"[٦].

ويؤيد ذلك على ما ورد فى السنة فعن معاذ بن جبل ﷺ قال: بينا أنا رديف النبى ﷺ ليس بينى وبينه إلاَّ آخرة الرحل فقال: (يامعاذ بن جبل قلت لبيك رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال يامعاذ قلت لبيك رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال يامعاذ قلت لبيك رسول الله وسعديك قال هل تدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حق الله على عباده أن يعبدوه ولايشركون به شيئاً ثم سار ساعة ثم قال يامعاذ بن جبل قلت لبيك رسول الله وسعديك

---

[١] تفسير القرطبى ١١/٨٠.
[٢] تفسير الطبرى ١٦/١٦٥.
[٣] سورة الفاتحة الآية ٥.
[٤] تفسير ابن كثير ١/٦٢.
[٥] تفسير الجلالين ١/١٢ للإمام محمد بن أحمد، وعبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى، ط الحلبى بمصر الطبعة الأولى- بدون.
[٦] تفسير صفوة التفاسير للصابونى ١/١١.

فقال هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوه قلت الله ورسوله أعلم قال حق العباد على الله أن لايعذبهم"[١].

هذا وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم وتدبرنا آياته نجد أن الله ﷻ ذكر فى كثير من آياته أن العبادة حق له سبحانه، والإنسان مسئول عنها، بل وأخذ العهد على الناس جميعاً، بل وعلى النطف وهى فى أصلاب الآباء أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً وشهدوا على ذلك قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [٢].

وبعد: فإن القرآن الكريم يدعونا إلى إخلاص العبادة لرب العالمين، لأنه لامعبود بحق سواه، ولا معين لنا غيره فيقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [٣]، ويأمرنا بأن نظل على هذه العبودية من المبدأ إلى المآل فيقول فى سورة الحجر: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [٤]، ويجعل غاية أهل العبادة أشرف غاية ونهايتهم أسعد نهاية، فيقول فى سورة الفجر:﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[٥].

أهمية العبادات:

العبادات فى الإسلام فوق أنها طاعة من المخلوق للخالق، وفوق أنها تربط العبد بربه، وتصل بينه وبين السماء، هى تربية عملية للضمير والوجدان، وتحكم الصلة بينه وبين الله تعالى، فتجعل من عبوديته عبودية خالصة لله بكل ما فى العبودية الخالصة من معانى التسليم والإيمان والخشوع والمراقبة وتحكم الصلة بينه وبين الحياة، وتجعل منه فى عبوديته الخاشعة لله سيداً للحياة.

والعبادات فى الإسلام تتميز على سائر العبادات التى عرفتها البشرية فى الديانات السماوية وغير السماوية بأنها قليلة العدد، ميسورة الأداء بالغة الأثر، وتتميز عليها بما لها من نفع دنيوى عام فى حياة الإنسان فرداً، وفى حياة الإنسان مجتمعاً تموج به الحياة.

---

[١] رواه البخارى، كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف ضاف الرجل ٤، ٧٧، ومعاذ هو: معاذ بن جبل الأنصارى الخزرجى أعلم الناس بالحلال والحرام شهد بدراً وهو ابن إحدى وعشرين سنة توفى بالطاعون فى الشام سنة ١٧هـ وعمره أربع وثلاثون سنة (الإصابة ١٠٦/٦).

[٢] سورة الأعراف الآية ١٧٢.

[٣] سورة الفاتحة الآية ٥.

[٤] سورة الحجر الآية ٩٩.

[٥] سورة الفجر الآيات ٢٧-٣٠.

والعبادات فى الإسلام أربع لاتزيد، لكل منها اتجاهها الخاص فى تأكيد العبودية لله، ولكل منها اتجاهها الخاص فى آثارها الدنيوية التى تخدم الحياة وتتسع فيها بجوانب النفع العام.

ذلك أن العبادات فى الإسلام لم تجئ صدفة ولا إتفاقاً، ولاهى فرضت عبثاً لمجرد أن تكون عبادات ولكنها إنما فرضت عن إرادة إلهية لنفع الناس وخير الإنسانية.

الصلاة.. والصوم.. والزكاة.. والحج.. هذه هى العبادات الأربع فى الإسلام وهى كذلك هى أركانه الأربعة التى تقوم على قاعدته الأولى التى هى الإيمان بوحدانية الله، وأن سيدنا محمداً رسول الله والمظهر اللسانى لهذا الإيمان مستقراً فى القلب وهو الشهادتان: أشهد أن لاإله إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله... والصلاة عبادة روحية قائم بها البدن والجوارح، والصوم عبادة جسمانية قائمة بها الروح والوجدان، والزكاة عبادة مالية قائمة بها النفس وضمير الإنسان، والحج عبادة جمعت كل هذه الصفات الثلاث فهو عبادة روحية جسمانية ومالية معاً تشترك فى القيام بها الجوارح والروح والنفس جميعاً، كل من هذه العبادات روحية وجسمانية ومالية تتصل بصاحبها اتصالاً بالنفس، واتصالاً بالبدن، واتصالاً بالمال.

هذا الإتصال من جوانبه الثلاثة هو الخصيصة التى جعلت للعبادات فى الإسلام صبغتها الدنيوية التى يترتب عليها النفع الدنيوى العام، كما أريد من بعض حكمتها وأغراضها ومقاصدها.

وينبغى أن يكون معلوماً أن هناك أصولاً عامة لابد من توافرها فى كل عبادة سواء أكانت قلبية أو بدنية أو مالية، مطلوب من كل عبادة أن تقوم على الإخلاص ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ (١)، ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٢)، ومطلوب فى كل عبادة أيضاً الصبر عليها ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ (٣)، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (٤)،﴿الَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ۞ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ۞ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٥).

---

(١) سورة الزمر الآية ٢.
(٢) سورة غافر الآية ٦٥.
(٣) سورة مريم الآية ٦٥.
(٤) سورة طه الآية ١٣٢.
(٥) سورة الرعد الآيات ٢٢-٢٤.

ومطلوب فى كل عبادة كذلك المداومة عليها يقول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (١)،﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (٢).

ومن المطلوب أيضاً أن تقوم العبادة على حب الله تعالى، وعلى الطمع فى رحمته والخوف من عقابه، وهو سبحانه وتعالى يجعل الطمع والخوف من صميم العبادة ويأمر بهما كثيراً يقول سبحانه: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (٣)،﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤).

وإن الانبياء أنفسهم لايأمنون على أنفسهم عذاب الله تعالى، ولذلك يدعونه جل وعلا خوفاً وطمعاً، وفى القرآن الكريم على لسان إبراهيم ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٥)، وعلى لسان يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٦)، وعلى لسان نوح ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٧)، وعلى لسان محمد ﴿رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨).

هذا وينبغى أن يعلم: "أن العبادة تختلف حسب استعداد الإنسان وحالته فمن الناس من يتعلم أصول العبادة وكيفيتها (علم الفقه) فتكون عبادة أصولية مقبولة، ومنهم من يعبد ربه تقليداً وقلة دراية، فهى عبادة شكلية قد لاتقبل لما فيها من أخطاء ولايعذر بالجهل.

وأما فى حالة الإنسان فى العبادة فهى هامة جداً، فمن الناس من يعبد الله كوظيفة ثقيلة متثاقلاً، ويؤديها مسرعاً بها، وإذا كانت العبادة مالية أنفقها كارهاً متردداً فى أدائها، وهى عبادة من شغلته الدنيا وملكت قلبه فلا يجد مجالاً لسواها.

ومن الناس من يعبد الله طمعاً فى دنيا يصيبها أو ثواباً يدخره عند ربه ليوم القيامة، وهى عبادة التجار والله يقبلها كرماً منه وفضلاً.

---

(١) سورة الحجر الآية ٩٩.
(٢) سورة المعارج الآيات ١٩- ٢٣.
(٣) سورة السجدة الآية ١٦.
(٤) سورة الأعراف الآية ٥٦.
(٥) سورة الشعراء الآية ٨٢.
(٦) سورة يوسف الآية ١٠١.
(٧) سورة هود الآية ٢٧.
(٨) سورة المؤمنون الآية ١١٨.

ومن الناس من يعبده خوفاً من غضبه وعقابه أو من ناره وبلائه وهى عبادة العبيد، والله يقبلها ويثيب عليها.

ومن الناس من عرف الله حق المعرفة فأحبه وملأت محبته قلبه وجوارحه فعبد الله حباً فيه، وتقرباً إليه، وإرضاءً له، وهى عبادة النبيين والصديقين والعارفين والعلماء المخلصين، همهم إرضاؤه سبحانه لذا ينتظرون وقت الصلاة لترى أرواحهم ربهم، يكلمونه الكلام الجميل، وينفقون فى سبيله ما استطاعوا ويجاهدون فى سبيله بكل شجاعة وبأس، ويضحون فى سبيله بالغالى والنفيس.

هؤلاء سعدوا فى عبادتهم، لايرون سروراً إلاَّ بها، وأصبحت العبادة هواية لهم فَشُغِلُوا بربهم عن دنياهم وآخرتهم لايريدون سواه"[١].

ويأتى من بعد ذلك هذا السؤال: ما الهدف من وراء عبادة الله وحدة؟

ولسوف يأتى الجواب: إن الهدف الأسمى أن يظل الإنسان كريماً على نفسه، لايخضع ولايذل لغير خالقه، الذى كرمه فأحسن تكريمه.

فإذا نظرنا إلى "الصلاة" نجد أنها ليست حركات بقدر ما هى إتجاه إلى الله ولقاء معه تعظم فيه النفس شأن مولاها، وتستهين بسبب ذلك بالمغريات الأخرى التى تحيط بها والتى تنحدر بصاحبها من المستوى البشرى إلى مستوى آخر أدنى...

ثم ننظر إلى "الصوم" إنه يهدف هو الآخر- فيما يهدف إليه- إلى تكوين طاقة نفسية قادرة على التحكم فيما يجب أن يفعله الإنسان، وفيما يجب أن يتركه، وبهذا يحتفظ بكرامته الإنسانية أمام المغريات الهالكة.

"والزكاة" أيضاً تخلص صاحبها من سيطرة المال الذى قد يغرى صاحبه فيجذبه نحو الإنحراف والتفريط فى كرامته الإنسانية وهو – بهذه الزكاة- يكون قادراً على حماية نفسه من فتنة المال وهنا يسهل عليه أن يكون إنسانياً أو بمعنى آخر يكون ربانياً يسير فى طريق الله وفى ظل هدايته، وصدق الله ربنا إذ يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾[٢].

ثم هناك الحج الذى يجعل الإنسان يشعر بنفسه وبغيره على حد سواء، لاسيد ولامسود، وإنما أخوة فى التوجه إلى الله رب العالمين "لبيك اللهم لبيك، ونظراً إلى أن المقصود من هذه

---

[١] من كنوز الإسلام للدكتور/ محمد فائز المط، صـ ٩٠، ٩١ بتصرف وإختصار الدار المتحدة- الطبعة العاشرة- ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

[٢] سورة المؤمنون الآيات ١-٤.

العبادات الأربع (الصلاة، والصوم، الزكاة، والحج)مضمومة إلى الإقرار بوحدانية الله ورسالة محمد ﷺ هو تطهير القلب، وتزكية النفس، وقوة مراقبة الله تعالى التى تبعث على امتثال أوامره، والمحافظة على شرائعه فى جميع نواحيها كانت هى العمد التى يبنى عليها الإسلام، وفى ذلك يقول النبىﷺ: (بنى الإسلام على خمس شهادة أن لاإله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن إستطاع إليه سبيلاً) [١].

يقول الدكتور/ **محمد السعدى فرهود** "وسعائر الإسلام الأربع (الصلاة والزكاة، والحج وصيام رمضان) بنى عليها إسلامنا بعد الشهادتين – كنص الحديث- وكل شعيرة منها تمثل حركة المسلم الإيجابية لطاعة الله وعبادته، والإنصياع لأمره، والتوجه بها إليه، والقربى منه، وهى لاتختلف إلا فى صورها وأشكالها ووعائها الزمانى والمكانى والإجتماعى، وماذاك إلا لأمر مقدور، ولحكمة يعلمها الشارع الحكيم، ولكنا نجِّد ونجتهد فى استبيان حكمتها بحكم ما هو مركب فينا من الرغبة العارمة فى تبين الحكمة، والبحث عن السبب والهدف والغرض من أن إيماناً كإيمان العجائز كفيل بسعادة الدارين، فكل أمْر أَمَر الله به ما علينا إلا أن نطيع الله فيه، ونهتدى فيه بهدى رسولنا ﷺ"[٢].

ومن ثم يتضح لنا أن العبادة فى الإسلام، كما أظهرها التطبيق السليم لشرائعه وأحكامه وآدابه فى عصر النبوة ليست بالعلاقة الفردية الخاصة بين المؤمن وبين الله سبحانه وتعالى، وإنما هى عقد بين الإنسان وبين الله له مقوماته الإجتماعية لبناء وتحرير وتطهير المجتمع.

واقع العبادة فى حياة المسلمين:

بعد أن عرفنا حقيقة العبادة فى الإسلام، آن لنا أن نتعرف على واقعها فى حياة الناس، وليس يخفى أن المسلمين قد ابتعدوا فى واقعهم عن حقيقة العبادة، تبعاً لابتعادهم الكبير عن دينهم وانحسر مفهوم العبادة عن معناها العام الشامل، وإقتصر على أعمال تتعلق بصلة العبد بخالقه، أما ما كان غير ذلك فاعتبروه من الأعمال النبوية، والتصرفات الشخصية التى لايرجع فيها إلى الدين، "والواقع أنه لو كانت حقيقة العباد هى مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات، وما استحفت كل هذه الجهود المضنية التى بذلها الرسل- صلوات الله وسلامه عليهم- وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التى تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان! إنما الذى استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدنيوية

---

[١] رواه البخارى كتاب الإيمان باب دعاؤكم إيمانكم ١/٤٣.

[٢] مجلة منبر الإسلام، السنة ٥٧، العدد ٤، ربيع الآخر ١٤١٩هـ، أغسطس ١٩٩٨م، والمقال للدكتور/ محمد السعدى فرهود تحت عنوان: حديث أركان الإسلام.

للعباد، وردهم إلى الدنيوية لله وحده فى كل أمر وفى كل شأن، وفى منهج حياتهم كلـه للـدنيا، والآخرة سواء"[١].

"ومن ثم فإن حصر معانى كلمة العبادة فى معنى بعينه فى الحقيقة حصر لدعوة القـرآن فى معان ضيقة، ومن نتائجه المحتومة أن من آمن بدين الله، وهو يتصور دعوة القـرآن هـذا التصور الضيق المحدود فإنه لن يتبع تعاليمه إلا اتباعاً ناقصاً محدود"[٢].

"وحين غفل الناس عن مقتضيات العبادة من التوجه المخلص لله، والخشوع فى حضرته سبحانه، وحين انقطعت العبادة عن لوازمها المتعلقة بها، ونتائجها التى ينبغى أن تترتـب عليـه حين انحسرت مساحتها فى نفوس الذين يؤدونها، حين صار المطلوب كله هو آداء الشعيرة بأى صورة كانت... ولو كان آداء آلياً بغير روح، أو آداء تقليدياً بحركة الحرص على التقليد أكثـر مما يحركه الدافع إلى عبادة الله. هذه هى الصورة التى إنتهت إليها العبادة فى الجيل الذى شـهد الإنهيار"[٣]. فعلى الدعاة والمربين أن يوضحوا حقيقة العبادة بمفهومها الشامل، كما كانت أيـام السلف الصالح- رضوان الله عليهم- ويربوا الناس عليه حتى يتفهموا تلك الحقائق العظيمة فتنشأ عليها الأجيال.

---

[١] تفسير الظلال ١٩٠٣/٤.
[٢] المصطلحات الأربعة صـ ٧٧، تأليف: أو الأعلى المودودى- دار التراث العربى.
[٣] مفاهيم ينبغى أن تصحح صـ ٢٤٢، تأليف: محمد قطب ط الأولى- القاهرة- دار الشروق.

obeikandl.com

المبحث الثانى

الصلاة وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم

obeikandl.com

الصلاة وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم

مُقَدِّمَة

من الملاحظ أن جميع عبادات الإسلام، تهدف فى النهاية إلى تهذيب النفس الإنسانية، والوصول بالإنسان إلى أعلى مراتب الكمال الأخلاقى الذى دعا إليه الإسلام.

يقول الشيخ **محمد رشيد رضا** "للعبادة صور كثيرة فى كل دين من الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهى الأعلى الذى هو روح العبادة وسرها، ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها، وتهذيب نفسه، والأثر إنما يكون عند ذلك الروح والشعور الذى هو منشأ التعظيم والخضوع، فإذا وجدت صور العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنساناً.

نأخذ مثلاً: عبادة الصلاة، كيف أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها، وإقامة الشئ هى الإتيان به مقوماً كاملاً يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره وآثار الصلاة ونتائجها هى ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[١]. وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾[٢].

وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدى إلى غايتها بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[٣]، فسماهم مصلين لأنه أتوا بصورة الصلاة، ووصفهم بالسهو من الصلاة الحقيقة التى هى توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته، والمشعر للقلوب بعظم سلطانه، ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون"[٤].

تعريف الصلاة:

جاء فى مختار الصحاح: الصَّلاة الدعاء، والصلاة من الله تعالى الرحمة، والصلاة واحدة الصلوات المفروضة، وقوله تعالى ﴿وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ﴾[٥]، قال ابن عباس رضي الله عنه: هى كنائس اليهود أى مواضع الصلوات"[٦].

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥.
(٢) سورة المعارج الآيات ١٩-٢٢.
(٣) سورة الماعون الآيات ٤-٧.
(٤) تفسير المنار ١/٥٧.
(٥) سورة الحج الآية ٤٠.
(٦) مختار الصحاح مادة صلا صـ ٣٦٨.

وفى **المعجم الوسيط:** "صلى فلان: دعا، ويقال صلى عليه: دعاله بالخير، وفى التنزيل العزيز ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (١)، وصلى الله على رسوله، حفة ببركته، والصلاة: العبادة المخصوصة المبينة حدود أوقاتها فى الشريعة"(٢).

وفى **مفردات غريب القرآن** "الصلاة التى هى العبادة المخصوصة، أصلها: الدعاء، وسميت هذه العبادة بها كتسمية الشئ باسم بعض ما يتضمنه، والصلاة من العبادات التى لم تنفك شريعة منها، وإن اختلفت صورها بحسب شرع فشرع ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (٣)، (٤).

ويقول **الشيخ/ أحمد كامل الخضرى** "الصلاة فى اللغة: الدعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥)، والمعنى: خذ يامحمد من أموال الأغنياء القدر الواجب عليهم فى الزكاة، لتطهرهم وتزكى نفوسهم وأموالهم بذلك، وادع لهم بالرحمة لأن دعائك راحة لهم، وطمأنينة لنفوسهم، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦).

والصلاة من الله تعالى الرحمة، ومن الملائكة الإستغفار، ومن المؤمنين الدعاء وقد جمعت هذه الآية الكريمة المعانى الثلاثة"(٧).

ويقول **الجرجانى** "الصلاة فى اللغة: الدعاء، وفى الشريعة: عبارة عن أركان مخصوصة وأذكار معلومة بشرائط محصورة فى أوقات مقدرة، والصلاة أيضاً طلب التعظيم لجانب الرسول ﷺ فى الدنيا والآخرة"(٨).

ويقول **الجزائرى** "الصلاة فى إصطلاح الفقهاء هى: أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة"(٩).

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٣.
(٢) المعجم الوسيط مادة صلا صـ ٥٤١.
(٣) سورة النساء الآية ١٠٣.
(٤) مفردات غريب القرآن مادة صلا صـ ٢٨٧، ٢٨٨.
(٥) سورة التوبة الآية ١٠٣.
(٦) سورة الأحزاب الآية ٥٦.
(٧) مجلة منبر الإسلام، العدد الخامس، السنة ٢٨، جمادى الأولى ١٣٩٠هـ، يوليو ١٩٧٠م تحت عنوان لقمان الحكيم وابنه فى كتاب الله تعالى بقلم فضيلة الشيخ/ أحمد كامل الخضرى صـ ٤٠.
(٨) التعريفات للجرجانى صـ ١٣٤.
(٩) الفقه على المذاهب الأربعة ١/١٧٥.

ونخلص مما سبق: "أن الصلاة بمعنى الصلة بين العبد وربه، إنما يراد بها الصلاة القائمة ذات الخشوع والخضوع، والتى تكون على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ.

والمقصود منها: تهذيب الجوارح وتطويعها لأمر الله ورسوله حتى تكون خارج الصلاة كما كانت داخل الصلاة"[١].

هذا وقد ورد ذكرها فى كتاب الله تعالى مقترناً بالزكاة فى آيات كثيرة، وفى أساليب متنوعة:

فقد جاءت بأسلوب الماضى كما فى قوله ﷻ شأنه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ [٢].

وجاءت بأسلوب الحال والإستقبال كما فى قوله جل شأنه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [٣].

وجاءت بأسلوب الأمر كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٤].

وجاءت بأسلوب الصفة، كما فى قوله جل شأنه ﴿لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٥].

وجاءت بأسلوب المصدر كما فى قوله جل شأنه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ﴾ [٦]،[٧].

---

(١) المجلة العلمية لكلية اصول الدين والدعوة بالزقازيق، تحت عنوان: جوانب الأخلاق فى الشريعة الإسلامية، للدكتور/ سيد عبد العزيز السيلى صـ ٩٤٨، العدد العاشر مركز آيات للكمبيوتر.

(٢) سورة التوبة الآية ١٨.

(٣) سورة التوبة الآية ٧١.

(٤) سورة النور الآية ٥٦.

(٥) سورة النساء الآية ١٦٢.

(٦) سورة النور الآية ٣٧.

(٧) ورثة الفردوس ١/٤٣، للشيخ/ عبد الحميد كشك، دار الإعتصام، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

الحكمة من مشروعيتها:

يقول الشيخ/ عبد العزيز المحمد السلمانى "الحكمة فى فرض الصلاة وتخصيصها بالخمس، أحدها أن الأنفس البشرية مقتضية للشهوة والغفلة والسهو والنسيان، فاقتضت الحكمة أن تذكر نسيانها وتوقظ غفلتها وتقمع شهوتها بقطعها عن عاداتها ومناجاتها الذى كفلها بنعمه وغذاها بجوده وكرمه ولعلمه بضعف قواها لم يجعل هذه العبادة إلا فى أوقات يكثر الفراغ فيها من أشغال العادات، وهذا هو الحكمة فى تنقيصها من الخمسين إلى الخمس.

والوجه الثانى: أن العبد فى هذه الدار يعمل لنجاته فى الدار الأخرى وهى مشتملة على أهوال ومشاق ومتاعب وأمام العبد دونها خمس عقبات، الأولى: الدنيا وشرورها وآفاتها وشواغلها، الثانية: الموت وشدة سكراته وما يشاهد عنده من الأمور العظام والآلام الجسام، الثالثة: القبر وضيقته ووحشته وسؤال منكر ونكير وذلك صعب خطير، الرابعة: المحشر وهوله وما فيه من الخوف والفزع الأكبر، الخامسة: الحساب وما يخش فيه بعد العتاب من وقوع العقاب، فكان فعل الصلوات الخمس مسهلاً لهذه العقبات محصلاً لنيل المسرات فى دار الكرامات"[١].

مكانة الصلاة فى الإسلام:

إن الصلاة أقدم عبادة عرفت مع الإيمان ولم تخل منها شريعة من الشرائع فهى عبادة النبيين والمرسلين السابقين قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[٢].

يقول الفخر الرازى فى تفسيره للآية الكريمة: "الصلاة أشرف العبادات البدنية وشرعت لذكر الله تعالى، والزكاة أشرف العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله، واعلم أنه سبحانه وصفهم أولاً بالصلاة لأنه أول مراتب السائرين إلى الله تعالى ثم ترقى فوصفهم بالإمامة، ثم ترقى فوصفهم بالنبوة والوحى وإذا كان الصلاح الذى هو العصمة أول مراتب النبوة دل ذلك على أن الأنبياء معصومون فإن المحروم عن أول المراتب أولى بأن يكون محروماً عن النهاية، ثم إنه سبحانه كما بين أصناف نعمه عليهم، بين بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ كأنه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية فى الإحسان والإنعام فهم أيضاً وفوا بعهد العبودية وهو الإشتغال بالطاعة والعبادة"[٣].

---

[١] موارد الظمآن لدروس الزمان ١٩٩/١.
[٢] سورة الأنبياء الآية ٧٣.
[٣] تفسير الرازى ١٩٢/١١.

ويقول الشيخ الصابونى فى تفسير الآية: "أى جعلناهم قدوة ورؤساء لغيرهم يرشدون الناس إلى الدين بأمر الله، وأوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات ليجمعوا بين العلم والعمل، وأمرناهم بطريق الوحى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإنما خصهما بالذكر لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية، والزكاة أفضل العبادات المالية ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أى موحدين مخلصين فى العبادة"(١).

وسيدنا إبراهيم عليه السلام يبتهل إلى الله تعالى فى ضراعة أن يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته فيقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (٢).

يقول ابن كثير فى تفسير الآية: "قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ﴾ أى محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أى واجعلهم كذلك مقيمين لها، ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أى فيما سألتك فيه"(٣).

ويقول الشوكانى "سأل الله سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة محافظاً عليها غير مهمل لشئ منها ثم قال ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أى بعض ذريتى: أى اجعلنى واجعل بعض ذريتى مقيمين للصلاة، وإنما خص البعض من ذريته، لأنه علم أن منهم من لايقيمها كما ينبغى قال الزجاج: أى اجعل من ذريتى من يقيم الصلاة، ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه، على العموم، ويدخل فى ذلك دعاؤه فى هذا المقام دخولاً أولياً"(٤).

ويقول صاحب الظلال: "هذا إبراهيم يجعل عون الله له على إقامة الصلاة رجاء يرجوه، ويدعو الله ليوفقه إليه، وهم ينأون عنها ويعرضون، ويكذبون الرسول الذى يذكرهم بما كان إبراهيم يدعو الله أن يعينه عليه هو وبنيه من بعده"(٥). ويقول الله تعالى أيضاً على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٦).

---

(١) تفسير صفوة التفاسير ١٨/٩.
(٢) سورة إبراهيم الآية ٤٠.
(٣) تفسير ابن كثير ٣٠٢/٢.
(٤) تفسير فتح القدير ١١٣/٣.
(٥) تفسير الظلال ٢١١٠/٤.
(٦) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

يقول الألوسى فى تفسير الآية الكريمة: "أى التى يصل العبد بها إليك ويكون مرآتاً تجليك"[١]، **ويقول أبو حيان** "لايخلو هذا البيت المعظم من العبادة، وخاصة الصلاة دون سائر العبادة، لأنها أفضلها، وأنها سبب لكل خير"[٢].

وقد عهد الله إليه وإلى ولده إسماعيل: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [٣].

يقول الشيخ/ عبد الكريم الخطيب فى تفسير الآية: "وإذ جعل الله البيت الحرام مثابة للناس وأمناً، وإذ جعله الله مقاماً لإبراهيم ومصلى للمؤمنين، والمصلى اسم مكان أى مكان الصلاة.... وإذ عهدنا لإبراهيم وإسماعيل بالقيام على هذا البيت وتطهيره من أن يسلم به رجس إذ ذاك توجه إبراهيم إلى ربه، ودعاه أن يبارك البيت وما حوله"[٤].

ويثنى الله ﷻ على نبيه إسماعيل عليه السلام بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾[٥].

أى كان يحث أهله على طاعة الله، وبخاصة الصلاة التى هى عماد الدين، والزكاة التى بها تتحقق سعادة المجتمع، يقول الشيخ/ **الشعراوى** "وإن كان إسماعيل عليه السلام يأمر أهله بالصلاة والزكاة فهو حريص عليهما من باب أولى" [٦].

وتنادى الملائكة مريم أم عيسى عليها السلام بالصلاة قائلة: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [٧].

يقول الشيخ/ عبد الكريم الخطيب فى تفسير الآية "فالقنوت عبادة صامتة مكانها القلب، والسجود، والركوع عبادة ظاهرة مظهرها الجوارح، وبالقنوت والسجود والركوع، يصبح باطن الإنسان، وظاهره جميعاً مشتملاً على عبادة الله، ومتجهاً إليه قائم على الولاء له، وهذا أكمل العبادة، وأتمها وكل ذلك لاينتج إلاَّ عن الصلاة"[٨].

---

(١) تفسير الألوسى ٢٥٩/١٣.

(٢) تفسير البحر المحيط ٤٣٢/٥، ط دار إحياء التراث العربى- بيروت- لبنان الطبعة الثانية ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٥.

(٤) التفسير القرآنى للقرآن ١٤١/١ للأستاذ/ عبد الكريم الخطيب، ط دار الفكر العربى- بدون، وتفسير الجمل ١٠٤/١، ط دار المنار- بالقاهرة- بدون.

(٥) سورة مريم الآية ٥٥.

(٦) تفسير الشيخ/ الشعراوى صـ ٩١٢٦ الطبعة الأولى- بدون.

(٧) سورة آل عمران الآية ٤٣.

(٨) التفسير القرآنى للقرآن ٤٤٦/١ بتصرف.

وعيسى عليه السلام يُحدِّث بنعمة الله تعالى عليه فيقول: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (١).

يقول الشيخ/ الصابونى فى تفسير الآية الكريمة "أى جعل فىَّ البركة والخير والنفع للعباد حيثما كنت، وأينما حللت، وأوصانى بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتى" (٢).

ولقمان يعظ ابنه بالإيمان والإحسان إلى الوالدين، وبمراقبة الله فى السر والعلن، ثم يوصيه بالصلاة فيقول: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٣).

يقول الفخر الرازى "لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزم من التوحيد وهو الصلاة وهى العبادة لوجه الله مخلصاً وبهذا يعلم أن الصلاة كانت فى سائر الملل غير أن هيئتها إختلفت"(٤).

ويقول المراغى فى تفسير الآية الكريمة "أى أدَّ الصلاة كاملة على النحو المرضى، لما فيها من رضى الرب بالإقبال عليه والإخبات له، ولما فيها من النهى عن الفحشاء والمنكر، وإذا تم ذلك صفت النفس، وأنابت إلى بارئها وأمر غيرك بتهذيب نفسه قدر استطاعته، وأنهِ الناسَ عن معاص الله ومحارمه، واصبر على ما أصابك من أذى الناس فى ذات الله، وقد بدأ بالوصية بالصلاة وختمها بالصبر، لأنه عماد الإستعانة إلى رضوان الله، ولذلك أوصاه به، وكان من الأمور التى جعلها الله محتومة على عباده لامحيص منها، لما لها من جزيل الفوائد وعظيم المنافع فى الدنيا والآخرة"(٥).

"ولأن الصلاة هى أول دليل عملى دائم من دلائل الطاعة، لذا فهى الدليل العملى أيضاً على صدق الإيمان ومحل إختبار معدنه وقوته، فإذا ما أقر المرء بإسلامه، ثم سمع المؤذن يؤذن للصلاة بعد ذلك، ولو ببرهة وجيزة، عليه أن يسعى ويلبى النداء وينضم إلى جماعة المصلين لتأديتها لأن ذلك ينبئ بصدقه أو كذبه فى إقراره أما ترك الصلاة فهو فى الحقيقة ترك للطاعة، وهجران للخضوع والتسليم"(٦).

---

(١) سورة مريم الآية ٣١.
(٢) تفسير صفوة التفاسير ٢/٢١٥.
(٣) سورة لقمان الآية ١٧.
(٤) تفسير الرازى ١٣/١٤٩.
(٥) تفسير المراغى ١٩/٨٤.
(٦) تفهيم القرآن ١/٤٨، ٤٩ تأليف: أبو الأعلى المودودى، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م دار القلم- الكويت.

ولعظم مكانة الصلاة وجليل قدرها، أنها امتازت على غيرها من العبادات ببعض المزايا منها:

(١) خصها الله تعالى بتشريف خاص، ففرضها فى السماء ليلة الإسراء والمعراج، تلقاها الرسول ﷺ عن الذات الإلهية تلقياً مباشراً من غير طريق الوحى الذى تلقى عنه سائر العبادات والتشريعات.

(٢) أنها أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة.

(٣) أنها قوام الدين وعموده فمن أقامها أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.

(٤) أنها أول ما فرض من أركان الإسلام.

(٥) أن الله أوجبها خمس مرات فى اليوم والليلة بخلاف غيرها من العبادات.

(٦) أنها العبادة الوحيدة التى لاتسقط عن المسلم المكلف أبداً مادام عقله ثابت.

(٧) أنها أكثر الفرائض ذكراً فى القرآن الكريم.

(٨) أن الفوز بالجنة متوقف على أدائها، إذ أن قبول سائر العبادات متوقف على فعلها وأدائها.

(٩) أنها كانت آخر وصية لرسول الله ﷺ قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى.

وبالجملة: فأمر الصلاة عظيم، وشأنها كبير فقبول سائر العبادات متوقف على فعلها، فلا يقبل الله من تاركها صوماً ولاحجاً، ولاجهاداً ولاصدقة ولاشئ من الأعمال، فيجب على المسلمين جميعاً الاعتناء بها، والمحافظة عليها فى أوقاتها مع الجماعة فى المساجد ليفوزوا بعظيم الأجر والثواب المترتب عليها، وليسلموا من الإثم والعقاب المعد لمن ضيعها قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [١]،[٢].

وهكذا نجد مكانة الصلاة عند الله تعالى وفى دينه عنصراً تالياً لعنصر الإيمان، فى جميع الرسالات وعلى ألسنة جميع الرسل وقد جاء الإسلام فنسج على منوال الرسالات المتقدمة، وجعلها ركناً من أركان الدين، وأفاض فى ذكر فوائدها ما أفاض، وأمر بالمحافظة عليها، وبالقيام فيها لله، مع القنوت والخشوع، وكمال التوجه إليه، والتفرغ له وصدق الله حيث يقول: ﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ﴾ [٣].

---

[١] سورة التوبة الآية ١٨.

[٢] بهجة الناظرين فيما يصلح الدنيا بالدين صـ ١٠٧، لعبد الله بن جار الله بن إبراهيم آل جار الله، ط دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

[٣] سورة البقرة الآية ٢٣٨.

أثر الصلاة على الفرد والمجتمع المسلم:

ولجليل قدرها وعظيم أثرها شاء الله تعالى أن تكون بمثابة الماء الجارى على باب الإنسان يغتسل منه كل يوم خمس مرات فكما أن هذا الإغتسال يزيل ما على الجسد مما علق به، كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا، فهى مكفرة للسيئات منهاة عن الإثم، مطردة للداء عن الجسد.

وها هو ذا رسول الله ﷺ يصور هذا المعنى تصوراً ملموساً وشاهداً فى بلاغة لفظ وقوة تعبير وأرقى بيان، مبيناً أثر الصلاة فى نظافة القلب من الآفات كما ينظف الجسد ويطهره بالماء.

عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ قول (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يبقى من درنه قالوا لايبقى من درنه شيئاً قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله به الخطايا) [١].

يقول الشيخ/ عفيف طبارة "قد يخطأ المسلم أو يرتكب ذنباً ثم يقف بين يدى ربه مؤدياً صلاته فتكون هذه الصلاة توبة له فتعقب خطاياه فتمحوها كلما تراكمت على نفسه، فالإنسان إذا لزم معصية الله فترة طويلة، اعتاد على ذلك فقسى قلبه، وتباعد عن ربه فشجعه ذلك على التمادى فى خطاياه حتى يدركه الموت، فهو من الخاسرين، لذا كان للمسلم فى كل صلاة توبة وباب إلى مغفرة الله تعالى"[٢].

فالمسلم إذا أدى صلاته صحيحة كاملة غفرت له ما بدرت من ذنوبه وذلك يتضح فى قول الله ﷻ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [٣].

فالمراد من الحسنات هنا: الصلوات، فقد روى فى سبب نزول هذه الآية، أن رجلاً أصاب من أمرأة قبلة فأتى النبى ﷺ فأخبره، فأنزل الله هذه الآية فقال الرجل يارسول الله ألى هذا قال النبىﷺ : (لجميع أمتى كلهم) [٤].

يقول الشيخ/ حسن أيوب "إذا كانت السيئات تشبه الحشرات والميكروبات والديدان الفتاكة، فإن الصلاة تشبه المطهرات والمبيدات والمضادات لكل ما يعمل على تدمير الإنسان،

---

[١] رواه البخارى، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة ١/١٧٢.
[٢] الخطايا فى نظر الإسلام صـ ٢١٥.
[٣] سورة هود الآية ١١٤.
[٤] أسباب النزول للواحدى صـ ٢٦٦، ٢٦٧ والحديث رواه البخارى- كتاب مواقيت الصلاة باب الصلاة كفارة (رقم ٥٣)، ومسلم كتاب التوبة – باب قوله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) (٢٧٦٣).

ونجد ذلك واضحاً فى قول الله ﷻ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (١)،(٢).

يقول القرطبى فى تفسير الآية الكريمة: "لم يختلف أحد من أهل التأويل فى أن الصلاة فى هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة، وخصها بالذكر لأنها ثابتة الإيمان وإليها يفزع فى النوائب، وكان النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة"(٣).

فالصلاة حين تتطهر بها النفس فى مراحلها الزمنية الخمس على مدى اليوم بليله ونهاره متصلة بحلال الله والخشوع له، والرجاء فيه، إنما تهئ النفس وصاحبها لأن يكون صافى الروح سليم الوجدان، يراقب الله فى معاملة الناس ومعاملة نفسه فى قوة النفس العالية، استمدت من الله قوتها حين خشعت له وسجدت لأنها لاترى فى كل ما حولها من الأشياء شيئاً إلا والله أكبر منه، فهى تعود من ضعفها أمام عظمة الله إلى هذا العالم قوية قوية، وقد صار العالم فى عينيها صغيراً، لأن الله أكبر من ذلك وأعظم.

فالصلاة هى الوسيلة المثلى لتدريب الفرد على الإتصال بربه، حتى تزيد وتقوى وتثبت هذه الصلة... فسرعان ما تصبح عاملاً أساسياً لبناء الإنسان على خشية من غضب الله ثم العمل على رضائه، ومن بين الخشية- وهى عصب التقوى- والعمل وهو شرط الإيمان يتكون الإنسان الصالح لنفسه- ولأهله- وللمجتمع الذى يعيش فيه.

بل إن الصلاة تجعل الإنسان مرتبطاً بالقرآن، فالصلاة يقرآ فيها القرآن الكريم فى كل ركعاتها، ولاتصح الصلاة إلا إذا قرأ المصلى الفاتحة، وما تيسر من القرآن، وهذه الآيات القرآنية تحتوى على آيات العظات والعبر، وأحكام يستشعر فيها الإنسان بعظمة المناجاة الإلهية، قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٤)، فهى تمرين عملى على ضبط النفس والجوارح للوقوف بين يدى الله كما يحب الله، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

يقول الطبرى فى تفسير الآية: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿اتْلُ﴾ يعنى إقرأ ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾، يعنى ما أنزل إليك من هذا القرآن، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يعنى وأد الصلاة التى فرضها الله عليك بحدودها، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر"(٥).

---

(١) سورة هود الآية ١١٤.
(٢) فقة العبادات فى الإسلام، للشيخ/ حسن أيوب، صـ ٤، طبعة دارالتوزيع والنشر الإسلامية- بدون.
(٣) تفسير القرطبى ١٠٩/٦.
(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٥.
(٥) تفسير الطبرى ١٨٨/٢٠.

يقول الإمام الفخر الرازى "قوله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أى داوم على إقامتها، وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة، وكان أمره ﷺ بإقامتها متضمناً لأمر الأمة بها علل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾ كأنه قيل وصل بهم إن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، ومعنى نهيها إياهم عن ذلك أنها لتضمنها صنوف العبادة من التكبير والتسبيح والقراءة والوقوف بين يدى الله ﷻ والركوع والسجود له سبحانه، الدال على غاية الخضوع والتعظيم، كأنها تقول لمن يأتى بها لاتفعل الفحشاء والمنكر ولا تعصى رباً هو أهل لما أتيت به، وكيف يليق بك أن تفعل ذلك وتعصيه ﷻ، وقد أتيت مما يدل على عظمته تعالى وكبريائه سبحانه من الأقوال والأفعال بما تكون به إن عصيت وفعلت الفحشاء أو المنكر كالمتناقض فى أفعاله"[١].

ويقول ابن كثير فى تفسير الآية "قال أبو العالية فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾ قال إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لايكون فيها شئ من هذه الخلال فليست بصلاة، الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه"[٢].

ويقول الشيخ/ سعيد حوى "الصلاة هى الوسيلة العظيمة فى تزكية النفس، وهى فى الوقت نفسه علم وميزان على تزكية النفس، فهى وسيلة وغاية فى آن واحد، فيها تعميق لمعانى العبودية، والتوحيد والشكر، وهى ذكر، وقيام، وركوع، وسجود وقعود، فهى إقامة للعبادة فى الهيئات الرئيسية لوضع الجسد، وإقامتها قطعاً لدابر الكبر والتمرد على الله، واعتراف لله بالربوبية، والتدبير، فإقامتها على تمامها وكمالها، قطع لدابر العجب والغرور، بل قطع المنكر والفحشاء كله ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾ ، وإنما تكون الصلاة كذلك إذا أقيمت بأركانها وسننها، والتزم صاحبها بآداب الظاهر والباطن، ومن آداب الظاهر، أداؤها كاملة بالجوارح، ومن أداب الباطن الخشوع فيها، والخشوع هو الذى يجعل للصلاة الدور الأكبر فى التطهير، والدور الأكبر فى التحقق والتخلق، وتزكية النفس تدر حول هذا"[٣].

ويقول الثعالبى فى تفسير الآية السابقة: "بأن المصلى إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات، وتذكر الله وتوهم الوقوف بين يديه، وأن قلبه وإخلاصه مطلع عليه، ومرقوب،

---

[١] تفسير الرازى ٢٤٣/١١.

[٢] تفسير ابن كثير ١٨١/٦ وأبو العالية: هو رفيع بن مهران الرياض مولاهم البصرى، أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة النبى ﷺ بسنتين ودخل على أبى بكر وصلى خلفه وكان أعلم من جاء بعد الصحابة بالقراءة ت ١٢٧ هـ، التهذيب ٢٤٦/٣، سير أعلام النبلاء ٢٠٧/٤.

[٣] المستصفى للشيخ/ سعيد حوى صـ ٣٣، ط دار السلام للنشر والتوزيع- بدون.

صلحت لذلك نفسه، وتذللت وخامرها ارتقاب الله تعالى فاطرد ذلك فى أقواله وأفعاله، وانتهى عن الفحشاء والمنكر، ولم يكد يفترمن ذلك حتى تظله صلاة أخرى، يرجع بها إلى أفضل حالة، فهذا معنى هذا الإخبار، لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغى أن تكون ، وقد روى عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفر لونه، فكلم فى ذلك فقال إنى أقف بين يدى الله تعالى.... فهذه صلاة تنهى ولابد عن الفحشاء والمنكر، وأما من كانت صلاته دائرة حول الإجزاء بلا تذكر ولاخشوع ولا فضائل، فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان"[١].

ويقول ابن عطية فى تفسيره للآية أيضاً "أمر تعالى نبيه عليه السلام، بالنفوذ إلى أمره الذى أوحى إليه، وإقامة الصلاة أى إدامتها والقيام بحدودها، ثم أخبر بحكم من حكم الصلاة، فبين سبحانه أن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر، ومن كانت صلاته دائرة حول الأجزاء ولاخشوع فيها، ولاتذكر، ولافضائل فتلك تطرد صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقة المعاصى تبعده عن الله، وتركته الصلاة يتمادى على بعده....." [٢].

فالأهمية الصلاة فى حياة المؤمن – عن طريق فاعليتها فى ترسيب حقيقة نفسية لمفهوم الإيمان بالله وحده– جاء فى القرآن الكريم إقتران أدائها بالإنتهاء من الفحشاء والمنكر وإقتران عدم أدائها باتباع الشهوات والإسترسال فى إنحرافات الإتجاه المادى فى الحياة:

فاقتران الإنتهاء من الفحشاء والمنكر بأداء الصلاة جاء قول الله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾.

... فالصلاة التى ترسب فى النفس حقيقة الإيمان بالله وحده لابد أن تنتهى معها الفحشاء والمنكر فى مباشرتها، وكذا فى الإندفاع تحت تأثير الهوى والشهوة، فى الرغبة فيهما.

واقتران عدم أدائها باتباع الشهوات والمنكر تقصه الآية القرآنية الآخرى فى الحديث عن الأجيال التى خلقت الأنبياء منذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام، نبياً بعد آخر، فيما يقول الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [٣]

... فالخلف الذى كان يأتى بعد جيل الرسالة لأى رسول من الرسل على عهد إبراهيم حتى رسالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، كان يهمل فى أداء الصلاة حتى يضيعها، وبالتالى كان يسقط فى التبعية إلى الشهوات وانحرافاتها، حتى يأتى رسول آخر يحذر من

---

[١] تفسير الثعالبى ١٩١/٢.
[٢] تفسير المحرر الوجيز ٣١٩/٤.
[٣] سورة مريم الآيتان ٥٩-٦٠.

الإستمرار فى إنحرافات الشهوات، وينذر بتغيير المجتمع كله وسقوطه، فيؤمن به البعض ويكفر برسالته البعض الآخر، وهو ذلك البعض الذى أعماه ترف الحياة، وطغيان اتجاه المادية عن أن يرى الصواب فى السلوك والهداية فى طريق الحياة.

فضياع الصلاة اقترن به هنا فى الآية إتباع الشهوات والعمل السئ، كما اقترن به الشرك بالله تعالى. ولذا ترشد الآية الثانية إلى الوضع السليم الذى يجلب من جديد الرضا، ويبعد عن الشقاء، وهو وضع العودة إلى الصلاة، ومن ثم إلى العمل الصالح والإيمان بالله وحده ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ وعاد إلى الصلاة ﴿وَآمَنَ﴾ بالله وحده ولم يشرك معه شريكاً آخر ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بالإبتعاد عن الشهوات.

يقول الدكتور/ جلال سعد بشار "إن من أثر الصلاة على المجتمع المسلم أنها تربى صاحبها على الأخلاق الحميدة، وعدم المعصية، كما أنها ترفع عنه ذميم الأخلاق، من الرياء والخفة، والتمزق، والوقوع فى الفواحش"[١].

وأى جانب دنيوى فيه أعظم النفع للإنسانية هو هذا الجانب فى الصلاة : أن ينتهى الناس فيما بينهم عن الفحشاء والمنكر والبغى؟.... وكم تكون الحياة سعيدة كريمة إذا هى خلت من هذه الأشياء التى تفسد على الناس جمال الحياة.

تلك هى الصلاة فى الإسلام، العبادة الروحية الخالصة، وذلك هو جانب النفع الدنيوى فيها.

ومن أثر الصلاة على الفرد والمجتمع أيضاً: أنها تُكوِّن شخصية المؤمن وتجعله فى درجة عالية، حيث تسلحه بالإيمان وتقويه بالله عز وجل لذلك نجد القرآن الكريم يصف المتقين بأداء الصلاة حيث يقول: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢].

كما أنها جعلت عنصراً من عناصر البر والحق الذى رسمه الله لعباده، ودعاهم إليه، وجعله عنواناً على صدقهم فى الإيمان، وعلى أنهم المتقون، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي

---

[١] المسلمون بين الماضى والحاضر للدكتور/ جلال سعد بشار صـ ٤٥، ط دار الإتحاد التعاونى ١٩٩٧م.
[٢] سورة البقرة الآيات ١-٣.

الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١)،(٢).

يقول الصابونى فى تفسير الآية السابقة "أهل هذه الأوصاف أى من الصلاة وغيرها هم الذين صدقوا فى إيمانهم، وأولئك هم الكاملون فى التقوى، وفى الآية ثناء على الأبرار وإيماء إلى ما يلاقونه من إطمئنان وخيرات حسان"(٣).

وبآداء الصلاة وإقامتها، والمحافظة عليها تقوى روابط وأواصل الأخوة فى الدين قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٤).

يقول الشيخ المراغى فى تفسير الآية الكريمة "فإن رجع هؤلاء المشركون الذين أمرتكم بقتالهم عن شركهم بالله إلى الإيمان به وبرسوله، وأنابوا إليه وأطاعوه، فأقاموا الصلاة، أى أدوها بشروطها وأركانها، وأتوا الزكاة المفروضة، فهم إخوانكم فى الدين الذى أمركم به، وبهذه الأخوة ينزل كل ما كان بينكم من عداوات ولا تعارف أجمل من التعارف فى المساجد لإقامة الصلوات، وأداء الصدقات بمواساة الغنى للفقير"(٥).

كما أن المولى ﷻ جعل الصلاة عنواناً على التمسك بالدستور الحكيم فى القرآن الكريم، وسبيلاً للحصول على الأجر العظيم، والثواب الوفير، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (٦).

يقول الطبرى فى تفسير الآية الكريمة "أى والذين يعملون بما فى كتاب الله وأقاموا الصلاة بحدودها، ولم يضيعوا أوقاتها ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ يقول تعالى ذكره من فعل ذلك من خلقى فإنى لأضيع أجر عمله الصالح"(٧).

وكذلك من أثر الصلاة على الفرد والمجتمع المسلم: أنها تكون سلاحاً للمؤمنين وملاذهم تجاه المصائب والمفزعات. ذلك لأن الصلاة نور فى القلب وهى فى جوهرها صلة روحية بين العبد المخلوق وبين الله الخالق الرازق، فهى تعين على الصبر وعلى الطاعة وعلى تحمل

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧.
(٢) الإسلام عقيدة وشريعة صـ ٨٢، ٨٣ بتصرف.
(٣) تفسير الصابونى ١١٨/١.
(٤) سورة التوبة الآية ١١.
(٥) تفسير المراغى ٦٠/١٠.
(٦) سورة الأعراف الآية ١٧٠.
(٧) تفسير الطبرى ١٤٤/٩.

الأعباء والمشاق وهى سهلة على الخاشعين ولكنها ثقيلة وكبيرة على المتكاسلين قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (١). وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢).

يقول الشوكانى فى تفسير الآية "فإن من جمع بين ذكر الله وشكره، واستعان بالصبر والصلاة على تأدية ما أمر الله به، ودفع ما يرد عليه من المحن، فقد هدى إلى الصواب ووفق إلى الخير"(٣).

ويقول الشيخ/ عبد الكريم الخطيب فى تفسير الآية أيضاً "الطاعات والإستقامة عليها لها أعباؤها التى تحتاج إلى قوة واحتمال، ومجاهدة ولكى يقوى الإنسان على حمل هذه الأعباء، كان لابد له من زاد يعينه، ويمسك عليه عزمه، والصبر والصلاة هما خير ما يتزود الإنسان به لكى يجد من نفسه القدرة على الوفاء ببعض حق الله عليه، وأداء الصلاة، والمداومة عليها يحتاج إلى الصبر والمصابرة"(٤).

ويقول الشيخ/ عفيف طبارة "الصلاة تقوى النفس الإنسانية عند المحن، ففيها يدعو الإنسان خالقه الذى بيده وحده كشف الضر، وفى الصلاة يستمد من الله العون، والهداية فتطمئن بذلك نفسه، وتقوى على البلاء، ولهذا أمر الله ﷻ المؤمنين بالإلتجاء إلى الصلاة عند البلاء، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٥)،(٦).

ويقول الإمام الفخر الرازى فى تفسير الآية: "والإستعانة بالصلاة لأنها يجب أن تفعل عن طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له، ويجب أن يوفر همه وقلبه عليها وعلى ما يأتى فيها من قراءة فيتدبر الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ومن سلك هذه الطريقة فى الصلاة فقد ذلل نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من العبادات"(٧).

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٥.
(٢) سورة البقرة الآية ١٥٣.
(٣) تفسير الشوكانى ١٥٨/١.
(٤) التفسير القرآنى للقرآن ١٧٤/١.
(٥) سورة البقرة الآية ١٥٣.
(٦) الخطايا فى نظر الإسلام صـ ٢١٥.
(٧) تفسير الرازى ١٦٠/٢.

"فإن كل متعاطٍ لفعل من الأفعال النفسية فإن المرء يتقوى فيه بحسب الإزدياد فيه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فباحتمال صغار الأمور يمكن احتمال كبارها، وباحتمال كبارها يستحق الحمد"[١].

وأيضاً من أثر الصلاة على الفرد والمجتمع المسلم: "أنها تغرس فى الإنسان والمجتمع فضيلة الثبات والكرم، وتقوى ثقة العبد بربه فيعتقد أنه ما كان له فسوف يناله، وما ليس له فلن يأخذه فتسكن نفسه فيعتقد أنه ما كان له فسوف يناله، وما ليس له فلن يأخذه فتسكن نفسه ويرضى بقضاء الله تعالى فيه يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [٢].

يقول الشيخ/ عبد الكريم الخطيب فى تفسيره: "فالحكم العام على الإنسان هو أنه هلوع جزوع، إذا مسه الشر، منوع بخيل إذا مسه الخير، ويستثنى من هذا الحكم العام أولئك الذين آمنوا بالله من بنى الإنسان، ثم امتثلوا شريعة هذا الإيمان، فأتوا ما أمرهم الله به، واجتنبوا ما نهاهم الله عنه، والصلاة هى الركن الأول من الأركان التى قام عليها الإسلام، ولهذا كانت أول صفة يتصف بها المؤمنون لأنها هى الطريق الذى يصليهم بالله، فإذا تركها المؤمن انقطعت صلته بربه إلى أن يعود إليها، فالصلاة هى التى تذكر بالله، فتصل العبد بربه، وتملأ قلبه خشية منه وولاء له"[٣].

يقول الشيخ/ سيد سابق "إن الصلاة تغرس فى النفس فضيلة الثبات والكرم، وهى من أكرم الخصال، وأشرف الخلال، إذا أصاب المصلى ما يضره لايستبد به الجزع والهلع، وإذا أفاض الله عليه بالنعم والآلاء لايتأثر بها، بل يشرك معه فيها غيره، وإلى هذا تشير الآية: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [٤]،[٥].

فالصلاة تجعل المصلى ثابتاً على الحق وكريماً، إن أصابته سراء شكر الله ﷻ، وإن أصابته ضراء صبر لأمر الله ﷻ، وفى كلا الأمرين يعد ذلك خيراً للمؤمن، فعن صهيب قال

---

[١] القيم الذريعة إلى مكارم الشريعة، تأليف الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهانى، صـ٤٣، تحقيق ودراسة أبو اليزيد العجمى- المنصورة- دار الوفاء ١٤٠٨هـ.

[٢] سورة المعارج الآيات ١٩-٢٣.

[٣] التفسير القرآنى للقرآن ١١٧٧/٨.

[٤] سورة المعارج الآيات ١٩-٢٣.

[٥] إسلامنا للشيخ/ سيد سابق صـ١٧٤.

قال رسول اللهﷺ: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلاّ للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) [١].

فالصلاة شكر عملى لله تعالى صاحب النعم التى لاتعد ولاتحصى، فلا أقل من أن نشكر مولانا شكراً عملياً ليس فقط باللسان بل أيضاً بالأركان لقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [٢].

ويقول أيضاً: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [٣]، وأعظم طرق شكر المولى هذه الصلاة.

يقول الشيخ/ عفيف طبارة "الصلاة من أهم معانيها شكر لله تعالى على نعمه، وقد كان النبى ﷺ يقوم الليل للصلاة حتى تتورم قدماه، فقيل له لِمَ تصنع هذا يارسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقالﷺ: (فلا أكون عبداً شكوراً) [٤]،[٥].

هذا وإن الناظر إلى الصلاة يجد أنها تحث الإنسان على النظافة، نظافة الملبس والمظهر لذلك أمر الحق سبحانه وتعالى المسلمين بلبس أفضل الثياب عند خروجهم إلى الصلاة وذهابهم إلى المسجد، إذ أنه سبحانه جميل يحب الجمال، فيقول جل جلاله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [٦].

يقول ابن عطية فى تفسير الآية الكريمة "هذا خطاب عام لجميع العالم، وأمروا بهذه الأشياء بسبب عصيان حاضرى ذلك الوقت من مشركى العرب فيها، ويدخل فى الزينة ما كان من الطيب للجمعة والسواك وبدل الثياب، وكل ما وجدوا استحسانه فى الشريعة، ولم يقصد به مستعمله الخيلاء، ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، أى عند كل موضع سجود، فهى إشارة إلى الصلوات"[٧].

---

[١] رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة والمراقبة، وجواز ترك ذلك فى بعض الأوقات والإشتغال بالدنيا ٦٥/١٧، وصهيب هو: أبو يحي صهيب بن سنان المعروف بالرومى أسلم بعد بضعة وثلاثين رجلاً، وكان من المستضعفين بمكة والمعذبين فى الله، وإليه أوصى عمر ﷺ أن يصلى بالناس حتى يجتمع أهل الشورى على رجل ت ٣٨هـ (التهذيب ٣٨٥/٤ ، التقريب ٣٧٠/١).

[٢] سورة سبأ الآية ١٣.

[٣] سورة إبراهيم الآية ٧.

[٤] رواه البخارى، كتاب تفسير القرآن باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ٢٧٠/٣.

[٥] الخطايا فى نظر الإسلام صـ ٢١٦، بتصرف وإختصار.

[٦] سورة الأعراف الآية ٣١.

[٧] تفسير المحرر الوجيز ٣٩٢/٢.

يقول الشيخ/ حسن أيوب عن أثر الصلاة فى نظافة الإنسان: "إن الصلاة تنظف الإنسان وتطهره من الأوساخ والنجاسات الحسية، وتنظفه وتطهره من الأخلاق الرديئة، والأدناس الباطنية، وتنظفه وتطهره من الذنوب أولاً بأول حتى يصير الإنسان صفحة بيضاء نقية... فالصلاة نظام ونظافة، وعمل وحركة وهذه الأمور المذكورة هى نتاج الصلاة"(١).

كما أن الصلاة تحث المصلى على احترام المواعيد، ويتضح ذلك فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (٢)، أى واجباً مقدراً فى الحضر أربع ركعات، وفى السفر ركعتان"(٣).

ومن أثر الصلاة أيضاً النصر والتأييد: أى أن ما التزم بها، أدت به صلاته إلى النصر على الأعداء، ومكنه الله فى الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٤).

وكذلك من أثر الصلاة: "الطمأنينة وإجابة الدعاء، وإزالة الهموم والغموم، والكروب، وكان النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، ودعا الله ﷻ فى صلاته ووعده الله ﷻ بالإجابة قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (٥).

فالصلاة طمأنينة للقلب لأنها ذكر الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (٦)، وقال أيضاً: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (٧).

وإذا ذكر الله إطمأن القلب وسكن قال ﷻ: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٨) ويبين الرسول ﷺ هذه الرحمات فيقول: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء) (٩).

---

(١) العبادة فى الإسلام صـ ٥، ٧ باختصار وتصرف للشيخ/ حسن أيوب، ط دار التوزيع والنشر، القاهرة- بدون.

(٢) سورة النساء الآية ١٠٣.

(٣) تفسير البغوى المسمى معالم التنزيل للإمام أبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى ٤٧٦/١ إعداد وتحقيق خالد عبد الرحمن العك، مروان سوار، ط دار المعرفة بيروت- لبنان، الطبعة الاولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ويراجع نفس هذا المعنى فى تفسير الجلالين ٤٢١/١.

(٤) سورة الحج الآيتان ٤٠-٤١.

(٥) سورة البقرة الآية ١٨٦.

(٦) سورة الأعلى الآيتان ١٤-١٥.

(٧) سورة طه الآية ١٤.

(٨) سورة الرعد الآية ٢٨.

(٩) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال فى الركوع والسجود ٢٠٠/٤.

فالصلاة تكسب المصلى سكينة النفس وتسمو بها عن ماديات الحياة، فهى للعارفين المحبين المراقبين لرب العالمين مغنم وسرور، وإمتاع روحى غامر، يقول سيد العارفين صلوات الله وسلامه عليه حين يشتد عليه الأمر (يابلال أقم الصلاة أرحنا بها) [١].

فالصلاة راحة وطمأنينة للنفس الإنسانية، وأى راحة بعد أن تهفوا النفوس إلى بارئها تناجيه وتسلم قيادها لمن بيده ملكوت السموات والأرض!! عن أبىهريرة عن النبى ﷺ قال: (من صلى صلاة فلم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج ثلاثاً غير تمام فقيل لأبى هريرة إنا نكون وراء الإمام فقال إقرأ بها فى نفسك فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قال الله تعالى حمدنى عبدى وإذا قال الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قال الله تعالى أثنى علىَّ عبدى وإذا قال مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ قال مجدنى عبدى وقال مرة فوض إلىَّ عبدى فإذا قال إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل) [٢].

"فأرشدنا تعالى إلى الصراط المستقيم، فكما أن أمر الحياة والموت بيد الله وحده، لذا فإن الصلاة والعبادة لاتكون إلا له تعالى وحده[٣]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٤].

فالصلاة فيها إشراق للروح، وتطهير للنفس، وطمأنينة للقلب، ولذلك كان قرة عين النبى ﷺفى الصلاة، يفزع إليه كلما حزبه أمر، وفيها- أى الصلاة-، تواضع لله مع الشعور بالعزة والكرامة، دون ذلة لأحد سواه، وفيها قرن العلم بالعمل والقول والتطبيق، وفيها تدريب على الإخلاص لله ومراقبته فى كل الشئون مع التعود على النظام وضبط المواقيت"[٥].

وكذلك من أثر الصلاة على الفرد والمجتمع المسلم: تحطيم الفوارق الإجتماعية، فمن أثر الصلاة أيضاً أنها رباط اجتماعى قوى.

---

[١] رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب صلاة العتمة ٢١٢٣/٤ والحديث صحيح أخرجه الإمام أحمد فى مسنده،كتاب الأدب ٣٦٤/٥، وبلال: هو بلاب بن رباح التيمى المؤذن مولى أبى بكر الصديق ﷺ من السابقين الأولين فى الإسلام، والمعذبين فى الله شهد بدراً والمشاهد كلها وسكن دمشق ت ٢٠٥هـ (التهذيب ٤٤١/١، التقريب ١١٠/١).

[٢] رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة ١٠١/٤.

[٣] من وصايا القرآن صـ٥٠، تأليف: محمد الأنور البلتاجى، مكتبة فياض ط ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

[٤] سورة الأنعام الآية ١٦٢.

[٥] بياناً للناس ١٨٥/٢، تأليف: مجموعة من العلماء على رأسهم فضيلة الشيخ/ جاد الحق على جاد الحق، شيخ الأزهر- رحمه الله، ط وزارة الأوقاف المصرية- بدون.

يقول الشيخ/ حسن أيوب "الصلاة إلى جانب ذلك كله رباط اجتماعى نظيف طاهر قوى، فالمسلم حين يلتقى بأخيه فى المسجد على هدف واحد هو إرضاء الله تعالى، ثم يقف بجواره فى صف الصلاة ويشاهده بين الحين ذاهباً إلى المسجد وواقفاً ممتثلاً بين يدى الله، فإن ذلك يشد كل مصلٍ إلى أخيه ليتعارفا، ويتآلفا، ويتشاركا وجدانياً وعاطفياً، وبذلك توجد بينهما وحده من صنع الله تعالى وضَّاءة بريئة، ذات أثر إيجابى حين يصدق هذا الإخاء وتستثمر هذه الوحدة الإسلامية الأصيلة"[١].

يقول الشيخ/ محمد حافظ سليمان "وصلوات الجماعات رباط قوى بين المسلمين، ومن مظاهر الجماعة وحدة الصفوف فى نظام متقن بديع محكم وفى وحدة القلوب المتجهة إلى الله منذ أن يدخل المصلى فى صلاته بكلمة الله أكبر اعتصام بحبل الله المتين وبرباط الأخوة الإسلامية واستمساك بالعروة الوثقى ومن أجل هذا فرضت الصلاة فى جماعة فى يوم الجمعة مع إباحة العمل قبل صلاة الجمعة وبعدها قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٢]،[٣].

وهذا نداء يرتكز على قيمة الصلاة فى الفصل بين الإتجاه الصحيح، والإتجاه الآخر الخاطئ فى النظرة والسلوك معاً فى الحياة. ولذا كان تقرير الآية الأولى من هاتين الآيتين بأن الإستجابة إلى هذا النداء ﴿خَيْرٌ﴾ ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كما كان ربط الأمل فى الفلاح، فى السعى ومباشرته بعد آداء الصلاة فى الآية الثانية... وهذا وذاك من النتائج المتوقعة للمسلك الصحيح وهو مسلك الإيمان بالله وحده... مسلك الصلاة والإلتقاء فيها مع الله جل جلاه، والحرص على استحضار جلاله دوماً، فى كل صلاة لايتأخر بها عن وقتها أبداً.

ويقول الأستاذ/ حسين الشافعى فى مقاله الإسلام يأبى السلبية "اتجهوا ياقوم إلى ربكم خمس مرات فى اليوم.... هذا الإتجاه يهديكم إلى التى هى أقوم.... ومايزال الفرد جاهداً فى دعم الصلة بربه، عاملاً على مرضاته، حتى تتأثر أعماله جميعاً، بهذه الخشية... وهذه الصلة ... فتبدوا فى المجتمع على الوجه الذى يرضى الله تعالى.

---

[١] فقة العبادات فى الإسلام صـ٥.

[٢] سورة الجمعة الآيتان ٩-١٠.

[٣] مجلة منبر الإسلام، العدد ٢، السنة ٢٩، صفر ١٣٩١هـ ، أبريل ١٩٧١م، تحت عنوان العبادات المخلصة والمقال لفضيلة الشيخ/ محمد حافظ سليمان صـ٩٤.

هذه هى الصلاة فى جانبها الفردى.. أما الجانب الجماعى، فقد فضل الله تعالى جزاء صلاة الجماعة على جزاء صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ترغيباً للمسلمين على اللقاء فى المساجد، عند كل صلاة مكتوبة فى وقتها المعلوم... وعلى الطريقة التى لاتتبدل من إمام واحد يؤم الجميع متجهاً إلى قبلة واحدة إلى صفوف مستقيمة متراصة... إلى تكبير موحد، إلى حركات منظمة متناسقة. ليس من شك فى أن ذلك تدريب على النظام، وتقدير الوقت والوفاء بالموعد، والتعارف والألفة والتعاون والتغلب على المشكلات، وتكوين النسق الأمثل للديمقراطية فى الجماعة فتتواصى بالحق... وتتكاتف على خلق المجتمع المتراحم.... وهو هدف صلاة الجماعة، تلك الجلسات التمهيدية لصلوات العيدين، والحلقة الأولى من التدريب للمؤتمر الأكبر فى ركن الحج"[١].

ويقول الدكتور/ رأفت عبد المطلب عن أثر اجتماع المسلمين للصلاة فى المسجد بأنهم "يتعارفون ويتآلفون ويتحابون، فيزيلون ما بينهم من حواجز دنيوية، فيتآلف بعضهم مع بعض فيتعاونون على المهمات الدنيوية والدينية... ثم يقول: وفى الصلاة يقف المسلمون صفوفاً منتظمة على إختلاف طبقاتهم فقيرهم وغنيهم على السواء"[٢].

وتسوية الصفوف فيها تعويد على النظام واتحاد القلوب، عن أبى مسعود قال كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول: (استووا ولاتختلفوا فتختلف قلوبكم ليلنى منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال أبو مسعود فأنتم اليوم أشد اختلافاً) [٣].

ومن هنا فهى وحدة للصف، ووحدة فى الوجدان، وتقارب فى القلوب، كما هو التقارب فى الأبدان.

يقول الشيخ/ حسن أيوب "إنها- أى الصلاة- نظام ونظافة، وعمل وحركة، وعلم وتطبيق، وتراحم وتعاطف، وتربية نفس وقوة روح، واتزان واعتدال، فما أجدر أن تسمى الصلاة "مدرسة التربية الإسلامية العالية"[٤].

ويوضح ذلك الدكتور/ محمد البهى فيقول: "فالصلاة – بما لها من عناصر التأثير، سواء بفعل صيغة الدعاء فيها، أو بلحظة اللقاء النفسى والتصورى فيها مع الله سبحانه وتعالى، أو بتكرار وقوعها وتقارب زمن الوقوع- تكاد تكون العبادة الأصيلة التى تقرب المؤمن من الله

---

[١] مجلة منبر الإسلام، العدد ١٢، السنة ٢٤، ذو الحجة ١٣٨٦هـ- ١٢مارس ١٩٦٧م والمقال للأستاذ/ حسين الشافعى تحت عنوان "الإسلام يأبى السلبية، صـ٢١، ٢٢.

[٢] الإسلام وحاجة البشرية إليه د/ رأفت فوزى عبد المطلب، ط دار السلام ١٩٩٦م.

[٣] رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول ٤/١٥٤.

[٤] العبادة فى الإسلام صـ٥.

تعالى، وبالتالى التى "ترسب" مفهوم الإيمان بوحدة الألوهية فى نفس المؤمن، وتجعله مدلولاً واقعياً وحقيقة مستقرة فيها.

فالصلاة فى روحياتها، وفى سعة الفرصة فى حياة المؤمن لأدائها، بعدم العوائق التى تحول دون هذا الأداء، وفى تركيز الروحية فيها على "وحدة الألوهية" التى هى فى مقابل المادية والشرك فيها- ضرورة لازمة للمؤمن، الذى يريد أن يكون لإيمانه فاعليته فى سلوكه، وعلاقاته، وحياته على العموم، وضرورة لازمة كذلك فى تحول إيمان الأمة والجماعة إلى سلوك مستقيم وعلاقات طيبة فيما بين الأفراد بعضهم مع بعض.

وصلاة الجماعة إنْ قصد فيها إخراج الفرد من عزلته الروحية التى ربما يوحى بها تصوره الضعيف لوحدة الألوهية فى عبادته لله وحده، فيقصد بها قبل ذلك نقل روحية الصلاة من مستوى الفرد إلى مستوى "روحية الجماعة" حتى يكون أثرها مضاعفاً فى نفس الفرد، وحتى ينقل كذلك "مفهوم" الجماعة إلى "حقيقة نفسية للجماعة" تستقر فى النفس، بجانب حقيقة الإيمان بالله وحده.

وإذا اقترنت الحقيقتان النفسيتان "حقيقة الإيمان بالله وحده، وحقيقة الجماعة، فى نفس المؤمن وترسبت كلتاهما فى أعماق النفس، فإن هذا الترسب ذاته للحقيقتين معاً سيكون فى أثره مزدوجاً: على تجنب "المادية" التى هى سبيل الشرك، وعلى عدم خضوع الذات للشهوة والهوى، ذلك الخضوع الذى يمثل أنانية الذات من جهة والبعد عن الروح الجماعية من جهة أخرى، كما يمثل التبعية للالتجاء المادى فى الحياة والبعد عن التأثر بالإيمان بوحدة الألوهية كذلك[1].

ومن أثر الصلاة أيضاً: الفوز فى الدنيا والفلاح فى الآخرة قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ۞ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ۞ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ۞ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[2].

يقول البيضاوى فى تفسير الآيات السابقة: "﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾، أى قد فازوا بأمانيهم، وقد ثبت المتوقع،... ولما كان المؤمنون متوقعين ذلك من فضل الله صدرت بها

---

[1] مجلة منبر الإسلام، العدد ٧٤، السنة٧، صفر ١٣٩١هـ- ٢٨ مارس ١٩٧١م، والمقال للدكتور/ محمد البهى تحت عنوان: الصلاة صـ ١٦-١٧.

[2] سورة المؤمنون الآيات ١-١١.

بشارتهم... ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خائفون من الله سبحانه وتعالى متذللون له، ملزمون أبصارهم مساجدهم"[١].

والخشوع فى الصلاة ينشأ عن خشوع القلب أولاً، وخشوع القلب ينشأ عن عدد من الشعائر الإسلامية تتركز كلها فى طهارة الظاهر والباطن، استعداداً للوقوف فى مناجاة تتسامى بالعبد إلى رحاب سيده سبحانه، وتعرضه لنفحاته المتواترة، وتوفيقه وإمداده بنور الهدى، وثبات اليقين، وتبدأ هذه الشعائر من تطهير الثوب والبدن، ثم الوضوء، والأدب، واستحضار الهيبة الإلهية، إلى غير ذلك من أعمال الإعداد للصلاة، وغيرها من شعائر الإسلام، التى جهلها المسلمون، فاضطربت أحوالهم، ولم يعد لهم خلاص إلاَّ بإحكام وتصحيح عبادتهم على الوجه الذى أراد الله تعالى.

ويقول الإمام النسفى "كرر ذكر الصلاة لبيان أنها أهم، أولأن احداهما للفرائض والأخرى للنوافل، وقيل الدوام عليها، الإسكثار منها، والمحافظة عليها، أن لا تضيع عن مواقيتها، والدوام عليها، أداؤها فى أوقاتها، والمحافظة عليها، حفظ أركانها وواجباتها وسننها وآدابها، أولئك أصحاب هذه الصفات فى جنات مكرمون"[٢].

ويجمل ما سبق من آثار الصلاة على الفرد والمجتمع المسلم **الشيخ/ سيد سابق** فيقول: "إذا كانت الصلاة تكسب المرء سكينة النفس، وتطبعه بطابع خلقى جميل، فإن هذه الصفات تجعل المقيم لها رضى النفس، حسن الخلق، عضواً نافعاً فى المجتمع الذى يعيش فيه، وتخلق منه خلية حية تعمل وتنتج ويعم خيرها الناس.

ثم إن الإسلام حبب فى صلاة الجماعة، وأوجب صلاة الجمعة كل أسبوع، واجتماع أهل الحى فى اليوم خمس مرات مع اجتماعهم يوم الجمعة اجتماع أوسع مدى، يقوى الروابط الإجتماعية، ويشد أواصل الصلات بين الجماعة، ويشعر كل واحد بأنه أخ لكل فى المسجد، وأنه مساير له، فتنمو روح المساواة الحقيقية، لافرق بين غنى وفقير، ولابين عظيم وحقير، فكلهم عباد الله اجتمعوا فى بيته تظلهم ظلال المحبة والأخوة فى الله، وبهذه الممارسة العملية للمساواة، تنتفى فوارق اللون وفوارق الثراء، وفوارق الدم، فيشعر الفرد شعوراً حقيقياً، بأنه للجماعة، وتشعر الجماعة بأنه للفرد، وهذه الغاية هى أسمى الغايات التى يجهد العلماء والحكماء والمربون والفلاسفة أنفسهم فى تحقيقها ليعم البشرية الأمن والسلام، ويلاحظ أن هذه الحِكَم لايمكن أن تتحقق إلا إذا أقبل المصلى على صلاته، بوعى كامل ويقظة تامة، وتأمل حقيقياً فى أقوال

---

[١] تفسير البيضاوى ٤/١٦٤.
[٢] تفسير النسفى ٤/١١٤، ١١٥.

الصلاة وأفعالها، وهذا هو المعبر عنه للخشوع فى قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [١]، فإذا تجردت الصلاة من هذا الوعى كانت قليلة الثمرة، بل عديمة الجدوى"[٢].

لهذا نجد من تعاليم الإسلام البارعة وتربيته اللامعة أنه دعا المسلمين إلى تعويد أبنائهم وبناتهم على الصلاة من صغرهم حتى ينشأوا محبين لها منذ نعومة أظفارهم.

يقول الدكتور/ القرضاوى "ليس بمجتمع مسلم ذلك الذى لايأخذ أبناءه وبناته بتعليم الصلاة فى المدارس والبيوت، منذ نعومة الأظفار، فيؤمرون بها لسبع، ويضربون عليها لعشر وليس بمجتمع مسلم ذلك الذى لاتحتل الصلاة من برامجه التعليمية والثقافية والإعلامية مكاناً يليق بأهميتها فى دين الله، وفى حياة المسلمين"[٣].

وبعد... فإننا إذا نظرنا إلى طبيعة العبادات فى الإسلام، لوجدناها ملائمة للطبيعة الإنسانية، موافقة لها، محققة نعيم الآخرة غير متغافلة عن نعيم الدنيا ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [٤].

"فلقد ثبت أن الصلاة المستمرة تمنع الإصابة بتصلب الشرايين وأمراض القلب الأخرى، وتلك إضافة علمية جديدة، تؤكد فوائد العبادات الجسمية والنفسية والعقلية فحقيقة أن فى الصلاة رياضة تفيد فى تقوية الجسم لأن حركات الركوع والسجود تحرك كل الأعضاء وتنشط الدورة الدموية، إلاَّ أن هذه الحركات لاتؤدى النتيجة المرجوة منها إلا من خلال نفس مطمئنة غير قلقة.

هذا وقد أثبت علم الطب الرياضى أن التمرينات الرياضية تزيد إفرازات هرمون النمو، وأثبت كذلك أن حالات الإكتئاب والتوتر من إفراز هذا الهرمون.

ويؤكد علماء النفس أن أسلوب المصارحة والمكاشفة هو أفضل الطرق لعلاج الأمراض النفسية والعصبية، وهكذا تكون الصلاة من حيث هى سؤال ومكاشفة وإنابة ورجوع واستعانة بالله تعالى، فينشأ الضمير المستقر، وتكون الحياة خالية من الإضطرابات النفسية التى هى من أهم أسباب أمراض القلب والأمراض الأخرى"[٥].

---

[١] سورة المؤمنون الآيتان ١-٢.
[٢] إسلامنا للشيخ/ سيد سابق ١٢٥-١٢٦.
[٣] ملامح المجتمع المسلم للقرضاوى صـ ٥٢-٥٣.
[٤] سورة القصص الآية ٧٧.
[٥] مجلة منبر الإسلام، العدد٢، السنة٣٠، صفر ١٣٩٢هـ- مارس ١٩٧٢م، تحت عنوان: الصلة صلة وثيقة بالله، للأستاذ/ محمد حسن عبد العزيز صـ ٩٤ بإختصار.

وبهذا تكون الصلاة ذات صلاحية فعالة وعميقة فى تجربة المصلى فى صلته بالله تعالى وعبادته إياه وحده، وبالتالى ذات أثر قوى فى تحويل النظرة الإسلامية إلى المادية والشرك إلى حقيقة نفسية يصدر عنها المؤمن فى الإبتعاد عن المادية والركون إلى الله وحده فوق المتع الحسية ومغرياتها.

آداب ينبغى مراعاتها:

يقول الإمام أحمد المقداسى "اعلم أن الصلاة روحها النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب فإن الصلاة تشمل على أذكار ومناجاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لايحصل المقصود بالأذكار والمناجاة، ثم يقول: والمعانى التى تتم بها حياة الصلاة كثيرة: منها" حضور القلب"، ومعناه أن يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له، وسبب ذلك الهمة، فإنه متى أهمك أمر حضر قلبك ضرورة، فلاعلاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلى الصلاة، وانصراف الهمة يقوى ويضعف بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا، فمتى رأيت قلبك لايحضر فى الصلاة، فاعلم أن سببه ضعف الإيمان، فاجتهد فى تقويته.

المعنى الثانى: التفهم لمعنى الكلام، فإنه أمر وراء حضور القلب، لأنه ربما كان القلب حاضراً مع اللفظ دون المعنى.

المعنى الثالث: التعظيم لله والهيبة وذلك يتولد فى شيئين: معرفة جلال الله تعالى وعظمته ومعرفة حقارة النفس وأنها مستعبدة، فيتولد من المعرفتين: الإستكانة والخشوع.

واعلم أن آداء الصلاة بهذه الشروط سبب لجلاء القلب من الصدى، وحصول الأنوار فيه التى بها تتلمح عظمة المعبود، وتطلع على أسراره وما يعقلها إلاَّ العالمون فأما من هو قائم بصورة الصلاة دون معانيها، فإنه لايطلع على شئ من ذلك بل ينكر وجوده"[١].

"فالصلاة جسد وروح، أما جسدها فهو حركات الأعضاء، وكلام اللسان، وأما روحها فهو الخشوع كما قال سبحانه ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٢]، والخشوع هو حضور الذهن مع الله تعالى، وأن يتصور الإنسان أن ربه أمامه يسمعه ويناجيه، فلا يشغل فكره بشئ من الدنيا والآخرة.

وللإنسان من ثواب صلاته ما خشع فيها، أما إذا صلى وعقله فى عمله وشؤونه، غافل عن ربه فثواب صلاته ضئيل، وفائدتها قليلة، وليس فيها لذة وسرور"[٣].

---

[١] مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقداسى ١/٢١-٢٢ باختصار وتصرف، ط الحلبى- بدون.
[٢] سورة المؤمنون الآيتان ١-٢.
[٣] من كنوز الإسلام، للدكتور/ محمد فائز المط صـ ١٤٧.

يقول الإمام/ محمد الغزالي عن ثمرة الإخلاص والخشوع في الصلاة: "واعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله ﷻ، وآدائها بالشروط الباطنة من الخشوع والتعظيم والحياء، سبب لحصول أنوار في القلب، تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة"[١].

ويقول الشيخ/ عبد العزيز المحمد السلمان: "اعلم أن الناس في الصلاة على مراتب خمس ذكرها الإمام المحقق ابن القيم- رحمه الله- فقال: أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها، الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار. الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شئ منها بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي إكمالها وإتمامها قد استغرق قلبه شأن الصلاة عبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ﷻ ناظراً بقلبه إليه مراقباً له ممتلئاً من محبته وعظمته كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربه فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض وهذا في صلاته مشغول بربه ﷻ قرير العين.

فالقسم الأول مُعَاقَبٌ والثاني مُحَاسَبٌ والثالث مُكَفَّرٌ عنه والرابع مُثَابٌ والخامس مُقَرَّبٌ من ربه لأن له نصيباً ممن جعلت قرة عينه في الصلاة فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه ﷻ في الآخرة وقرت عينه به في الدنيا ومن قرت عينه بالله قرت عينه به كل عين ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات"[٢].

وخلاصة القول: إن الصلاة- وهي أحد الأركان الخمس لديننا الحنيف- هي الدواء الناجع لكل الحالات النفسية، سواء في ذلك القلق أو الإكتئاب أو الضجر أو الشعور بالضياع أو الإغتراب... إلى غير ذلك.

فالصلاة هي الصلة بين الإنسان وخالقه، وهي صلة مباشرة لاتحتاج إلى وساطة أو تدخل إنسان آخر، فما أن يقف المصلي للصلاة حتى يجد نفسه مباشرة في رحاب الله تعالى يخاطبه ويشكو إليه ويبثه حزنه وشجنه ويتضرع إليه ويلتمس منه، فإن الله قريب يستجيب لدعوة

---

[١] أسرار الصلاة ومهماتها الحجة الإسلام محمد الغزالي صـ ١٩٣، تحقيق وتعليق موسى محمد علي، ط دار التراث العربي، الطبعة الرابعة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

[٢] موارد الظمآن لدروس الزمان ٢٢/١، ٢٢١.

الداعي إذا دعاه، بإخلاص وصدق وحرارة بل هو أقرب إلينا من حبل الوريد والإتصال به مباشر وفورى وسريع وطريقة الإتصال هى الصلاة.

إن الصلاة تشعر الإنسان بالإنتماء إلى الخالق، وإلى الكون الذى صنعه وأبدعه، وإلى المجتمع الذى نعيش فيه، فلا يشعر بالضياع أو الإغتراب أو عدم الإنتماء – وإنما يجد نفسه مشدوداً إلى الحياة بخيوط من الحنان والرحمة والمودة- هى الصلوات الخمس التى يؤديها لربه كل يوم.

فهذا إذن هو علاج حالة الإغتراب أو حالة اللامنتمى التى يشكو منها أهل الغرب أو أهل الكرب، والتى تؤدى بالكثير من الأغنياء فى أوروربا وأمريكا إلى الإنتحار- والعياذ بالله- وهم على قمة المجد الزائف وفى أوج الشهرة والعظمة الكاذبة لأنهم فى قرارة أنفسه يشعرون بأن صلتهم بالمجتمع ميتة وأن قلوبهم هواء وحياتهم فراغ فى فراغ.

وبعد... إن السعادة كل السعادة فى حب العبادة والإخلاص للطاعة، ومن أراد أن يصل إلى الله تعالى فعليه بالإكثار من الصلاة فالصلاة صلة العبد بالله، والصلاة هى الطريق الدال على الله تعالى، والصلاة هى الحبل الممدود إلى الملك المعبود، هذا وبعد إلقاء الضوء على الصلاة، وأهميتها وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم، نلقى الضوء على الزكاة فنقول وبالله التوفيق.

obeikandl.com

المبحث الثالث

الزكاة وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم

obeikandl.com

الزكاة وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم

مقدمة

إن الإسلام- كما هو معروف- ليس ديناً روحياً فردياً تنحصر مهمته فى صرف إنسان عن دنياه إلى أخراه، وإنما هو دين إجتماعى قبل كل شئ... دين له فى كل شأن من شئون الإجتماع تنظيم تقصر دونه عقول الحكماء والفلاسفة، ومن هذا المنطلق نجده قد وضع للمال، نظاماً إذا التزم الناس به كان لهم وقاية من شر طغيان هذا المال، ومن شر الترف والتبذير، ومن شأنه فى الوقت نفسه أن يبيح للناس التمتع بطيبات ما اكتسبوا فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن دون إفرط أو تفريط والتحكم فى الجهود وثمرات العمل، ولم ينس الإسلام فى هذا الشأن أن يلفت أنظار الناس إلى أنهم مستخلفون فى الأموال وأنها كلها لله يضعها حيث شاء ويأمر فيها بما شاء.

ومن هنا قرر الإسلام فى الأموال حق الفقير وحق العاجز عن الكسب وحق المصالح العامة: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۞ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (١)،﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢)، ولئن كان التكافل الإجتماعى مبدأ يقره الإسلام ويحث عليه فإننا نجده قد نظمه ووضع له القواعد وألزم أصحاب الأموال بإخراج زكاتهم ألزمهم بالإنفاق فى سبيل الله تعالى.

وتأتى الزكاة لتلعب دوراً هاماً فى حياة المجتمع الفاضل وهى تحمل معنى النمو والنقاء والطهر والصفاء.

تعريف الزكاة:

جاء فى القاموس المحيط: "الزَّكاةُ: صفوة الشئ، وما أخرجته من مالك لتطهره به"(٣).

يقول الجرجانى: "الزكاة فى اللغة: الزيادة، وفى الشرع: عبارة عن إيجاب طائفة من المال فى مال مخصوص لمالك مخصوص"(٤).

ويقول الأستاذ/ أحمد عيسى عاشور: "الزكاة فى اللغة: النمو والبركة والكثرة يقال زكا الزرع إذا نما وزكا المال إذا كثر، وزكا فلان إذا زاد بره وخيره، وتطلق على التطهر، قال

---

(١) سورة المعارج الآيتان ٢٤-٢٥.
(٢) سورة البقرة الآية ١٩٥.
(٣) القاموس المحيط ٣٤١/٤.
(٤) التعريفات للجرجانى صـ١١٤.

تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [١]، أى تطهرها، وتطلق على المدح قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [٢]، أى لا تمدحوها بالصلاح ونحوه"[٣].

يقول الشيخ/ حسن أيوب: "الزكاة فى اللغة العربية الطهارة والنماء والبركة يقال: زكا بمعنى طهر، وبمعنى زاد ونمى، وبمعنى صار مباركاً، وهذه المعانى مراعاة، ومرادة فى دين الله تعالى، فإن الذى يخرج الزكاة، تطهر نفسه ويطهر ماله كما يزداد ثوابه، ويبارك له ماله قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٤]،[٥].

ولاغرو فالزكاة تنمى المال وتؤدى إلى كثرته ورواجه حتى يعطى القليل منه أضعاف ما يعطى الكثير، والزكاة مع هذا النماء والكثرة المباركة لها فعاليتها فى تطهير نفسية المزكى من الذنوب ذلك لأن الحسنات يذهبن السيئات... وقد أكد المدلول الشرعى للزكاة هذا المعنى اللغوى وعمل على تنظيم الزكاة وتقنيتها وترك الباب مفتوحاً لكل ما يستجد من أموال ينبغى أن تزكى وتشكر فالزكاة شرعاً: إسم لقدر من المال مخصوص يصرف لأصناف مخصوصة بشرائط مخصوصة"[٦].

ويقول الدكتور/ سيد عبد العزيز السيلى: "الزكاة هى ما يخرجه الغنى إلى الفقير من حق الله تعالى، ويكفى أن اسمها يدل عليها، فالزكاة معناها، تزكية النفس وتطهير المال ونماؤه.

والمقصود منها: تطهير النفس من الشح والبخل والأنانية، وتعويدها على البذل والعطاء والكرم والسخاء"[٧].

ويقول الدكتور/ عبد المنعم النمر: "والزكاة فى إستعمالها اللغوى- النماء والطهارة، فالزرع زكى: أى نما وحسن، وهذا الشئ زكى: طاب وحسن ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ [٨] أى فليختر من طعام المدينة أطيبه وأحسنه، والرجل يزكى نفسه أى يمدحها وينسب إليها الطهارة، ويبرئها من النقائص.

---

[١] سورة الشمس الآية ٩.
[٢] سورة النجم الآية ٣٢.
[٣] الزكاة وأثرها فى حياة الفرد والجماعة صـ١٥، وزارة الأوقاف المصرية قطاع الشئون الدينية. بدون.
[٤] سورة التوبة الآية١٠٣.
[٥] فقة العبادات صـ ٨٨.
[٦] الزكاة وأثرها فى حياة الفرد والجماعة، صـ١٤.
[٧] المجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة، العدد العاشر، الجزء الثانى، والمقال للدكتور/ سيد عبد العزيز السيلى، تحت عنوان: جوانب الأخلاق فى الشريعة الإسلامية صـ ٩٦٧.
[٨] سورة الكهف الآية ١٩.

ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾، أى تمدحوها وتنسبوا إليها الطهارة من السوء، والبراءة من النقص فتجعلوها بذلك كاملة فالله تعالى أعلم بالخفايا: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾، وقولنا: فلان يزكى فلاناً: أى يشهد له بحسن الأخلاق، وطيب الفعال، ويطهره من سيئ الخصال.

وحكى القرآن الكريم دعوة إبراهيم عليه السلام فى سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(١)، ثم يقول فى آية أخرى من السورة: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ (٢).

ثم يقول فى سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (٣) ،أى يعلم الناس ما تطهر به نفوسهم وتطيب فعالهم وما يكون سبباً فى نمو الخير وزيادته، دنيا وأخرى وفى تحسين العلاقات فيما بينهم.

وجاء فى القرآن الكريم وهو بصدد الحديث عن البشارة بعيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (٤)، أى طاهر النفس والفعال وجاء أيضاً فى سورة الشمس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ (٥)، أى راقب نفسه، مستحقاً لرضاء الله، ولذا جاء بعد ذلك مقابلاً له ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (٦)، أى غمرها فى المعاصى، ونجسها بفعل الذنوب، فصارت خبيثة مستحقة لغضب الله... وهكذا نرى ما جاء من كلمة (ز. ك. ى) أى زكى... يدور حول النماء والبركة والطهر والطيب والحسن... إلخ، وقد سمى القرآن المال الذى يخرجه الإنسان مما يملكه مساعدة للمحتاجين زكاة، باعتبار أن هذا المال يكون سبباً فى تطهير النفس من سوء الشح والبخل، كما أنه يكون سبباً فى طيب النفوس، وفى ازدياد البركة فى المال ، وفى تنمية أساليب البر والخير، وحسن العلاقات بين الناس، فيكون ذلك من قبيل تسمية الشئ باعتبار آثاره الطيبة، ونتائجه الحسنة، تشجيعاً للناس على فعله.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٩.
(٢) سورة البقرة الآية ١٥١.
(٣) سورة الجمعة الآية ٣.
(٤) سورة مريم الآية ١٩.
(٥) سورة الشمس الآية ٩.
(٦) سورة الشمس الآية ١٠.

وفى معناه الشرعى، نجد أنها من أصول الفضائل فى المجتمع البشرى إذ يكفى أن لغتنا العربية جلعت معناها النماء والطهارة، ثم جاء الشرع وجعل الكلمة التى تحمل معانى الطيب والنماء والطهارة، والحسن والخير، عنواناً على جزء من المال تخرجه مما تملكه، مساعدة للمحتاجين من حولك، تعظيماً لهذا العمل، وتقديراً لخطره وأثره فى المجتمع[١].

الخلاصة: الزكاة فى معناها العام النماء وفى معناها الخاص: اسم لقدر مخصوص من مال مخصوص يجب صرفه إلى أصناف مخصوصة بشرائط مخصوصة.

حكمة مشروعيتها:

نظرت الشريعة الإسلامية إلى المجتمع فوجدت أن الفقير والمسكين ومن على شاكلتهم من المحتاجين قد تدفعهم الحاجة واليأس إلى إرتكاب السرقة، إذا لم يجدوا من يمد لهم يد المساعدة، من أجل ذلك فرض الله الزكاة وحثّ المؤمنين على الصدقات.

يقول الدكتور/ محمد السعدى فرهود: "شرعت – أى الزكاة- لتحقيق التكافل الإجتماعى، فيها يسهم القادرون فى وجوه البر، وفى دفع غوائل الفقر والجوع والمسكنة والمسغبة وإنقاذ الناس من التردى فى حمأة الفاقة والحاجة، كما فيها تحصين المال من عوارض الحقد والحسد إذا ما أمسك من تجب عليهم الزكاة عن المعونة والإسعاف وغلبت عليهم طبيعة الشح والبخل قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٢]،[٣].

ويقول الإمام الأكبر/ محمود شلتوت: "فهى – أى الزكاة- تشريع يحفظ للفرد استقلاله وحريته فى العمل والكسب، ويحفظ للمجتمع حقه فى المعونة والتضامن، وبذلك يبرز المبدأ الإسلامى العام وهو تحميل الفرد من حقوق الجماعة، وتحميل الجماعة من حقوق الفرد.

وقد ظل القرآن الكريم فى عهديه –المكى والمدنى- يدفع المؤمنين بأساليب قوية إلى الإنفاق فى سبيل الله، دون أن يحدد لهم الأنواع المالية التى منها ينفقون والمقادير التى لها ينفقون، تاركاً ذلك إلى ما تخلقه دعوته السامية فى قلوبهم من الشعور الإيمانى الحى، وقد جاء فى القرآن الكريم أنهم سألوا حين نزوله مرتين عما ينفقون؟ وكان الجواب فى المرتين يصرفهم عن تحديد ما ينفقون، ويتركهم إلى مشاعرهم أو يأخذ بهم إلى بيان موضع الإنفاق والبذل، قال تعالى فى سورة البقرة، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [٤]، وقال مرة أخرى ﴿يَسْأَلُونَكَ

---

[١] هدية من مجلة الوعى الإسلامى رسالة الصيام والزكاة، بقلم الدكتور/ عبد المنعم النمر صـ ٤٤-٤٥.
[٢] سورة الحشر الآية ٩، وسورة التغابن الآية: ١٦.
[٣] مجلة منبر الإسلام، السنة ٥٧، العدد ٤، ربيع الآخر ١٤١٩هـ- أغسطس ١٩٩٨م تحت عنوان: حديث أركان الإسلام، للدكتور/ محمد السعدى فرهود صـ ١٢١.
[٤] سورة البقرة الآية ٢١٩.

مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (١).

ظل القرآن هكذا يأمر بالإنفاق دون تحديد لما ينفق منه، حتى إذا ما تركز المسلمون، واتسع نطاق حياتهم بالهجرة إلى المدينة، وصاروا جماعة متميزة، لها منهجها الخاص فى الحياة ولها هدفها الذى تعمل له، وتهيأت فى ظل ذلك نفوسهم لقبول التحديد، امتد بيان الرسول ﷺ، إلى هذا العنصر بالتنظيم والتحديد، على الوجه الذى يهدف إلى صالح الفرد والجماعة، من جعل الزكاة ركناً من أركان الدين، وفريضة من فرائضه، وبذلك أعلنت فريضة الزكاة وقرنت بالصلاة وشهادة التوحيد وكانت ثلاثتها عنوان الدخول فى الإسلام، وعنوان الأخوة الدينية ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ (٢)،﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ (٣)،(٤).

والقرآن الكريم يوجه الدعوة إلى الأغنياء ويحثهم على البذل والعطاء وينصحهم بالمسارعة إلى الإنفاق فى سبيل الله قبل فوات الفرصة، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥).

يقول الشيخ/ محمد حافظ سليمان: "والهدف من توجيهات الإسلام إلى البذل والسخاء هو تحرير الوجدان وتربية العاطفة الإنسانية لذلك كان الرياء مبطلاً للصدقة ومضعفاً للنخوة وكان المن منافياً للآداب ومخالفاً لمقتضيات المروءة ويوم تصبح الصدقة مناً وأذى على الآخذ تكون عملاً خسيساً خبيثاً يهبط بالإنسانية إلى فساد البواعث علىالإحسان ويهوى بالمنفق إلى أن يصبح الإحسان إساءة وأذى والإسلام حريص على كرامة الناس وعلى كرامة الآخذ والمعطى قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ (٦)، ولذلك كان من المستحسن إخفاء الصدقة(٧).

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٥.
(٢) سورة التوبة الآية ٥.
(٣) سورة التوبة الآية ١١.
(٤) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ/ شلتوت صـ ٩٢، وما بعدها بتصرف.
(٥) سورة المنافقون الآيتان ١٠-١١.
(٦) سورة البقرة الآية ٢٦٤.
(٧) مجلة منبر الإسلام، السنة ٢٩، صفر ١٣٩١هـ ، إبريل ١٩٧١م، تحت عنوان: العبادات المخلصة لفضيلة الشيخ/ محمد حافظ سليمان صـ ٩٥.

نخلص مما سبق: أن الزكاة تعتبر اختباراً فيما تهوى النفس، فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ (١).

ولن تنجح أمة ولن تسبق فى مضمار التقدم والرقى إلا إذا توثقت الصلات بين أبنائها فعاش أفرادها أعواناً متساندين فلايوجد بينهم محروم يقاس ويلات الفقر، ومترف يتقلب فى أعطاف النعيم! ولهذا كانت الزكاة ركناً إجتماعياً وفريضة عالمية شرعها الله فى الإسلام كما شرعها فى الأديان السابقة.

مكانة الزكاة فى الإسلام:

"إقتضت إرادة الله تعالى وحكمته البالغة أن يجعل الناس متفاوتين فى معيشتهم وأن يفضل بعضهم على بعض فى الرزق... وقد جعل الله هذا التفاوت بين الناس، اختباراً عسيراً يوزن به الإيمان ويمحص به اليقين، ويعرف به الفضل.. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (٢)، وما خلق الله الناس على هذه الأرض إلاَّ ليتعاونوا فهم أخوة يرجعون على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأوطانهم، إلى أب واحد وأم واحدة... ولابد لاستتباب الأمن وضمان السعادة من أن يأخذ القوى بيد الضعيف، ويعطف الغنى على الفقير... ويعود المكثر على المقل... وعلى هذا الأساس من التعاون والتعارف تقوم مبادئ الإسلام فهو دين اجتماعى، يقرن الصلاة بالزكاة ويجعل الإحساس بحاجة الفقير علامة مميزة للإيمان الصحيح.

ولعظم شأنها جعلها الله تعالى من الأسس التى جاء بها الأنبياء والمرسلون ليدعموها فى مجتمعاتهم، وكانوا بطبيعة مهمتهم وتكوينهم، أسبق الناس إليها، وحرصاً عليها.

قال تعالى فى كتابه الحكيم يحدث عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (٣)، وقال تعالى عن نبيه إسماعيل عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۞ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (٤)، وقال سبحانه يخاطب بنى إسرائيل: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤.
(٢) سورة الفرقان الآية ٢٠.
(٣) سورة الأنبياء الآية ٧٣.
(٤) سورة مريم الآيتان ٥٤-٥٥.

بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (١)، وقال أيضاً على لسان نبيه عيسى عليه السلام، ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٢)، وقال أيضاً يخبر عن أهل الكتاب ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (٣).

وجاء الإسلام فجعلها ركناً من أركانه الهامة، اهتماماً بشأنها، وإبرازاً لخطرها، وللدور العظيم الذى تقوم به فى المجتمع المسلم.

والواقع أننا إذا نظرنا إلى أركان الإسلام وعمده الأساسية التى بينها حديث رسول الله ﷺ فى قوله: (بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان) (٤)، وجدنا أن من هذه الأركان ما يرجع إلى العقيدة، وهو الركن الأهم الذى يشبه العمود الأساسى، الذى تقوم عليه الخيمة، بحيث لو وقع ما انتصبت وما قام لها كيان... وهذا شئ طبيعى، فالعقيدة هى أساس الإنطلاق فى كل عمل، ومنها ما يرجع إلى عمل بين الإنسان وربه خالصاً كالصلاة والصيام ومنها ما يختص بالمعاملة المالية مع الناس أو ما نسميه عبادة مالية وهو الزكاة ومنها ما يجمع بين العبادة الشخصية والمالية وهو الحج.

وإذا كانت الصلاة والصيام لهما مكانتهما النفسية فى تهذيب النفس وتطهيرها، وكان للحج أثره البالغ فى النفوس كذلك فإن الزكاة تعتبر المحك الحقيقى، والإمتحان الأصيل لنفسية المسلم الجماعية، ومدى إقباله على دينه، وقيامه بالتزاماته نحو مجتمعه وإخوانه.

فمن السهل على الإنسان أن يؤدى الصلاة دون أن تكلفه شيئاً من التعب الجسمى أو النفسى... وإذا كان فى الصوم حرمان من لذائذ الطعام والشراب وقتاً من اليوم، فإن الإنسان عموماً يقبل عليه كعبادة امتناع... أو حرمان لايعدو شخصه.

والحج... رحلة قد تكون لها مشوقات، ومرغبات تتصل برغبات الإنسان الشخصية، ومن هنا يقبل عليها بشغف ولذة فهى إن لم تكن روحية خالصة فهى روحية وشخصية معاً....

أما الزكاة... وهى تنازل الإنسان عن جزء من ماله العزيز عليه الذى تعب فى تحصيله، ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٥)، هذا التنازل والإعطاء قد يكون من أشق الأشياء على النفوس... فقد يكون الإنسان مؤمناً بالله، وبوجوب الزكاة، وهو رجل طيب فعلاً،

---

(١) سورة المائدة الآية ١٢.
(٢) سورة مريم الآية ٣١.
(٣) سورة البينة الآية ٤.
(٤) رواه البخارى، كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم ٤٤/١.
(٥) سورة الكهف الآية ٤٦.

ومعروف بالتدين، ولكنه حين يرى نفسه أمام التنازل عن جزء من ماله الحبيب لديه، ربما يجد صعوبة بالغة فى هذا التنازل فيمسك يده، ويبخل بماله[١].

ولهذا دعا الإسلام إلى البذل والإنفاق، وحبب إلى بنيه أن يسارعوا إلى البر وأن تفيض أكفهم بالندى والعطاء، وأن يكون المعروف والإحسان شعارهم الدائم فى جميع أوقاتهم وأحوالهم، ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

يقول الشيخ/ حسن أيوب: "لقد أجمعت الأمة على فرضية الزكاة وصارت فرضيتها معلومة من الدين بالضرورة بالنسبة لمن يعيش بين المسلمين وفى جو إسلامى، فمن أنكر فرضيتها من هؤلاء فقد كفر ويعتبر مرتداً عن الإسلام، فيطالب بالتوبة ثلاث مرات فإن لم يتب فإن جزاءه جزاء المرتد عن الدين، الكافربه وهو القتل، أما من أنكر فرضيتها بسبب جهله لأنه حديث عهد بالإسلام، أو لأنه نشأ بعيداً عن الجو الإسلامى، وعن علماء الإسلام فإن لايحكم بكفره لعذره، وإنما يُعَرَّف ويُعَلَّم، وتذكر له الأدلة، فإن كابر بعد ذلك وعاند فهو كافر يسرى عليه الحكم السابق"[٣].

ولعظم منزلتها عند الله تعالى ذكرها فى قرآنه مقرونة بالصلاة، لأنهما صنوان يقومان على أصل واحد هو الإيمان، فالصلاة رأس العبادات البدنية، والزكاة رأس العبادات المالية.

يقول الدكتور/ القرضاوى: فى عقد مقارنة بين الصلاة والزكاة: "الصلاة عبادة بدنية روحية، والزكاة عبادة مالية اجتماعية، ولكونها عبادة وقربة إلى الله تعالى اشترطت الشريعة فيها النية والإخلاص، فلا تقبل زكاة إلا بنية التقرب إلى الله تعالى، وهذا بعض ما يميزها عن الضريبة الوضعية.

بيد أن نؤكد هنا أن الزكاة التى فرضها الإسلام وإن اشتركت فى الأصل والإسم مع الزكاة فى الديانات السابقة، هى فى الواقع نظام جديد فريد، لم يسبق إليه دين سماوى، ولاقانون أرضى.

إنها ليست مجرد إحسان موكول إلى إيمان الفرد وضميره، ولكنها ضريبة وعبادة يحرسها إيمان الفرد، ورقابة الجماعة، وسلطان الدولة"[٤].

---

[١] هدية من مجلة الوعى الإسلامى الصيام والزكاة، تحت عنوان: الزكاة للدكتور/ عبد المنعم النمر صـ ٤٥، ٤٦.

[٢] سورة البقرة الآية ٢٧٤.

[٣] فقه العبادات للشيخ/ حسن أيوب صـ ٩٨.

[٤] ملامح المجتمع المسلم صـ ٥٥-٥٦.

ويقول الدكتور/ عبد الحميد أبو المكارم: "أما اقتران الزكاة بالصلاة فإن كلاً منهما نابع عن إيمان وعقيدة راسخة وثابتة إذ فى الصلاة تطهير للنفس وتنقية للقلب ودعاء ومناجاة لله تعالى كما أن فيها تخليصاً للعبد من براثن النفاق والرياء مما يترتب عليه أن يكون الإنفاق أيضاً خالصاً لله تعالى ولأن الامتثال لأوامر الله تعالى فى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فيه تخليص من الأنانية وسيطرة الإتجاه المادى فى الحياة ولقد جعل الله ﷻ من صفات المؤمنين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١)،(٢).

ويقول فضيلة الشيخ/ أحمد البسيونى: "وقرنت الزكاة بالصلاة فى اثنين وثمانين آية من كتاب الله تعالى، وذلك حتى لايظن الناس أن الإسلام مجرد ركوع وسجود وقيام وتعود... ولكنه تفاعل مع البيئة التى يعيش فيها المسلم، وإحساس بحاجة المحتاج وبؤس الفقير... وبذلك يصبح المجتمع فى ظل المبادئ الإسلامية جبهة منيعة يصورها لنا قول الرسول ﷺ: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) (٣)،(٤).

فالزكاة لها أهمية عظيمة فى حياة الأفراد، وتقدم المجتمعات ورقيها، من أجل ذلك حث الإسلام أبناءه على السخاء والكرم والبذل والعطاء ولكى يثقوا بأن ما فى يد الله أوثق مما فى أيديهم، كما يتمنى فيهم تقدير النعمة وشكر المنعم جل جلاه، وذلك مما فرض عليه زكاة مما ملكت أيديهم ومما أفاء الله، وأنعم به عليهم، ونظمه الشرع والدين، فإن شكا الفقراء حاجة أو عوزاً، فليس ذلك ناجماً عن قصر الزكاة أو قلتها، وإنما ذلك ناجم عن بخل الأغنياء وشحهم بالزكاة، ومحاولتهم التهرب، والتفلت منها بحيلة أو بأخرى فحسابهم على الله فى الدنيا أو فى الآخرة"(٥).

نخلص مما سبق: أن الزكاة تمثل جانباً هاماً من جوانب النفس الإسلامية.. وأنها فى الحقيقة تعتبر ميزاناً دقيقاً للمسلم، وامتحاناً عملياً لنفسيته، ومدى إقباله على دينه، وتنفيذه لتعاليمه، ولعل هذا هو الذى قصده القرآن الكريم حين قال فى سورة التوبة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٢-٣.

(٢) هدية مجلة منبر الإسلام رمضان ١٣٣٥هـ- سبتمبر ١٩٧٥م، تحت عنوان: الصيام والزكاة فى الإسلام بقلم الدكتور/ عبد الحميد أبو المكارم صـ ٢٥٩.

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ١٦/١٤٠.

(٤) هدية منبر الإسلام، العدد التاسع، السنة ٢٥- رمضان ١٣٨٧هـ- ٣ديسمبر ١٩٦٧م، تحت عنوان: مكانة الزكاة فى الإسلام لفضيلة الشيخ/ أحمد البسيونى صـ١٣٥.

(٥) الزكاة وأثرها فى حياة الفرد والجماعة صـ٥.

صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[١]، وذلك فى الوقت الذى تقوم فيه الزكاة بوظيفتها الأخرى فى إيجاد المجتمع المتكافل المتعاون المتحاب.

وقصارى الحديث: إن الزكاة عموماً أمر له خطره وشأنه فى إصلاح المجتمع لأنها فى الحقيقة تعاون وتضامن من أجل مواجهة أعباء الحياة.

أثر الزكاة على الفرد والمجتمع المسلم:

لاشك أن الزكاة تحمى عقيدة الفقير وتحفظ عليه ماء وجهه، وتشعره بأخوة الجماعة الإسلامية الواحدة له، بل وتؤمنه فيطمئن على نفسه وولده حين يصله حقه فى مال الغنى فيعف عن المسألة حيث يصله حقه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٢].

يقول صاحب الظلال: "هى الزكاة على وجه التخصيص والصدقات المعلومة القدر.. وهى حق فى أموال المؤمنين.. أو لعل المعنى أشمل من هذا وأكبر، وهو أنهم يجعلون فى أموالهم نصيباً معلوماً يشعرون أنه حق للسائل والمحروم، وفى هذا تخلص من الشح واستعلاء على الحرص، كما أن فيه شعوراً بواجب الواجد تجاه المحروم فى هذه الأمة المتضامنة المتكافلة.. والسائل الذى يسأل، والمحروم الذى لايسأل ولايعبر عن حاجته فيحرم، أو لعل الذى نزلت به النوازل فحرم وعف عن السؤال، والشعور بأن للمحتاجين والمحرومين حقاً فى الأموال هو شعور بفضل الله تعالى من جهة، وبآصرة الإنسانية من جهة، فوق ما فيه من تحرر شعورى من ربقة الحرص والشح، وهو فى الوقت ذاته ضمانة اجتماعية لتكافل الأمة كلها وتعاونها، فهى فريضة ذات دلالات شتى فى عالم الضمير وعالم الواقع سواء... وذكرها هنا فوق أنه يرسم خطاً فى ملامح النفس المؤمنة فهو حلقة من حلقات العلاج للشح والحرص فى السورة"[٣].

ومن آثار الزكاة أيضاً: أنها تزيل آفة الحقد والحسد وتحل محلها الحب وتمنى البركة والزيادة من جانب المحتاج للغنى لأن النفس الإنسانية جبلت على حب من أحسن إليها.

يقول الدكتور/ مصطفى محمود: "الزكاة تلطف الحقد، وتكسر العين الحاسدة، وتؤلف القلوب، لأنه مال حلال يخرج من صاحبه حباً وكرامة وطواعية، ويصل إلى المستحق دون منٍ ولا أذى"[٤].

---

[١] سورة التوبة الآية ١٠٣.
[٢] سورة المعارج الآيتان ٢٤-٢٥.
[٣] تفسير الظلال ٣٦٩٩/٦.
[٤] الإسلام ما هو؟ للدكتور/ مصطفى محمود صـ ٢٢، ط دار المعارف - بدون.

وكذلك من أثر الزكاة: "مواساة الأغنياء لإخوانهم الفقراء فلو قام الأغنياء بهذه الفريضة حق القيام، وصرفوا الزكاة فى مصرفها الشرعى لحصل للفقراء والمساكين مما يكفيهم ولايحتاجون معه إلى غيره. أما إذا منع الأغنياء ما أوجب الله عليهم من فريضة الزكاة فإنه ينشأ من هذا أضرار ومفاسد كثيرة، من تعريض العبد نفسه للعذاب العظيم، وكراهية الله والناس له، وتسبب لإهلاك المال وانتزاع البركة منه... ومن ظلم للفقراء والمساكين، وإيصال الضرر إليهم، ودعوة لهم إلى ارتكاب شتى الحيل فى الحصول على لقمة العيش، والتعرض للوقوف فى المواقف الحرجة، والإلحاح فى السؤال، بل ربما اضطرتهم فاقتهم وشجة الحاجة إلى السرقة، والإقدام على بعض الجرائم بسبب الفقر والمسكنة التى لو أحس بها الغنى يوماً من الدهر لتغيرت نظرته إليهم، ولعرف عظيم نعمة الله عليه"[١].

ومن الآثار أيضاً: "إدخال السرور على المؤمن إذ أن "الزكاة عطاء وبذل والنفس بطبيعتها تهتز للكرم، وتفرح بالجود وتجد الراحة والإطمئنان فى مواساة الغير، وإدخال السرور عليه، وهذا هو السبب فى أن بعض الناس يقومون بمساعدة المحتاجين، ومعاونة المعوزين دون رغبة فى ثواب أو رهبة من عقاب، وكما أن المعطى يهتز بالجود فإن الآخذ لايقل عنه فرحاً واغتباطاً"[٢].

فأفضل الأعمال: إدخال السرور على المؤمن، وسد جوعته، وفك كربته، وقضا دينه.

ومن آثارها أيضاً: أنها تطهير لنفس الغنى "أى أن الإنسان حينما يخرج زكاة ماله يكون بذلك قد تطهر من الشح البغيض، وهى آفات نفسية تدفع إلى سفك الدماء، وبذل الأعراض، وبيع الأوطان"[٣].

ومصداق ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٤].

يقول الشيخ/ عبد الكريم الخطيب فى تفسيره للآية الكريمة:"إن الآية تحريض للمؤمنين على البذل والإحسان فى سبيل الله تعالى، فإن إنفاق المال فى سبيل الله هو عين الجهاد بالنفس،

---

[١] بهجة الناظرين فيما يصلح الدنيا بالدين صـ ٤٩٣، بتصرف يسير لعبد الله بن جار الله بن إبراهيم آل جار الله.

[٢] إسلامنا للشيخ/ سيد سابق صـ١٢٦-١٢٧.

[٣] العبادة فى الإسلام للدكتور/ يوسف القرضاوى صـ٢٧٤، بتصرف ط مكتبة وهبه ١٩٨٥م .

[٤] سورة التوبة الآية ١٠٣.

وهو تطهير للمتصدق، وتزكية من الأوضار والآثام التى تعلق به، فالآية أمر مطلق ببذل الصدقات، وتحريض للمسلمين على آدائها"[١].

ومن آثارها أيضاً: أنها طهارة ونماء للمال، وضمان لبقائه فى يد المنفق، وتجارة رابحة لن تبور، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ۞ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [٢].

يقول ابن كثير فى تفسيره للآية الكريمة: "يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله تعالى سراً وعلانية بأنهم ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أى يرجون ثواباً عند الله لابد من حصوله، ولهذا قال تعالى ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أى ليوفيهم ثواب ما عملوا ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ أى لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم"[٣].

فهى تعتبر قرضاً لله سيؤدى وهو مضمون عنده سبحانه الذى سيضاعفه لعبده قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [٤].

وقال أيضاً: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [٥].

يقول صاحب الظلال فى تفسيره لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ﴾ إن هذا هو شأن المؤمن لاسواه، إنه لاينفق إلاَّ ابتغاء وجه الله تعالى، لاينفق عن هوى ولاعن غرض، لاينفق وهو يتلفت للناس يرى ماذا يقولون! لاينفق ليمن على الناس بانفاقه ويتعالى عليهم! لا ينفق ليرضى عنه ذو سلطان أو ليكافئه بنيشان! لا ينفق إلاَّ ابتغاء وجه الله خالصاً متجرداً لله... ومن ثم يطمئن لقبول الله لصدقته، ويطمئن لبركة الله فى ماله، ويطمئن لثواب الله وعطائه، ويطمئن إلى الخير والإحسان من الله جزاء الخير والإحسان لعباد الله، ويرتفع ويتطهر ويزكو بما أعطى وهو بعد فى هذه الأرض، وعطاء الآخرة بعد ذلك كله فضل"[٦].

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن ٨٨٧/٣.
(٢) سورة فاطر الآيتان ٢٩-٣٠.
(٣) تفسير ابن كثير ١٤٦/٣.
(٤) سورة الحديد الآية ١١.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٧٢.
(٦) تفسير الظلال ٣١٥/١.

وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١).

يقول ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة: "يخبر سبحانه وتعالى عما يثيب به ﴿الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله، لايريدون جزاء ممن أعطوه ولاشكوراً، ولهذا قال ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أو يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها، ويزاد إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي ثواب جزيل ومآب كريم"(٢).

والذين يؤدون حق الله لمجتمعهم الذي يعيشون فيه يمكن الله لهم في الأرض ويمنحهم الله نصراً عزيزاً من لدنه وتأييداً من عنده قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ۝ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٣).

والذين يؤدون الزكاة وينفقون سراً وعلانية من وحي وجدانهم بلا مَنّ ولا أذى يستحقون جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، ويستحقون رضواناً من الله تعالى وراحة في الضمير بتأدية الواجب وصنع المعروف وبالتراحم والتعاطف يستريح الناس بعضهم إلى بعض ويعيشون في أمن ورضا في ظل رضوان من الله قال تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ۝ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤).

ولما كان المال شقيق الروح، والإنسان مجبول على حب ماله والحرص عليه، يضرب في مناكب الأرض ويتحمل السفر والسهر والكد والتعب... في سبيل جمع هذا المال واقتنائه، فقد حث الإسلام على أن يقاوم الإنسان نزعة الحرص في نفسه، ويكتب جموحها في قوة وعنف... وبين أن الفوز بعز الدنيا سعادة الآخرة لايتحقق إلاّ لمن طهر نفسه من داء البخل، وبذل المال في وجوه الخير طيبة بذلك نفسه، راضياً عن ربه الذي خلقه ورزقه، قال تعالى محذراً من فتنة المال والولد ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ

---

(١) سورة الحديد الآية ١٨.
(٢) تفسير ابن كثير ١٥٢/٣.
(٣) سورة الحج الآيتان ٤٠-٤١.
(٤) سورة آل عمران الآيتان ١٣٣-١٣٤.

مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

ولما كان الفقر وصمة إنسانية مهينة، إذا لصقت بإنسان أفقدته رشده وسلبته كرامته... وهوت به إلى مستوى غير كريم، فقد شرع الله الزكاة حفظاً لكرامة الإنسان وتطهيراً للمجتمع من شرور الحقد والكراهية... وهدد الله البخلاء الذين لايتصدقون بفضول أموالهم وتوعد مانعى الزكاة عذاباً ونكالاً فى يوم لاينفع مال ولابنون إلاَّ من أتى الله بقلب سليم فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣).

فالإمتناع عن الإنفاق فيه التهلكة الفردية والإجتماعية بالإنتهازية وبالتفاوت الطبقى والحرمان والقسوة.

ولهذا شرع الإسلام قتال مانعى الزكاة كما فعل أبو بكر الصديق وجمعها بالقوة لأنها ركن من أركان الإسلام وحين قيل له أتحارب أقواماً قالوا له لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله؟ قال: إن يقولوها يقولوها بحقها، ومن حقها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والله لاينقص الدين وأنا حىٌّ.

ومن أثارها أيضاً: "أنها تقوى الصلات بين الناس جميعاًغنيهم وفقيرهم وتجعل منهم أسرة واحدة متعاونة على الخير وتنمية المال، وتقوية الأواصر وهى الضمان الإجتماعى الذى يكفل التوازن بين الطبقات، ويضمن إشتراكية سليمة وهى أفضل وسيلة لتوزيع المال فى الوقت الذى لايضيق بها الغنى وترفع مستوى الفقير إلى حد الكفاية، وتجنبه شظف العيش وألم الحرمان"(٤).

---

(١) سورة التغابن الآيتان ١٥-١٦.
(٢) سورة التوبة الآيتان ٣٤-٣٥.
(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٨.
(٤) إسلامنا للشيخ/ سيد سابق صـ١٢٩.

يقول الشيخ/ حسن أيوب: بالنسبة لما يعود على الأغنياء من آثار طيبة حينما يزكون بأموالهم وكذا ما يعود على المجتمع المسلم من آثار عظيمة أيضاً: فيقول بالنسبة للفرد: "فإن الله يغفر ذنبه ويرفع درجاته ويكثر حسناته، ويشفيه من أمراض البخل والطمع والأنانية والإستئثار.

أما بالنسبة للمجتمع: فإن الزكاة تعالج جانباً خطيراً خصوصاً إذا عرفنا مصارف الزكاة وأدركنا أن الله سدَّ بهذه الزكاة جوانب عديدة فى المجتمع الإسلامى، فاليتيم الذى لامال له، ولاأهل ينفقون عليه، والفقير الذى لا يجد له، ولا لزوجه ولا لأولاده ما يسد حاجته كل هؤلاء ينظرون إلى أموال الأغنياء بنفوس حاقدة، وقلوب منكرة، ورغبات مدمرة إذا لم يعطهم الأغنياء حقهم الذى فرضه الله تعالى لهم وشدد فيه على المالكين الأثرياء تشديداً عظيماً.

أما حين توزع أنصبة الزكاة على مستحقيها، ويستغنى الفقير والمسكين والمحروم وذو الحاجة فإن هؤلاء تصعد إلى الله دعواتهم وضراعتهم من أجل هؤلاء الأغنياء الكرماء وقد قنعت نفوسهم، ورضيت وطهرت قلوبهم من الحقد والحسد، وصاروا عوناً للمجتمع الذى يرعاهم ويكلفهم فلا يرضون تدميره، ولا يثورون ضده، ولايعملون على إفساده والتخلص منه، ولا تجد الدعايات السيئة مجالاً لها، لأن الفارق الطبقى حينئذٍ- ومع مراعاة العدالة فى الأجور والقيام بحاجات الجميع- سيكون فارقاً قليلاً ومقبولاً لأنه سنة فى خلقة، ولا تخلو منه أمة"[١].

"أى فى إخراجها تحقيق لمعنى التكافل الإجتماعى، والتعاون على الخير، وتبادل للحب بين الأغنياء والفقراء، وبذلك يصان المال، وتحترم الحقوق، ويستقر الأمن، وتقل المنازعات والإضطرابات"[٢].

يقول الشيخ القرضاوى: عن آثار الزكاة العامة هى: علاج لمشكلة الفقر أحسن علاج، بل إنها تنظيم متكامل للقضاء على الفقر فى المجتمع الإسلامى"[٣].

ثم فى النهاية هى شكر للمتفضل علينا بنعمة المال يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٤].

يقول الشيخ/ سعيد حوى: "فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، والعبادات المالية شكر لنعمة المال، وما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضُيِّق عليه الرزق وأحوج إليه ثم لاتسمح نفسه بأن يؤدى شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه"[٥]. فهى عنوان الإيمان

---

(١) فقة العبادات للشيخ/ حسن أيوب، صـ٨٩، ٩٠، باختصار.
(٢) بيان للناس من الأزهر الشريف ١٨٦/٢ بتصرف واختصار.
(٣) العبادة فى الإسلام للدكتور/ يوسف القرضاوى صـ٢٤٣.
(٤) سورة إبراهيم الآية ٧.
(٥) المستصفى للشيخ/ سعيد حوى صـ٥٤.

الخالص لله والطاعة لأوامره والرحمة بعباده الفقراء، ودعوة إنسانية إلى بر الإنسان بأخيه الإنسان.

وصفوة القول: إن الحرب ضد الفكرة الإسلامية الآن قائمة على قدم وساق، ودخول جماعة من الإفريقيين فى الإسلام يقض مضاجع الأوكار الإستعمارية فى الغرب، لأنهم يفهمون أن انتشار الإسلام أو تقوية كلمته فيه قضاء عليهم وعلى نفوذهم فى الوقت الذى تكبر فيه دولة الإسلام ويكثر اتباعها والمتحمسون لها.. فيسلطون عليه لذلك أجهزتهم المختلفة من جماعات تبشيرية، وكتب بلغات متعددة تشوه جمال الإسلام، وتنفر منه الناس، ومن إذاعات متعصبة تؤدى نفس الغرض... ومن... ومن...".

والإسلام أمام هذا الهجوم السافر والخفى أصبح فى شدة الحاجة إلى من يدافعون عنه من أتباعه بأنفسهم وأموالهم... والحرب الباردة أصبح لها شأنها وخطرها كالحرب الساخنة، ومن هنا أصبح من واجب المسلمين فى كل مكان أن يتنبهوا ويبذلوا أموالهم، لا أموال الزكاة فحسب، ليقفوا فى وجه هذا التيار، وليحفظوا الإسلام من أعدائه، ويحفظوا لهم دينهم الذى ارتضاه الله لهم، ويحفظوا كرامتهم وقيمتهم كأمة لها دينها ولها كرامتها ولها ماضيها العظيم. هكذا تكون الثمرة لتطبيق شريعة الزكاة، وهكذا يكون التراحم فى مجتمع ترفرف عليه راية القرآن الكريم.

آداب ينبغى مراعاتها:

وعلى مخرج الزكاة أداب منها:

(١) الإسرار بإخراجها لقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[١]. لكونه أبعد عن الرياء والسمعة، وفى الإظهار إذلال للفقير أيضاً فأفضل الصدقات وأشرفها ما كانت فى السر، وأكرمها وأعزها منزلة عند الله تعالى ما كانت والمؤمن صحيح يخشى الفقر ويأمل الغنى. قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

---

[١] سورة البقرة الآية ٢٧١.
[٢] سورة الحشر الآية ٩.

(٢) أن لايفسدها بالمن والإيذاء المعنوى قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١).

وقال تعالى أيضاً: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢).

فنرى أن الشريعة الإسلامية وقفت بجانب الفقير الذى يأخذ الزكاة، ورفعت من قيمته حتى لايحس فى قرارة نفسه بأنه ذليل بأخذه الزكاة وأنه محتاج إليها، يقول القرآن الكريم وهو من التعبيرات الفذة فى كتاب الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ (٣).

ومهما قيل فى نسبة آخذ الزكاة إلى الله تعالى من أنه تشبيه أو إستعارة أو مجاز فإنه تعبير يجعل آخذ الزكاة فى عليين، لأنه سبحانه وتعالى هو الذى يأخذ الزكاة نيابة عن الفقير، وقد ارتضى سبحانه وتعالى أن ينسب آخذ الزكاة إلى نفسه، وكأنه فى ذلك قد جعل الفقراء والمساكين من أحبائه المقربين إليه، أو من عياله الذين يرعاهم بعطفه، ويرفع من آدميتهم بلطفه، وهم فقراء محتاجون، ومساكين معوزون، وبحاجة قصوى إلى ما يسد رمقهم ولو ببعض لقيمات يأخذونها من يد المحسنين.

(٣) أن ينتقى من ماله أحله وأجوده وأحبه إليه. أما الحل: فإن الله تعالى طيب لايقبل إلاَّ طيباً:

وأما الأجود: فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٤).

وقال :﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٢.
(٢) سورة البقرة الآيتان ٢٦٣-٢٦٤.
(٣) سورة التوبة الآية ١٠٤.
(٤) سورة البقرة الآية ٢٦٧.
(٥) سورة آل عمران الآية ٩٢.

(٤) أن يكون طيب النفس بإخراجها مسروراً مستبشراً بقبول الفقير المستحق لزكاته، وليحذر من أن يكون كارهاً لإخراجها فإنه من صفات المنافقين، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (١).

أى يكون هناك إخلاص فى إنفاقه، يبتغى به المنفق وجه الله تعالى قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (٢).

وبعد.... فلو أننا طبقنا نظام الزكاة- كما وضعه الله ورسمه القرآن- لما وجد فى الأمة تفاوت طبقى يقضى على عوامل الأمن والإستقرار وأنه إذا استقامت القلوب على أمر الله تعالى ونفذ المسلمون حكم الله بينهم، عمَّ الرخاء وقل الفقراء.. وتراحم الناس..

أيها الأغنياء: إن المال مال الله استخلفكم فيه وهو نعمة أنعم الله بها عليكم ومقتضى النعمة شكرها ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٣)، فأجيبوا داعى الله وأدّوا حقوق أموالكم ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٤) ولا تحترفوا التكاثر فى الأموال حتى لايلهيكم عن حق الفقير والمسكين ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٥).

ألا ليت المسلمين جميعا يفقهون الهدف السامى منها، ويحرصون على آدائها، كما يحرصون على كثير من متعهم الدنيوية التى تنقضى بانقضائها، ولا خير لهم بعد ذلك فيها...

لو أننا حرصنا على أداء الزكاة كل منا بقدر ما يملك، لأطفأنا أحقاداً تلتهب فى الصدور وزرعنا بدلها حباً وعطفاً وتعاوناً وتماسكاً، لو أننا حرصنا جميعاً على آداء الزكاة ما انطلقت الأصوات تندد بكثير من الظواهر السيئة فى مجتمعنا.. ولكنا مجتمعاً يسوده الحب والصفاء وترفرف على ربوعه أعلام السعادة والهناء... كما كان سابقاً فى عهد رسول الله ﷺ، والصحابة الكرام الذين ربوا جيلاً جال العالم بأجمعه، ولا يوجد فيه فقير محتاج بل كان مجتمعاً تسوده

---

(١) سورة التوبة الآية ٥٤.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٧١.
(٣) سورة إبراهيم الآية ٧.
(٤) سورة الحديد الآية ٧.
(٥) سورة التكاثر بتمامها.

المودة والمحبة والإخلاص، ولم يكن تمسكهم بهذه الأمور فقط، بل تمسكوا بغيرها من العبادات كالصيام الذى رباهم تربية روحية ونفسية واجتماعية وأخلاقية وهذا ما يتضح فى المبحث القادم.

obeikandl.com

المبحث الرابع

الصوم وأثره على الفرد والمجتمع المسلم

obeikandl.com

الصوم وأثره على الفرد والمجتمع المسلم

مقدمة

الله تبارك وتعالى يريد من عباده إيماناً خالصاً وقلوباً صافية، وأرواحاً شفافة تتصل بخالقها اتصال المعرفة واليقين.

ولذلك كفلت الشريعة الإسلامية حياة المسلمين بأركان الإسلام الخمسة التى هى نور اليقين، والعروة الوثقى بين الخالق جل شأنه والمخلوقين الذين لاحول لهم ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ومن هذه الأركان: فريضة الصيام التى فرضها الله تعالى كسراً لشهوة النفس وقهراً للشيطان، وعبادة روحية خالصة لله بلا رياء أو نفاق.

فالصيام هو العبادة الوحيدة التى لايدخلها الرياء إذ لايطلع عليها إلاَّ الله تبارك وتعالى... فإن المرء قد يرائى بصلاته.. ليقال إنه عابد، وقد يرائى بصدقته أو بجهاده أو بغير لك من أعمال البر والطاعة ليقال إنه مجاهد أو محسن متصدق.. ولكن الصوم قد تنزه عن ذلك وتلك من صغائر النفس... وعبث الشيطان... ولذا شهد الله تبارك وتعالى لعبادة الصوم لارتباطها بالنفس والسمو الروحى ونقاء الضمير ونظافة القلب.. وفى الحديث القدسى.. (الصوم لى وأنا أجزى به يدع شهوته وأكله وشربه من أجلى والصوم جنة وللصائم فرحتان فرحة حين يفطر وفرحة حين يلقى ربه ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك) [١].

فإذا نظرالإنسان إلى هذا المعنى وجد نفسه فى مقام الإخلاص، والإخلاص أعلى مقام يتنافس فيه المتنافسون، وكان ذلك جديراً أن يمده بمدد جديد من الصدق يقوى به عزيمته على الإخلاص وينقى عمله بين الناس من شوائب الرياء فيكون كل أعماله وأقواله لله تبارك وتعالى فكراً وتطبيقاً..

ولكن ما الصيام؟ هل هو ترك الشراب والطعام، والابتغاء عن رغائب الأجسام؟ أو هو ترك الخطايا والأنام؟ أو هو التعفف عن عبث العمل ولغو الكلام؟ أو هو التدريب شهراً على العمل الصالح الذى يستمر طول العام؟ كل ذلك هو الصيام.

---

[١] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب فضل الصوم ٢/٦٧٠.

تعريف الصيام:

جاء فى مفردات غريب القرآن: "الصوم فى الأصل: الإمساك عن الفعل مطعماً كان، أو كلاماً، أو مشياً ولذلك قيل للفرس الممسك عن السير أو العلف: صائم وقيل للريح الراكدة: صوم، ولاستواء النهار: صوم تصوراً لوقوف الشمس فى كبد السماء، ولذلك قيل: قام قائم الظهيرة، ومصام الفرس، ومصامته: موقفه"(١).

فالصوم فى اللغة: "الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال، ويقال للصمت صوم: لانه إمساك عن الكلام قال تعالى حكاية عن قول مريم عليها السلام: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ (٢)، وصامت الريح: أمسكت عن الهبوب، وصامت الخيل: امسكت عن الجرى والحركة"(٣).

جاء فى المعجم الوسيط: "الصَّوْمُ: الإمساك عن أى فعل أو قول كان"(٤).

ويقول الجرجانى: "الصيام فى اللغة: مطلق الإمساك"(٥).

وفى الشرع: إمساك المكلف بالنية من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود عن تناول الأطيبين، والإستمناء، والإستقاء، وقوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ (٦)، فقد قيل: عنى به الإمساك عن الكلام، بدلالة قوله تعالى:﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ (٧)،(٨).

يقول الجرجانى: "وفى الشرع عبارة عن إمساك مخصوص، وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من الصبح إلى المغرب مع النية"(٩)، فالصيام "هو التنفيذ لأمر الله تعالى بترك المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس"(١٠).

يقول الشيخ/ عفيف طبارة: "الصيام فى الإسلام هو إمساك المكلف عن الطعام والشراب والعلاقة الجنسية من طلوع الفجر إلى غياب الشمس طوال شهر رمضان"(١١).

---

(١) مفردات غريب القرآن صـ٢٩٣.
(٢) سورة مريم الآية ٢٦.
(٣) هدية من مجلة منبر الإسلام رمضان ١٣٩٢هـ- أكتوبر ١٩٧٢م تحت عنوان: الصوم حكمته وفضائله ومزاياه لفضيلة الشيخ/ عبد الوهاب محمد الساكت صـ٩٤.
(٤) المعجم الوسيط ١/٥٤٩.
(٥) التعريفات للجرجانى صـ١٣٦.
(٦) سورة مريم الآية ٢٦.
(٧) سورة مريم الآية ٢٦.
(٨) مفردات غريب القرآن صـ٢٩٣.
(٩) التعريفات للجرجانى صـ١٣٦.
(١٠) بهجة الناظرين صـ١٤١.
(١١) الخطايا فى نظر الإسلام صـ٢٣٠.

ويقول الشيخ/ شلتوت رحمه الله تعالى: "الصوم هو العبادة الدينية الثانية هو الامتناع عن الأكل والشرب، والملامسة الجنسية طوال النهار من الفجر إلى غروب الشمس، بقصد امتثال أمر الله تعالى، وقد فرضه الله تعالى فرضاً عاماً على جميع القادرين في شهر رمضان"[١].

ويقول الشيخ/ أبو بكر الجزائرى: "الصيام هو الإمساك عن المفطرات يوماً كاملاً من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس"[٢].

ويقول فضيلة الشيخ/ الصاوى على شعلان: "الصوم: هو الإمساك نهاراً من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس بنية التقرب إلى الله تعالى على البالغ العاقل من أمة محمد ﷺ إذا توافرت السلام وزالت الموانع"[٣].

وخلاصة القول: "الصوم: إمساك عن الطعام والشراب والجماع في نهار رمضان في أدب وخشوع، وبعد عن كل ما هو قبيح، وفعل لكل ما مليح في حياء وتواضع ورقة ولين وعطف على المساكين.

والمقصود منه: تدريب النفس وتمرينها على الإمتناع عن الحلال من أجل الإمتناع عن الحرام بعد ذلك من باب أولى"[٤].

حكمة مشروعية الصوم:

الحكمة العامة للتشريع الذى ارتضاه الله لعباده منهاجاً يسيرون عليه ويتقربون به إليه تتلخص في نقطتين أساسيتين: هما: ربط المخلوق بالخالق، وصلة العبد بربه، وكذلك تنظيم سلوكه ليعمر الأرض بالخير ويحقق وعد الله تعالى بجدارة آدم وذريته بالخلافة فيها.

وكل تشريع في الإسلام أياً كان مجاله، في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات بكافة أنواعها لابد من قيامه على هذين الأساسيين، وإن كان يظهر في بعضها بشكل أوضح من البعض الآخر.

ولو أخذنا الصيام مثلاً لوجدناه يحمل هذا الطابع ويحقق هاتين الحكمتين معاً، فهو يربط العبد بربه، وينظم سلوك الإنسان ليعيش سعيداً في دنياه وآخراه.

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة صـ١٠٦.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة، كتاب الصيام ٥٤١/٥.

(٣) هدية مجلة منبر الإسلام، رمضان ١٣٩٢هـ- أكتوبر ١٩٧٢م تحت عنوان: في شرق هلال الصوم لفضيلة الشيخ/ الصاوى على شعلان صـ٧٨.

(٤) المجلة العلمية لكلية اصول الدين والدعوة بالزقازيق، العدد العاشر ١٩٩٨م، تحت عنوان: جوانب الأخلاق في الشريعة الإسلامية بقلم الدكتور/ سيد عبد العزيز السيلى ٩٧٢/٢.

يقول فضيلة الشيخ/ عبد الله المشد: "وحكمة التشريع للصيام من ضمن ما نص الله عليها فى القرآن الكريم، فإن بعض التكاليف تأتى مجردة عن بيان حكمتها وإن كانت هى فى حقيقتها لاتنفك عن الحكمة ضرورة أن أفعاله سبحانه كلها تصدر عن حكمة لاعبث فيها ولاضلال. وجاءت حكمة الصيام فى كلمة موجزة فى القرآن هى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١]، وتتلاقى هذه الحكمة مع قول النبى ﷺ ﴿الصِيَامُ جُنَةَ﴾ [٢]، أى وقاية فالفرض الأساسى من الصيام هو الوقاية، ولكن من أى تكون الوقاية؟ أن الأية مطلقة وكذلك الحديث عام، ليس فيهما لما يتقى ولا لما يكون جنة منه، وأولى الآراء: أن يبقى النص على إطلاقه وعمومه ليدل على سعة الحكمة وشمولها.

والوقاية فى معناها الشامل وقاية من كل شر ومن كل فساد، فالصوم وقاية من كل ما يسوء الإنسان ويسوء المجتمع، ومن كل شر يلحق بالصائمين سواء أكان شراً أدبياً أم مادياً، حسياً أم معنوياً، دنيوياً أم أخروياً. ذلك أنه يقوم على الإمساك عن الشهوات وكبح جماح النفس وضبط سلوكها، وذلك هو عين الفلاح الذى يشير إليه قوله تعالى عن النفس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [٣]، وشهوات النفس تتركز فى نوعين هامين: شهوات تعمل فى ميدان المحافظة على الحياة الشخصية، وشهوات تعمل فى ميدان المحافظة على الحياة النوعية، والأولى تريد الطعام والشراب، والثانية تريد المتعة الجنسية، والصيام إمساك عنهما، وهو ليس إمساكاً مطلقاً ودائماً، وإلاَّ كان الموت وكان فناء النوع الإنسانى بل إمساك منظم، أو تنظيم الإمساك، فهو لفترة معينة هى من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

والإمساك عن هذين الأمرين الضروريين الحياة يشير بطريق الأولوية إلى الإمساك عن الأمور الكمالية أو غير الضرورية، كالكلام الفاحش والنظر غير البرئ ومزاولة أى عمل قبيح.

وهذا الإمساك يحقق الغرضين الأساسيين من حكمة التشريع، ففى مجال ربط المخلوق بالخالق، فيه تقديم رضا الله على رضا النفس، وامتثال أمره فى الإنتفاع عما أحل الله من الطيبات الغذائية والجنسية فالصائم يجاهد نفسه ويستمر فى معركة عارمة مع غرائزه وشهواته خوفاً من الله وطلباً لرضاه.

ومن هنا كان ثواب الصائم الذى يجاهد هذه المجاهدة ويبيع نفسه لله ثواباً لايدخل تحت ميزان التقدير العام للحسنات، فليست الحسنة بعشر أمثالها كما نصت آيات القرآن، ولكن حسنته

---

[١] سورة البقرة الآية ١٨٣.
[٢] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب فضل الصوم ٢/٦٧٠.
[٣] سورة الشمس الآيتان ٩-١٠.

لايعلم جزاءها إلاَّ الله سبحانه، كما ورد فى الحديث الشريف المروى عن أبى هريرة رضى الله عن أن رسول الله ﷺ قال: (الصيام جنة فلا يرفث ولايجهل وإن أمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى الصيام لى وأنا أجزى به والحسنة بعشر امثالها) [١].

أنظر هذا الثواب العظيم، وأنظر علته الأساسية وهى قوله: (يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى) كأن الإنسان ضحى بنفسه وأقبل على أسباب هلاكها امتثالاً لأمر الله وإبتغاء رضاه"[٢].

يقول الشيخ/ محمود شلتوت رحمه الله تعالى: "لم يكن جانب الحرمان من الطعام والشراب هو الهدف الذى قصد بافتراض الصوم على المسلمين، وإنما هو مظهر مادى للصوم تكمن وراءه حكمته الحقيقية وهى: غرس خلق المراقبة، وخلق الصبر فى نفوس المؤمنين، وبهما تصدق النية وتقوى العزيمة، فيثبتون لحوادث الدهر، وما يعترضهم من عقبات وفى الحياة نوازع الشهوة والهوى وفى الحياة دوافع الغضب والإنتقام وفى الحياة التقلب بين النعماء والضراء، وفى الحياة النزوح عن الأوطان ومفارقة الأهل والإخوان، وفى الحياة الجهاد فى سبيل الله، وفى سبيل الذود عن الحمى والكرامة،وفى الحياة كثير من الخطوب والمشاق التى تعترض الإنسان، فما أحوجه إلى أن يتذرع بخلق الصبر ليثبت ويحتمل! وما أحوجه إلى أن يتسلح بسلاح المراقبة والإستعانة بالله والرجوع إليه والإعتماد عليه!.

ومن هنا: فرض الله صوم رمضان هو شهر من إثنى عشر شهراً متتابع الأيام ليغرس بهذا التتابع ملكة الصبر والمراقبة، ثم جعله فى كل عام ليتكرر الدرس وينمو الغرس، ومن هنا أيضاً: وجب على الصائم أن يستمر فى كل ليلة من ليالى هذا الشهر متذرعاً بالصبر متسلحاً بالمراقبة فلا يسرف فيما كان محظوراً عليه بصومه حتى لاينطفئ عليه مصباح الإشراق القلبى الذى أحسه فى نهاره، ولا ينقطع عنه التتابع الروحى، ويعود إلى شره وطغيانه"[٣].

ومن حكم مشروعية الصيام: شكر الله سبحانه وتعالى، وبيان ذلك أن الذى حرم بالصوم من نعم الغذاء والمتعة الجنسية ومن المتع الأخرى يحس بمقدار هذه النعم وقيمتها فيشكر الله تعالى عليها، لأن الإنسان لايدرك قيمة الشئ إلاَّ عند فقده كما قيل: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لايعرفه إلا المرضى، والصوم بهذا يكون قد جمع أطراف الإيمان لأن الإيمان نصفان:

---

[١] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب فضل الصوم ٢/٦٧٠.

[٢] هدية مجلة منبر الإسلام، رمضان ١٣٨٦هـ- العدد التاسع، السنة ٢٤، تحت عنوان: مغزى الصوم فى رمضان لفضيلة الشيخ/ عبد الله المشد صـ ١٣، ١٤.

[٣] الإسلام عقيدة وشريعة صـ١٠٩-١١١.

نصف صبر ونصف شكر، وأساسه أن الإنسان فى حياته بين أمرين: فاقد لما يريد وعلاجه الصبر، وواجد لما يريد ويناسبه الشكر.

بهذا تتحقق حكمة الله تعالى فى التعبد بالصوم، ويكون الصوم مدداً قوياً لجند الخير فى الإنسان، به يزكو القلب، وتصفو النفس، وتتهذب الروح، ويصير الإنسان منبعاً فياضاً للخير على نفسه، وعلى بنى وطنه وجنسه، ويعيش عيشة راضية سداها المحبة والوئام، وروحها التعاون والسلام، وبهذا يقترب من الملأ الأعلى، ويتلقى التكاليف الإلهية والواجبات الإجتماعية بقوة لاتعرف الضعف، وثبات لايعرف الملل، وإخلاص لايعرف الرياء، وإيمان لايعرف الشك، فتطيب الحياة ويسعد الناس.

وأخيراً.. فحكمة الصوم حكمة خالدة تروض النفس وتصلح البدن وتسمو بالروح وليس كالصائم إنسان يستطيع أن يتفكر فى خلق السموات والأرض ويعرف من خلالها نفسه وقيمتها وأن بقاءها فى بقاء المجتمع الإنسانى.

مكانة الصوم فى الإسلام:

تشكل فريضة الصوم المقدسة حداً عظيماً من حدود الله سبحانه وتعالى، وتحتل مكانة سامية بين أركان الدين الإسلامى الحنيف، ذلك أن الصوم عبادة قديمة فرضها الله تعالى على المسلمين كما سبق أن فرضها على من قبلهم من أبناء الأمم الأخرى.

فقد كان الصوم معروفاً على مدى التاريخ قبل أن يشرعه الدين الإسلامى، فريضة مباركة، سامية النهج نبيلة الهدف، قدسية الغاية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١].

يقول الشيخ/ شلتوت: "هذه الآية تصرح بأن الصوم عبادة قديمة كتبها الله وفرضها على الأمم السابقة، وفى الواقع أنه شأن عرفه الإنسان من قديم الزمان، عرفه المتدين وسيلة من وسائل التقرب إلى الله، وعرفه الوثنى طريقاً من طرق التهذيب والرياضة، وإذن: فهو ليس خاصاً بطائفة دون طائفة، ولابرسالة دون رسالة، وربما كان شأناً فطرياً يشعر بالحاجة إليه فى فترات متتابعة أو متفرقة كل كائن حى، وإن اختلفت صوره وأوقاته باختلاف العصور والأمم"[٢].

وقد مارس بعض الشعوب عادة الصوم وعرف فى تاريخها القديم أنها كانت تعرف الصوم عادة تعبدية ورياضة روحية، ودعامة لصفاء النفس، فوق ما فيه من علاج طبى.

---

[١] سورة البقرة الآية ١٨٣.

[٢] الإسلام عقيدة وشريعة صـ١٠٧

وأنهم كانوا يقومون بالصوم يوماً من الأسبوع إشفاقاً على المعدة من الإرتباب والإضطراب بكثرة الغذاء ومنهم من كان يصوم أياماً متتابعة من الشهر.

يقول الأستاذ/ أحمد يوسف أحمد: "كان الصوم لدى الشعوب فى غير الدين الإسلامى يأخذ ألواناً من العادات والتقاليد منها:

الصوم عن الكلام: وكان على ما يظهر متبعاً عند اليهود وذلك بدليل الآية الشريفة عن السيدة (مريم) عليها السلام. ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [١].

وهو منتشر أيضاً عند الكثير من الشعوب البدائية ومنهم السكان الأصليون لاستراليا الذين يتحتم عندهم على المرأة التى يموت عنها زوجها أن تظل صائمة عن الكلام لمدة طويلة قد تصل أحياناً إلى عام كامل.

وما زال الهنود غير المسلمين يمارسون إلى اليوم مثل هذا النوع من الصيام فى معابدهم، فيطوفون فيها وهم صائمون صامتون فى أوضاع جسمية غريبة. ويذكر مؤرخو العهد الجاهلى عند العرب أنهم عرفوا أيضاً مثل هذا الصوم ومارسوه، وعرف عندهم بإسم "الضرس" وهو صوم يوم كامل إلى الليل.

الصوم عن العمل: وهناك نوع آخر من الصيام تفرضه الديانة البوذية على أتباعها، وهو صيام الكف عن مزاولة أى عمل من شروق الشمس حتى غروبها، وذلك فى أربعة أيام من كل شهر... تبدأ باليوم الأول، ثم السابع ثم الخامس عشر ثم الثانى والعشرين [٢].

صيام يوم وإفطار يوم: وكان هذا اللون من الصوم يؤدى فى مدى الشهر، أو فى مدى عام أو على طول العمر.

صوم الدهر: وأعجب أنواع الصوم هو صوم كان بعض طوائف المتصوفين ورهبان الأديرة يلتزمون به، وذلك بأن يفرضوا على أنفسهم الصوم مدى الحياة مبالغة فى تعذيب الجسد، وإذلال النفس حتى تصفو فى زعمهم- أرواحهم"[٣].

هذه صور مما كان من شأن موضوع الصوم فى غير الدين الإسلامى.

أما فريضة الصوم فى الدين الإسلامى: فهى تخضع لقيم، وأصول، وأهداف، فالصوم قد حدد فى شهر بعينه من كل عام شهر مبارك مقدس عند الله تعالى، يكفى أنه نزل فيه دستور

---

[١] سورة مريم الآية ٢٦.

[٢] يلاحظ أن هذه الموعيد توافق الأوجه الأربعة للقمر أى الإنتقال القمرى فى منازل دورته.

[٣] هدية من مجلة منبر الإسلام، رمضان ١٣٩٢هـ- أكتوبر ١٩٧٢م، تحت عنوان: الصوم تاريخياً وتشريعياً للأستاذ/ أحمد يوسف أحمد صـ ٨٠، ٨١.

الوجود، وهداية البشر جميعاً، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (١).

يقول الشيخ/ سعيد حوى: "يأتى الصوم فى الدرجة التالية من الأهمية فى تزكية النفس، فمن الشهوات العاتية التى يمكن أن تحرف الإنسان شهوتا البطن والفرج، والصوم تعويد للنفس على التحكم فى هاتين الشهوتين، ولذلك كان عاملاً مهماً من عوامل تزكية النفس، وإذا كان الصبر من أرقى مقامات النفس فإن الصوم تعويد النفس على الصبر... وقد جعل الله الصوم وسيلة للإلتحاق بمقام التقوى قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢).

والتقوى هى مطلب الله من العباد وهى تساوى تزكية النفس قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (٣)،(٤)، فالصيام هو أحد أركان الإسلام إذ لايصح الإسلام إلاَّ بالإقرار والإلتزام به إن لم يكن هناك عذر شرعى. وذلك يتضح من حديث أركان الإسلام الذى لايتم ولايقبل إيمان المرء إلاَّ بالإيمان به، عن ابن عمر-رضى الله عنهما- قال قال رسول الله ﷺ (بنى الإسلام على خمس شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان) (٥)، ومن أنكر الصيام يكون بذلك قد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، إذ أن الصيام فرض على الأمة الإسلامية كغيرها من الأمم كما قال الحق جلا وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٦)، رحمة بها، وتكفيراً لسيئاتها، ولما فيه من فوائد عظيمة تعود على الإنسان والمجتمع المسلم.

يقول الشيخ/ عبد الله بن جار الله: "فرض الله الصيام على الأمة الإسلامية رحمة بها، وإحساناً إليها ليكفر به سيئاتهم، ويرفع به درجاتهم، ويضاعف به حسناتهم، ولما فيه من فوائد عظيمة تعود على الفرد والمجتمع لايحيط بها قلب كاتب أو تعبير بليغ. وإنما يتكلم الإنسان فى ذلك بحسب ما بلغه، فالصيام بعد كونه ركناً من أركان الإسلام، وعبادة من أبلغ العبادات، وأهمها فيه امتثال لأمر الله وطلب لرضاه، وتعرض لفضله، فهو من أكبر الدروس العملية التى

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥.
(٢) سورة البقرة الآية ١٩٢.
(٣) سورة الشمس الآيات ٧-١٠.
(٤) المستصفى للشيخ/ سعيد حوى صـ٦١، بتصرف واختصار.
(٥) رواه البخارى، كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم ١/٤٤.
(٦) سورة البقرة الآية ١٨٢.

تُعِد الصائم الصادق للتقوى، فهو تقويم للإرادة، ومروض للروح، يغرس فى نفس المؤمن ملكة الصبر على الطاعات، والصبر على المخالفات، والصبر على أقدار الله المؤلمة، من مرض أو فقر أو شدة تنزل بالعبد إذا أخلص النية فيه لله ﷻ"[١].

ثم إن صيام رمضان جعله الله فرضاً على الأمة الإسلامية جميعها فلم يختص به فرداً دون فرد أو فئة دون فئة، ولم يترك لأحد أن يختار مبدأه ومنتهاه على هواه، ولكن الله تعالى هو الذى جعله (ضريبة الوفاء) على المسلمين فى موسم معين من العام وفى مقدار محدد من الأيام... وهذه المظاهر كلها تكفى لأن نؤمن بأن الصيام (تجربة إنسانية) أراد الله بها التعاطف والتواصل وأن تترابط الأمة الإسلامية كلها برباط الرحمة والمودة وأن يصهرهم الصيام جميعاً فى بوتقة الإيمان ثم يصبهم فى قالب واحد ثم يجعلهم كالجسد الواحد كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [٢]، وكما قال الرسول ﷺ: (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا إشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) [٣].

وهذا هو العامل الأسمى فى وحدة الأمة... والذى يؤهلنا للوصول إليه والحصول عليه: هو الصيام الذى جعله الله من بين العبادات فى درجة عالية ومكانة سامية حيث انفرد سبحانه وتعالى بالجزاء عليه دون سائر الفرائض كما ورد فى الحديث القدسى الشريف فعن أبى صالح الزيات أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول قال رسول الله ﷺ: (قال الله ﷻ: كل عمل ابن آدم له إلاَّ الصوم فإنه لى وأنا أجزي به) [٤].

والسر فى ذلك: أن كل العبادات لها ظاهر يتأتى فيه الرياء، والرياء يفسد العمل كمن يرائى الناس بصلاته وزكاته وحجه وإنفاقه وجهاده، أما الصيام: فليس له ظاهر، لأنه ترك وامتناع، بمعنى أنه عمل سلبى لايمكن الرياء فيه، فالمفطر سراً ويتظاهر بالصيام كيف يتأتى رياؤه وهو فى الحقيقة مفطر؟ وإنما يعتبر هذا من الكذب، ولعنة الله على الكاذبين.. والصوم عبادة سرية بين العبد وربه، والجزاء عليه سر بين الرب وعبده، لأن نية الصوم مطوية فى قلبه ولايعلم ما فى القلوب إلاَّ علاَّم الغيوب، كما أن الصوم دليل على الإخلاص الذى هو روح العبادة معه.

يقول الدكتور/ طه وادى: "ويؤكد ما للصوم من مكانة سامية بين حدود الله تعالى التى شرعها لعباده ليربى بها الضمير الإنسانى ويطهر النفس البشرية أمور منها:

---

[١] بهجة الناظرين فيما يصلح الدنيا بالدين صـ١٥٢.
[٢] سورة المؤمنون الآية ٥٢.
[٣] رواه مسلم، كتاب البر والصلة باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ١٤٠/١٦.
[٤] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب هل يقول إنى صائم إذ شتم ٦٧٣/٢.

أولاً: أن الله سبحانه وتعالى قد كرم الصوم بالإضافة إلى كونه فريضة محددة فى خلال شهر رمضان المبارك- فجعله تكفيراً وتطهيراً للكثير من الآثام والذنوب فهو تارة كفارة قتل المؤمن خطأ- كما جاء فى سورة النساء ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١).

ومرة أخرى يكون كفارة قتل الصيد أثناء الإحرام- كما جاء فى سورة المائدة- وهذا قصاص عادل لمن يتعدى حدود الله ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ (٢).

وتارة يكون كفارة للحنث فى اليمين- كما جاء فى سورة المائدة أيضاً ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ (٣).

كذلك جعله الله سبحانه وتعالى تكفيراً لمن يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا- كما جاء فى سورة المجادلة- فجعل تطهير هذا الإثم ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ (٤).

ثانياً: أن الرسول ﷺ الذى لاينطق عن الهوى قد أبان فى أكثر من مناسبة ما لهذه العبادة من منزلة مقدسة بين ما يتقرب به الإنسان إلى ربه من نوافل، لذلك كان ينصح به دائماً طلاب النصيحة وراغبى الإستزادة فى التقوى والمغفرة، عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال سمعت النبى ﷺ يقول: (من صام يوماً فى سبيل الله بعَّد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً)(٥).

عن سهل ﷺ عن النبى ﷺ قال: (إن فى الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لايدخل منه أحد غيرهم يقال أين الصائمون فيقومون لايدخل منه أحد غيرهم فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد) (٦).

ثالثاً: أن الصوم إذا كانت له منزلة سامية ومثوبة عظيمة فى الأيام العادية فإن منزلته لاشئ فوقها فى شهر رمضان، وثوابه كبير لايقدره ولايحيط بعلمه إلاَّ الله سبحانه وتعالى، من هنا كانت الشفقة الإلهية والرحمة الربانية التى لا حد لها حين أمر سبحانه عباده إلى وجوب أن يكملوا عدة الشهر صياماً أو قضاء لمن عنده عذر يعوقه عن الصيام فى

---

(١) سورة النساء الآية ٩٢.
(٢) سورة المائدة الآية ٩٥.
(٣) سورة المائدة الآية ٨٩.
(٤) سورة المجادلة الآية ٤.
(٥) رواه البخارى،كتاب الجهاد والسير، باب فضل الصوم فى سبيل الله ١٠٤٤/٣.
(٦) رواه البخارى، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين ٦٧١/٢.

رمضان.. من هنا يخاطب الله عباده- وهو أرحم بهم دالاً لهم على الخير الذى أمر والنعيم الذى وعد فيقول وقد صدق من قائل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١).

رابعاً: أن الله سبحانه يردف آيات الصوم- فى سورة البقرة- بنداء يفيض حناناً ورحمة بعبادة ليقصدوا بابه، لأنه خير من أعطى وخير من أجاب الدعاء فيقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (٢).

وهذا ما يؤكد أن الصيام سبيل من أعظم السبل المقربة إلى طاعة الله ومن ثم إلى رحمته وبره، ذلك لأنه يوقظ الهمة ويربى الضمير ويعلم الصبر ويحض على البر ويفجر فى الإنسان كل ما هى إنسانى من الصفات والملكات فيسهم بالإيمان الصلب فى حركة مجتمعه وفى دفع كل ما يعوق نهضته وتقدمه.

خامساً: أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد أكرم رمضان بعد أن أنزل فيه القرآن فجعله شهر عبادة ومغفرة بما دعا إليه من صوم بالنهار وقيام بالليل، فقد شرف الله الصيام وشهره بشئ لايقترن إلاَّ بهما إشارة ومغزى لما للصيام من منزلة وما لشهره من مكانة حيث خصهما الله سبحانه بليلة القدر ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (٣)، أى العمل فيهما من الصلاة والتلاوة والذكر خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر"(٤).

لهذه الأمور- ولكثير غيرها يصعب تعدادها فى مقالة- كان الصوم عبادة روحية سامية تصح بها الأبدان وتتطهر الأرواح وتربى الضمائر على العزة المستمدة من عزة الله سبحانه وتعالى ولم يكن من المستبق - والحال هذه- أن يعد الله فى سورة الأحزاب: "الصائمين والصائمات" من بين أولئك الذين أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥.
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦.
(٣) سورة القدر الآيتان٢-٣.
(٤)هدية من مجلة منير الإسلام، رمضان ١٣٩٢هـ- أكتوبر ١٩٧٢م تحت عنوان: الصيام وتربية الضمير للدكتور/ طه وادى صـ٨٧- ٨٨.

وبعد... إن منزلة الصيام هى أسمى مراتب التقوى، وأكرمها عند الله، فإن فى سائر العبادات جوانب تقربها إلى النفوس الكريمة، وتقربها من مقتضى الطباع السليمة.

ففى الصلاة مثلاً: حلاوة المناجاة وفى الزكاة: أريحية الجود والكرم، وفى الجهاد عزة الحمية وإباء الضيم أما الصيام: فإنه ليس فيه معاونة من الطبع بل فيه على العكس معاندته ومقاومته، فكان أقرب الأعمال إلى الخلوص عن الشوائب، ولعله من أجل ذلك: كانت الأعمال كلها يثاب عليها أضعاف معلومة من العشرة إلى السبعمائة، إلا الصوم فإن تضعيف جزائه لايدخل تحت حصر ولا عد كما جاء فى الحديث القدسى (كل عمل ابن آدم له إلاَّ الصوم فإنه لى وأنا أجزى به) [١]، وهذا لمن وفقه الله وفقه حكمة الصوم، وصحح فيه نيته، وحرر نفسه من عادة الترف والعيش الناعم، فإذا دعا داعى التضحية العظمى يكون قد أعد للأمر عدته فيرضى بالتعب والظمأ والمخمصة فى سبيل الواجب ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [٢].

هذه لمحة سريعة عن مكانة الصوم، ومنها يتضح: أن هذه الرياضة عاصرت الإنسانية منذ فجر التاريخ،وأنها إستخدمتها سلاحاً لتهذيب النفوس وتربية الملكات، حتى جاء الإسلام فجعل الصوم ركناً من أركان الدين، وجعل من رمضان واحة روحية تفئ النفوس إليها لتخلص من أدران المادة، وتتطهر بالطاعة والخضوع، وتملأ قلبها بمعانى الذكر الحكيم الذى أنزله الله فى ليلة القدر، تلك الليلة التى شرَّف الله بها رمضان، وأضاء بنورها جنباته، وجعله بها أقدس الشهور.

أثر الصوم على الفرد والمجتمع المسلم:

إن لله تعالى فى كل عبادة فرضها على عباده غاية وثمرة مقصودة منها، والعبادة التى لا تحقق الغاية المرجوة منها هى هيكل لعبادة وصورتها لاحقيقتها وروحها.

وهذه الغاية لاترجع إلى الله سبحانه، وإنما ترجع إلى العباد أولاً وآخراً فهو جلَّ شأنه- غنى عن الناس وعن عباداتهم، لاتنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين.

وفريضة الصوم من خلال فرائض الإسلام كانت من أهم الركائز التى قامت عليها العقيدة المؤمنة بعد أن تهيأت النفوس وهى تتشبع بالروح الإسلامية القادرة بالفهم والوعى، فالصوم بطبيعته يقتضى الإمتناع عن أهم رغبات الجسم وما ينطوى عليه من ميل امتثالاً لأمر الله وتقرباً إليه. ولا يخفى ما ينطوى عليه ذلك من تقوى الله ومخافته وطاعته والطمع الكبير فى

---

[١] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب فضل الصوم ٢/٦٧٠.
[٢] سورة الروم الآيتان ٤-٥.

ثوابه وجناته، كما أن الصوم يتمثل فى أمور سلبية لايطلع عليها غير الله تعالى ولا تظهر للخلق.

ومن هنا كان الصوم خالصاً لوجه الله تعالى، مجرداً من شوائب الرياء والضلال، وهو بالقياس للصلاة والزكاة والحج وما إلى ذلك من العبادات اللازمة التى تتمثل فى أمور ظاهرة يراها الناس فيمكن أن يدخلها شئ من الرياء أو التباهى، ويمكن أن يؤديها غير المخلصين من الناس إبتغاء الظهور بمظهر الصلاح والتقوى.

أما الصيام: فهو العبادة الوحيدة التى تتمثل فى أمور سلبية لايطلع عليها أحد سوى الله تبارك وتعالى ولا يمكن للمرء أن يقوم بها رياء، لأنه لو أراد الرياء لأمكنه أن يتوارى عن الخلق ويقوم بتناول المفطرات وما مالت إليه نفسه دون أن يعرف أحد أنه مفطر.

ومن هنا كان أداء الصيام على الوجه المشروع لايمكن أن يكون إلاَّ إبتغاء مرضاة الله وتنفيذاً لأوامره، وفى هذا يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه مخبراً عن ربه ﷻ فى الحديث القدسى: (كل عمل ابن آدم له إلاَّ الصوم فإنه لى وأنا أجزى به) [١]... وفى هذا الدليل الواضح على أن الصوم خالص لله وحده، ولا يمكن أن يكون آداؤه إلا إبتغاء لمرضاته وامتثالاً لما أمر به.

هذا وفى قمة ما يثمره الصيام فى حياة الصائم: الإخلاص فى العمل ومراقبة الله فى السر والعلن:

وذلك الأساس المكين لكل ما يقوم به بنيان الحياة دينياً وإجتماعياً وإقتصادياً وما به يتوفر الأمن والسلام، وذلك أن الصوم من دون سائر العبادات عمل سلبى روحه الإخلاص، فهو سر بين العبد وربه، لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيشجبه، ولا هوى فيميله، وهل الصوم إلاَّ نية فى القلب، وإمساك عن حركة المطعوم والمشروب، وعن ملابسة المنكر من قول وفعل، فالله سبحانه وتعالى يتولى جزاء الصائم مضاعفاً على ما أحب، لا على كتاب كتب له.

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: (يقول الله ﷻ الصوم لى وأنا أجزى به يدع شهوته وأكله وشربه من أجلى والصوم جنة وللصائم فرحتان فرحة حين يفطر وفرحة حين يلقى ربه ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك) [٢].

ونحن إذا دققنا النظر فى الروحانية التى يعكسها الصوم على رؤى وخفايا المؤمنين: نجد أنها روحانية بعيدة فى جذورها، واسعة فى دائرتها، تسلك فى طريقها من الحصانة الإلهية

---

[١] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب فضل الصوم ٢/٦٧٠.
[٢] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب فضل الصوم ٢/٦٧٠.

حتى ترقى به إلى مصاف الصديقين والشهداء والصالحين... وتلك مرتبة عالية لا يصل إليها المسلم إلاَّ إذا تحقق بصومه حكمة ربه، فصلح جسده بصلاح قلبه، وعفت جوارحه عن محارم الله، وتنزهت أفكاره عن خواطر السوء ونزعات الشر، واستحق أن يكون صيامه أشرف أعماله كما قال الله تعالى فى الحديث القدسى: (كل عمل ابن آدم له إلاَّ الصوم فإنه لى وأنا أجزى به) [١].

يقول الدكتور/ أبو الوفا الغنيمى التفتازانى: "وقد عنى صوفية الإسلام عناية خاصة بتفصيل الكلام عن الأساس الأخلاقى لأعمال العبادات على اختلافها ومنها الصوم، فيرى ابن عطاء الله السكندرى مثلاً فى أن جميع أعمال العبادات التى يتقرب بها الإنسان إلى الله مفتقرة إلى أساس أخلاقى هو فضيلة الإخلاص المضادة للرياء، فيقول: (الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود الإخلاص فيها) وعلى ذلك: رب عابد لم تنفعه عباداته وأعمال طاعاته على اختلافها مع وجود صورها، لأنها لم تقم على أساس أخلاقى، وإنما بواعثها لا أخلاقية كحب الظهور أو الرياء أو طلب الجاه والمنزلة بها بين الناس، وعندئذ تكون صوراً لا روح فيها، ولا تكون مقبولة عند الله تعالى.

ومن معانى الإخلاص أيضاً فى أعمال العبادات ومنها الصوم: ألاَّ يطلب الإنسان فى مقابلها أعواضاً، لأن فى طلب الأعواض تحقيق لحظوظ نفسه التى هو مأمور بمجاهدتها، فليشتغل بالعبادات والذكر، والله هو المتكفل بعطائه.

يضاف إلى هذا: أن الإلحاح فى طلب الأعواض من الله فى مقابل الطاعات مشعر بعدم ثقة الإنسان فى الله ﷻ. ولو وثق الإنسان بالله فى إيصال المنافع إليه لما ألح فى الطلب، بل لما توجه إلى الله بالطلب أصلاً. ألم يرد فى الحديث القدسى عن الصوم مثلاً: (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به) [٢]، فوعْدُ الله بالجزاء على الصوم لابد وأن يكون موثوقاً به"[٣].

وهذا الجزاء لاحد له، وإنما يتفاوت بحسب درجات الصائمين وعلى قدر سلوكهم وإخلاصهم وصدقهم فكلما حسنت طوية الصائم، ونيته كلما زاد أجره وجزاؤه والله ذو الفضل العظيم..

---

[١] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب فضل الصوم ٢/٦٧٠.
[٢] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب فضل الصوم ٢/٦٧٠.
[٣] هدية من مجلة المنبر الإسلام، تحت عنوان: الأساس الأخلاقى لعبادة الصوم للدكتور/ أبو الوفا الغنيمى صـ٥١، ٥٢ رمضان ١٣٨٦هـ- العدد التاسع – السنة ٢٤.

روى البخارى عن سهل ﷺ عن النبى ﷺ قال: (إن فى الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لايدخل منه أحد غيرهم يقال أين الصائمون فيقومون لايدخل منه أحد غيرهم فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد) [١].

هذا ولقد شرف الله سبحانه وتعالى الصوم بفوائد عظيمة ومنافع جمة وآثار حسنة تنتج عن الإخلاص فيه منها:

التقوى: فالتقوى هى الثمرة المرجوة من آداء هذه الفريضة المحكمة، كما أنها الهدف المرتقب من العبادات الإسلامية قاطبة كما أخبر القرآن الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [٢]، فالعبادات الإسلامية تهدف إلى تكوين صفة التقوى بحيث تصبح سجية المؤمن، وطابعه المميز الذى يوجه حياته وفق شريعة ربه ﷻ فيجد فى تعاليمها سعادته، وفى تنفيذها قرة عينه.

ولكن ما التقوى؟ وكيف يسهم الصيام بنصيب وافر فى تكوين هذه الصفة وتنميتها لدى الصائم؟

يقول الأستاذ/ أحمد المصيلحى المغازى: "للتقوى جانبان: سلبى وإيجابى وكلاهما متمم للآخر وثيق الصلة به، فالتقوى صيانة النفس عن السيئات والرذائل وذلك بتهذيب الغرائز والميول- وهذا يعنى البعد عما حرم الله ﷻ- وتزكيتها فى الوقت ذاته بصالح الأعمال وكريم الأخلاق والصفات وذلك بتلبية أوامر الله ﷻ والحرص على طاعته.

والحفاظ الدائب على هذين الجانبين يؤدى إلى تكوين ملكة التقوى التى تعصم من الرذائل، وتقود إلى الفضائل حتى يصير التفكير فى المعصية نشازاً فى حياة التقى، لايكون إلاَّ عن غفلة طارئة سرعان ما توقظه منها ملكة التقوى،وتدفع عنه إصرها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [٣]، وبتلك الحاسة الدينية المرهفة يبصر التقى عواقب الأمور، ويفرق بين الحق والباطل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾ [٤].

وبدهى أن ملكة هذا شأنها، وتلك آثارها فى الحياة لاتتكون على عجل، بل تحتاج إلى دربة ومران حتى تثبت دعائمها وتنمو دوحتها وتؤتى أكلها، وهى بعد ذلك فى حاجة إلى تنمية

---

[١] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين ٢/٦٧١.
[٢] سورة البقرة الآية ٢١.
[٣] سورة الأعراف الآية ٢٩.
[٤] سورة الأنفال الآية ٢٩.

مستمرة تمدها بروافد تكفل لها قوة فاعليتها وتأثيرها، ومن هنا كانت العبادات الإسلامية فروضاً واجبة الآداء، ملازمة لحياة الإنسان حتى يلقى المسلم ربه ﷻ بتلك الملكة الدينية التى تؤهل صاحبها للخلود الدائم والنعيم المقيم ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ﴾ (١)،(٢).

إن التقوى التى جعلها الله ﷻ هدفاً من أهداف الصوم وثمرة من ثمارة اليانعة قدر مشترك بين جميع العبادات، ولكن الصوم أخذ منها حظاً وافراً ونصيباً كبيراً، إذ أنه جاوز الدائرة التى تقف عندها العبادات الأخرى التى تتم بالكف عن المحارم، وأضاف إليها نوعاً جديداً يظهر فى الكف عن الحلال والمباح، والإمتناع عن مقومات الحياة. وإذا كانت بواعث التقوى تكمن فى مخافة الله ﷻ والشعور الدائم برقابته فإن الصوم ينمى هذه البواعث ويدعمها.

يقول الشيخ/ عفيف طبارة: "فالصوم فى الإسلام وسيلة لغاية هى تقوى الله كما قال سبحانه وتعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٣)، والتقوى هى الوقاية، وقاية النفس عن كل ما يعرضها لغضب الله وعذابه، ويكون ذلك بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وصونها عما يراودها من الشهوات والخطايا، وتزكيتها من كل شوائب الخصال الذميمة، فالصائم يحرم نفسه من أقوى الغرائز الطبيعة: غريزة الطعام والشراب، وغريزة الجنس، إمتثالاً لأمر الله ﷻ، ولاريب أنه بهذا الحرمان يحصل للصائم ألم ومشقة فهو يمتنع عنهما بإرادته ويحتمل ألم الحرمان طوال شهر رمضان مراقباً ربه، ملاحظاً نفسه عند تركه كل شهوة من شهوات النفس أنه لولا اعتقاده بأن الله مطلع عليه لما صبر على الإمتناع عنها، ولا ريب أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة لجهاد النفس ملكة المراقبة والإخلاص لله والحياء منه للصائم من أن يراه حيث نهاه"(٤).

ومن أثر الصيام على الفرد والمجتمع أيضاً: الصبر فلم يقصد الله سبحانه وتعالى من فرض عبادة الصوم مجرد جوع المسلم أو عطشه فإن ذلك لاينفعه ولا يضره تعالى، إنما قصد سبحانه وتعالى بفرضها إكمال المسلم بفضائل الأخلاق عموماً، وبالصبر خصوصاً.

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٥.

(٢) هدية مجلة منبر الإسلام العدد التاسع- السنة ٢٤، رمضان ١٣٨٦هـ والمقال للأستاذ/ أحمد المصيلحى تحت عنوان: الصوم تربية إسلامية.

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٣.

(٤) الخطايا فى نظر الإسلام صـ٢٣١، ٢٣٢.

والصبر فضيلة أخلاقية من ألزم ما يكون للمسلم، وهى وراء كل عمل مثمر ناجح ولذلك لاحد لثوابها أو حسناتها، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١]، والصوم فى جوهره صبر النفس عن مألوفاتها، وإمساك الجوارح عن جميع شهواتها.

يوضح ذلك الشيخ/ عفيف طبارة: فيقول: "ورمضان يشبه محطة الوقود يعبئ القوى النفسية للإنسان بما يحتاجه من طاقة معنوية، وزاد روحى وخلقى لمسيرة الحياة.

ولكن ما نوع هذه الطاقة التى يمدنا بها شهر رمضان؟

إنها الصبر بكافة وجوهه، فالمسلم فى رمضان يصبر على وطأة الجوع والعطش ويترك ما اعتاده فى النهار من ملذات وشهوات وعادات يصبر على ذلك عن طواعية وإختيار إمتثالاً لأمر الله ﷻ، والصبر الإختيارى على ترك ملذات النفس وأهوائها وعاداتها أكثر فائدة من الصبر الذى يلجئ إليه والحرمان، وبذلك يصبح الإنسان سيد نفسه، وأقدر على الصبر والمكاره وأهوال هذه الحياة، ويصبح الصبر خلقاً أصيلاً فى نفسه"[٢].

ومن أثر الصيام أيضاً: مجاهدة النفس فإن الصوم جهاد نفس يهذب الغرائز، ويطهر النفس من الرذائل، وإلاَّ كان الإمتناع عن المفطرات أمراً شكلياً لاجدوى منه كما جاء فى حديث: (ومن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه) [٣].

والصوم ينمى فى النفس نوازع الخير ودوافع البر، وهذا الجهاد النفسى هو دعامة التقوى، تلك الصفة التى تؤهل صاحبها لرياض القرآن الكريم يتفيأ ظلالها، ويتجنى قطوفها، وذلك لأنه بالتخلى عن الرذائل، واسترداد قوة الإرادة ويقظة الضمير، يكون لدى المسلم الإستعداد النفسى للإهتداء بتوجيهات الدليل التربوى فى الإسلام وهو القرآن الكريم، وهذا ما نجده واضحاً فى قول الله ﷻ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [٤].

فالصيام تحرير الإنسان من رق الشهوة وعبادة المادة وتربية عملية على ضبط الغرائز والسيطرة عليها، وإشعار بأن الحريات فى الإسلام مقيدة لخير الفرد ولخير الناس جميعاً، إنه جهاد شاق يروض المرء على الصبر وتحمل المشاق وقوة الإرادة، وإنها لطاقة بها يستطيع مواجهة الحياة بحلوها، ومرها، ويكوِّن بها الإنسان الكامل، فى عقله ونفسه وجسمه القادر على تحمل تبعات النهوض بمجتمعه عن جدارة وكفاية والإنسان إذا تحرر من سلطان الشهوة

---

[١] سورة الزمر الآية ١٠.
[٢] الخطايا فى نظر الإسلام صـ٢٣٢، ٢٣٣.
[٣] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به فى الصوم ٢/٦٧٣.
[٤] سورة البقرة الآية ٢.

ومضلات الفتن اتخذ جنة تحصنه وتحميه من الأخطار التى تنجم أكثرها من الإنطلاق والإستسلام للغرائز والأهواء.

يقول الشيخ/ عفيف طبارة: "كما أنه يحصل للصائم أيضاً قوة فى الإرادة يتغلب بها على الأهواء والميول الضارة، فالصيام يربى النفوس على طاعة الله ﷻ ووقايتها من الإنزلاق فى الشهوات والإنحراف إلى المحرمات، هذه هى حقيقة الصيام وهذه ثمرته التى أعلنها النبى ﷺ فعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (الصيام جنة فلا يرفث ولايجهل وإن إمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم مرتين والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى الصيام لى وأنا أجزى به والحسنة بعشر أمثالها) [١]".

فتوجه النبى ﷺ إلى أنه ليس المقصود من الصوم نفس الجوع والعطش، بل ما يتبعه من كسر الشهوات، وإطفاء ثائرة الغضب، وتطويع النفس الأمارة بالسوء لطاعة الله ﷻ ، فإذا لم يحصل للصائم شئ من ذلك لم يبال الله بصومه ولم يقبله"[٢].

ولاريب فى ذلك، فإن الصيام يكسر حدة النفس فى شهواتها، ويجعلها تتصرف فى رغباتها وفق الشرع، وهذا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يوجهنا إلى إلتزام الصوم عند عدم إستطاعة الشباب الزواج بفقد الكفاية والعدالة فيقول: (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) [٣].

يقول الشيخ/ سيد سابق: "إن الصيام يقوى الإرادة ويعودها الصبر والإحتمال فيستطيع الإنسان مواجهة الحياة ومكافحتها بشجاعة فلا تثنيه صعابها، ولاتتغلب عليه أحداثها، وبقدر ما تقوى الإرادة يضعف سلطان العادة، وبذلك تتاح الفرصة بهجر الكثير من العادات السيئة مثل عادة التدخين وتناول المكيفات وغيرها مما يضعف البدن ويمرضه، ويذهب بالمال فى غير طائل، وبإيقاظ الضمير وتقوية الإرادة يعظم الإنسان ويشرف ويصل إلى الذروة من الفوز والنجاح"[٤].

وكذلك من أثر الصوم على الفرد والمجتمع المسلم: شعور الأغنياء بالفقراء والمساكين إذ أن الصيام تربية النفس، وتنقيتها من الرذائل، وبذلك تنشأ الرحمة فى داخل الإنسان، وتجعله يشعر بذوى الحاجة "فإن الرحمة تنشأ عن الآلام. وهذا بعض الإجتماعى العظيم فى الصوم. إذ

---

[١] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب فضل الصوم ٢/٦٧٠.
[٢] الخطايا فى نظر الإسلام صـ٢٣١-٢٣٢.
[٣] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب من لم يستطع الباءة فليصم ٥/١٩٥٠.
[٤] إسلامنا للشيخ/ سيد سابق صـ١٣٠.

يبالغ أشد المبالغة ويدقق كل التدقيق فى منع الغذاء عن البطن وحواشيه، فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة فى النفس وليس هناك طريقة غيرها" [١].

فبالصيام يتعود الإنسان الشفقة والرحمة. والشفقة والرحمة هما طريق البذل والتضحية، فعندما يجوع الغنى يتذكر الفقير الذى لايجد قوت يومه، والمسكين الذى لايجد ما يكفيه، فتأخذه الشفقة وتدفعه الرحمة إلى العطف على الفقير والمسكين ويرق قلبه. وفى ذلك التكافل الإجتماعى، والشعور بالأخوة الدينية.

يقول الأستاذ/ أحمد المصيلحى المغازى: "والمسلم الصائم تتجاوب مشاعره مع أفراد المجتمع من حوله، فحين يعانى ألم الجوع المؤقت فى غضون صومه يتذكر سريعاً هؤلاء الذين يعيشون فى مسغبة، ويدرك جيداً حقيقة ما يقاسون فتتلاشى من نفسه عوامل البخل والشح وتزول الأثرة والأنانية، وتصبح نفسه ندية بالخير سريعة إلى البر. ويؤكد الإسلام هذه الثمرة التربوية من ثمرات الصيام فيفرض على الصائم زكاة الفطر ويجعل صومه مرتهناً بأدائها، وعلى هذا فإن الصوم وقاية من رذيلة الشح، وهذه الرذيلة عقبة فى ميدان التربية: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۞ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [٢]،[٣]".

ويقول الشيخ/ عفيف طبارة: "والصيام سبيل إلى البر والإحسان فالغنى الصائم إذا أحس بألم الجوع أدرك ما يعانيه الفقير من جوع مستمر فيرق قلبه ويحسن إليه ولذلك جعلت كفارة من لم يستطيع الصيام لمرض أو عجز مثلاً: إطعام مسكين عن كل يوم يفطر فيه. كما فرضت فى نهاية شهر رمضان صدقة الفطر تدفع للفقراء، لأن النفوس فى ذلك الوقت تكون أسرع للإجابة أقرب للامتثال، فالصيام فقر إجبارى يتساوى فيه جميع طبقات الشعب، ومظهر عملى لوحدة المجتمع الإسلامى يجوع فيه الناس جوعاً واحداً، ويتألمون ألماً واحداً، ومن الآلام المشتركة تنشأ الرحمة، ومن الرحمة تحصل العدالة مما يذكر الصائم الغنى من واجبات نحو أخيه الفقير"[٤]. أى أن ما يعانى منه الصائم فى صومه من الجوع والعطش والحرمان مشتهياً الحلال كل ذلك يحرك فى الإنسان مشاعر الرحمة فتمتد اليد بالعطاء سجية عن طيب نفس، ومن ثم كانت السمة البارزة للصيام المواساة وفعل الخير والصدقة.

---

[١] وحى القلم ٦٨/٢ تأليف مصطفى صادق الرفاعى، ط دار الكتب العربى بدون- باختصار وتصرف يسير.
[٢] سورة البلد الآيات ١١-١٦.
[٣] هدية من مجلة منبر الإسلام، تحت عنوان: الصوم تربية إسلامية، للأستاذ/ أحمد المصيلحى المغازى، صـ١٥١، رمضان ١٣٨٩هـ- العدد التاسع- السنة ٢٤.
[٤] الخطايا فى نظر الإسلام صـ١٣٢.

يقول الشيخ/ سيد سابق: "والصيام فيه معنى المساواة بين الأغنياء والفقراء في الحرمان،وترك التمتع بالشهوات. وهذا من شأنه أن يرفع من نفس الفقير. إذ يجد الغنى مثله في القيام بهذه الفريضة.

كما أنه- أي الصيام- يفجر ينابيع الرحمة والعطف في قلوب الأغنياء، ويبعثهم على مواساة الذين ضاقت بهم سبل العيش فتتآلف القلوب وتذهب الأحقاد، ويتعاون الفقراء والأغنياء على النهوض بالمجتمع وتوفير الطمأنينة له"[١]. فالصائم حين يجوع يتذكر من هذا حاله في جميع أوقاته، فيحمله تذكره على الرحمة بالمساكين والفقراء. إذ الرحمة تنشأ عن الألم. والصيام طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس ومتى تحققت رحمة الغنى الجائع للفقير الجائع، أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ.

ولقد ضربت السيدة عائشة- أم المؤمنين- رضى الله عنها المثل الأعلى للأغنياء الذين قست قلوبهم، وتحجرت عواطفهم بإنفاقها مائة ألف درهم في يوم واحد على أبناء شعبها وهي صائمة وعليها ثوب خلق. فقالت لها تابعتها: لو أبقيت شيئاً نفطر عليه اليوم، فقالت السيدة عائشة: لو ذكرتني لفعلت. فبأي حديث بعد ذلك يؤمن أولئك الأغنياء الذين ألهاهم التكاثر فكنزوا وبخلوا؟ ألا فليكن ما فعلته السيدة عائشة – رضى الله عنها- درساً لهم، فقد بخلوا على أنفسهم بما أعده الله لغيرهم الكرماء الذين عرفوا حاجة الفقير فعاونوه، وعرفوا حاجة المسكين فعطفوا عليه.

يقول الدكتور/ عبد العزيز الربيعة: عن هذا الأثر الذي ينتج عن الصيام "وهو في أصل مشروعية – أي الصيام- رحمة وتيسير وفضل وإحسان، فهو فترة استجمام للجهاز الهضمي مما عاناه العبد طوال السنة من تتابع الطعام عليه في كل وقت، وهو يذكر الموسرين بأحوال إخوانهم الفقراء، ويحفزهم على مواساتهم والإحسان إليهم، ويروض النفس على الصبر عن الإسترسال وراء الشهوات والملذات، وهو أكبر عون على طاعة الله وتقواه، إذ أن من كبح جماح نفسه وحبسها عن الإسترسال في الشهوات والملذات وأخضعها لمنهاج معين في تناول الطعام والشراب والإمتناع منه طاعة لله وطلباً لمرضاته، فإن من استطاع ذلك حرى به أن يستشعر خوف الله ورجاءه، وأن يتذكر وقوفه بين يديه فيراقبه في كل أحواله، ويتقيه في جميع تصرفاته"[٢].

---

[١] إسلامنا للشيخ/ سيد سابق صـ١٣١.

[٢] صور من سماحة الإسلام تأليف الدكتور/ عبد العزيز عبد الرحمن بن على الربيعة صـ٦٢ مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ- ١٩٩٧م.

ومن أثر الصيام على الفرد والمجتمع المسلم: الوحدة والصدق والأمانة، فالصيام نظام عملى من أقوى الأنظمة الإشتراكية الصحيحة يفرضه الإسلام فرضاً ليتساوى الجميع فى بواطنهم وذلك لتسعد النفس الإنسانية بطريقة عملية فإن الإشتراكية الصحيحة حين يتساوى الناس فى الشعور لاحين يختلفون وحين يتعاطفون ويتراحمون بإحساس الألم الواحد لاحين يتنازعون بالرغبات المتعددة.

يقول الشيخ/ عبد الله آل جار الله: "وفى الصوم تنظيم الأمة فى المعيشة وإشعار بوحدة المسلمين، وجمع شملهم على الحق والهدى، فجميع المسلمين يمسكون عن الطعام والشراب فى وقت واحد، ويفطرون فى وقت واحد إذا كانوا فى إقليم واحد، لايتقدم أحد منهم على أحد ولا يتأخر عنه.

وفى الصوم يتمثل الصدق والأمانة فى العبادة لأنه أمر موكول إلى نفس الصائم وأمانته وعفته وشرفه، ولا رقيب عليه منه إلاَّ الله تبارك وتعالى. لذا فقد جعل الله عمل العبد له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلاَّ الصيام فقد اختصه لنفسه ولايعلم مقدار ثواب الصيام إلاَّ الله. فعن أبى صالح الزيات أنه سمع أبا هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: قال الله ﷻ (كل عمل إبن آدم له إلاَّ الصوم فإنه لى وأنا أجزى به) [١]،[٢].

ومن أثر الصيام أيضاً: صفاء الروح والقرب من الله ﷻ:

يقول الشيخ/ سعيد حوى: "فالصوم يمد الروح بالشفافية والصفاء والإشراق والقرب من الله ﷻ فيصير الإنسان الصائم ملائكى الطبع، نورانى الخواطر، ربانى السلوك يذوق حلاوة العبادة ويحس مباهج الورع ولذته، ويشعر أنه قريب من ربه ﷻ ولذلك يقول الله تعالى بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بالصيام: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [٣].[٤]".

وخلاصة القول: إن للصوم غايتين:

الأولى: صفاء النفس وضبط الإرادة مما يمكن الإنسان من التدرج فى مدارج الكمال الأخلاقى، فيحقق معنى إنسانيته فى هذه الحياة.

والثانية: الترقى بالمجتمعات البشرية عن طريق الترقى بالأفراد أخلاقياً. ولما كان فى الصوم زهد وتقشف وصبر على الحرمان من مألوفات الحياة ولذاتها التى يركن إليها أفراد

---

[١] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب فضل الصوم ٢/٦٧٠.
[٢] بهجة الناظرين فيما يصلح الدنيا بالدين صـ١٥٢.
[٣] سورة البقرة الآية ١٨٦.
[٤] الخطايا فى نظر الإسلام صـ٢٣٣.

البشر فى أحوال الترف، كان الصوم شعاراً للمجتمعات الجادة التى تبنى نفسها لا المجتمعات المترفة المجتمعات التى تحتمل آلام الحرمان من اللذات والكماليات فى سبيل بناء حياة أفضل، وتحقيق تقدم اجتماعى أكمل.

وهكذا نرى أثر الصوم فى تكوين المجتمع المثالى بخلق المواطن الصالح، وتوجيه سلوكه، وتهذيب نفسه، وبناء أخلاقه، وغرس الإرادة القوية فى طبعه، وإيقاظ الضمير الحى فى أعماقه. والأفراد لبنات المجتمع إذا صلحوا صلح، وإذا فسدوا فسد.

آداب ينبغى مراعاتها:

وللصوم فى الإسلام آدابه وتقاليده التى تجعل منه فريضة ذات قدسية خاصة، فكل عمل ابن آدم له إلاَّ الصوم فإنه لله جلت حكمته، وهو الذى يجزى به، لأن الصيام أبعد الطاعات والعبادات عن المباهاة والرياء، فقد يخلو الصائم بنفسه ويجلس وحده بعيداً منفرداً عن الناس ويكون أمامه وحواليه من ألوان الطعام والشراب مالذ وطاب وهو يتلوى من الجوع ويئن من العطش ولا يسمح ليده أن تمتد بحال إلى شئ مما بحضرته، ولايمنعه من ذلك إلاَّ خوفه من ربه عز علاه، وآداؤه لتلك الأمانة التى إئتمنه مولاه عليها، وإذا تولى العلى القدير الجزاء على الصوم بنفسه من بين ما تعبدنا به، كان الجزاء بلاشك عظيماً، فالصائمون المخلصون فى صيامهم المتقون لربهم سيوفون أجورهم يوم القيامة بغير حساب.

وهناك آداب ينبغى أن يأخذ بها المؤمن حتى يكتمل صومه ويؤتى ثمرته:

١- السحور:

وهو ما يتزود به من نوى الصيام قبيل الفجر ليستعين به على صيامه، ويتقوى به على هذه الطاعة. فيؤديها بارتياح وطمأنينة دون مكابدة أو ضجر، ودون جهداً أو ملل.

٢- تعجيل الفطر:

وذلك لكى تتم فرحة الصائم بإفطاره، وذلك تحدثاً بنعمة الله عليه واستجابة لأمر الله له، وتحصيلاً للخيرية.

وفى ذلك فرحة النفس وإسعادها بما يضفى عليها خلق الرضا والسكينة والطمأنينة ومن هنا للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه ﷻ.

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: (يقول الله ﷻ الصوم لى وأنا أجزى به يدع شهوته وأكله وشربه من أجلى والصوم جنة وللصائم فرحتان فرحة حين يفطر وفرحة حين يلقى ربه ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك) [١].

---

[١] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب فضل الصوم ٢/٦٧٠.

٢- الدعاء عند الفطر وأثناء الصيام:

وذلك لأن فى الدعاء تعويد للنفس على اللجوء إلى الله تعالى دون سواه، وفى هذا عزة للنفس، واستغناء لها عما عند غيره، واستعلاء بما عنده على ما عند سواه، قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١).

... ومن دواعى الألم أن نرى بعض الصائمن قد بعدوا عن الحكمة وأخطأوا الفقه الصحيح فى معنى الصيام، فأخلاقهم ما تزال فى شدتها التى درجوا عليها، ولم يقل الصوم من حدتها، بل زاد فى قسوتها، نرى أحدهم يجدد ثيابه، ولا يجدد آدابه، ويتأنق فى الحلة الجديدة ولا يتجمل بالسجايا الحميدة! ويتفنن فى تلوين الموائد وإعدادها للبارعين فى مجال النظر والتنكيت، وهو يرى وجوه المساكين مصفرة كالشمس عند الغروب، ونفوسهم الجائعة تئن من بلايا الفاقة وكوارث الخطوب!... وكم من الصائمين من لو وزن صومهم بميزان السماء لألقى به فى وجوههم عبث كل العبث أن يصوم الصائم ثم يسرق أو يظلم أو يسب أو يغتاب، أو يوغل بعينيه فى الأعراض بدل أن ينهى عن المنكر أو يوصى بالفضيلة، كل هؤلاء وأمثالهم عابثون، وليس لهم من صومهم إلاَّ الجوع والعطش.

من أجل ذلك يقتضى من المسلم أن يراعى أموراً حتى يكتمل صومه ويؤدى ثمرته:

الأول: "غض البصر، وكفه عن الإتساع فى النظر إلى كل ما يذم ويكره، والى كل ما يشغل القلب، ويلهى عن ذكر الله.

الثانى: حفظ اللسان عن الهذيان والفحش ، والجفاء، والخصومات، والمراء، وإلزامه السكوت، وشغله بذكر الله سبحانه وتعالى، وتلاوة القرآن، والإشتغال بما هو نافع فهذا هو صوم اللسان.

الثالث: كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه ، لأن ما حرم قوله، حرم الإصغاء إليه.

الرابع: كف بقية الجوارح عن الآثام، وعن المكاره، وكف البطن عن الشهوات وقت الإفطار، فلا معنى للصوم، وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام، فمثال هذا الصائم مثال من بنى قصراً، ويهدم مصراً.

الخامس: ألا يستكثر من الطعام، وقت الإفطار بحيث يمتلئ جوفه والغريب أن المسرفين الذين تستبد بهم شهوات البطون فى رمضان فسيكثرون لها من الطعام ثم يقبلون عليه وقت الإفطار، يلتهمون منه بلا حساب أشكالاً وألواناً: حاراً وبارداً، وحلواً وحامضاً،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦.

ويظلون على هذا إلى نهاية الشهر، فتصبهم من ذلك حتماً أدواء البطنة وعلل التخمة، وإن كانوا من قبل مرضى ازدادوا مرضاً فالبطن ينبوع الشهوات، وبيت الداء، ومزرعة الآفات ورسول الله ﷺ يقول: (ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لامحالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه قال أبو عسيى هذا حديث حسن صحيح) [١]، فهذا أصح للبدن وأكمل للسلامة، ومن الآداب: ألاَّ يكثر النوم بالنهار، حتى يحس بالجوع والعطش، ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك طبعه، ويستديم فى كل ليلة قدراً من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده.

السادس: أن يكون قلبه عند إفطاره معلقاً، مضطرباً بين الخوف والرجاء،إذ ليس يدرى: أيقبل صومه فهو من المقربين؟ أو يرد عليه فهو ومن الممقوتين؟ [٢].

وبذلك يتجلى الجانب الروحى فى الصيام، إذ المقصد من مشروعيته أن تصوم جوارح الصائم كما يصوم بطنه، وإلاَّ فلا قيمة لجوع وعطش مصحوبين بارتكاب الموبقات، وعدم الوقاية من الشرور التى لاتزيد الصائم المستهتر فى صومه من الله إلاَّ بعداً.

إذ ليس المقصود بالصوم المفروض على الناس أن يدعوا طعامهم وشرابهم ثم يطلقون لألسنتهم العنان: تلوك الأعراض وتنتهك الحرمات وتؤذى الأسماع ببذئ الكلام وسقط القول.. ولنفوسهم الحرية فى تحقيق شهواتها ونزواتها وملذاتها.. كلا فإنه ليس لله حاجة فى مثل هذا الصيام الذى ليس لأصحابه منه إلاَّ الجوع والعطش.....

إن الصوم الصحيح الذى دعانا الدين إليه وفرضه علينا فى القرآن الكريم.. هو الصوم الذى تجرد فيه الإنسان عن شهواته، واللسان عن عثراته وسقطاته والقلب عن حقده وحسده وضغينته.

إن الصوم الكامل المثاب عليه لايتفق مع الأخلاق الوضيعة، والصفات الرذيلة والقلوب المريضة، ولكنه يحتاج إلى صفات مثالية، رفيعة ونفوس شفافة بريئة تحب الخير، وتصنع المعروف، وتألف الإحسان، وتمقت الإثم وتكره الظلم، وتجنح إلى السلم ولا تميل إلى الشر لأنه يقطع الصلة، ويمحق المحبة، ويزيل المودة، ويمزق الأسر، ويفرق الجماعة، من أجل هذا وذاك حذرنا المربى الأول سيدنا محمد ﷺ من المساوئ والمفاسد لما يترتب عليها من أضرار بالغة الخطورة بالفرد والجماعة فقال: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع

---

[١] رواه الترمذى، كتاب الزهد، باب ٣٤ صـ ٤٣، وقال حديث حسن صحيح ط دار الفكر ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

[٢] إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى ٢٣٤/١، ٢٣٥ بتصرف.

طعامه وشرابه) [١]، وقال: (الصيام جنة فلا يرفث ولا يجهل وإن إمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم مرتين والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى الصيام لى وأنا أجزى به والحسنة بعشر أمثالها) [٢].

يقول فضيلة الشيخ الدكتور/ عبد الغنى الراجى: "والصيام فى أول مراتبه ودرجاته، إمساك عن الطعام والشراب والجماع، فهو تجريد عن المادة وعلائقها، وارتفاع فوق مستوى البهيميات والحيوانات، وانطلاق إلى مستويات عالية من الرفعة والسمو، وقوة العزيمة وصلابة الإرادة والتشبه بالملائكة والملأ الأعلى، فى التنزه عن الشهوات والإلتزام بالشفافية والروحانية، إستعداداً للإقبال على الله، وابتعاداً عما يعوق الوصول إلى رضاه، ولهذا يقول رسول الله ﷺ (الصيام جنة فلا يرفث ولا يجهل وإن أمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم مرتين والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى الصيام لى وأنا أجزى به والحسنة بعشر أمثالها) [٣]".

والصيام فى ثانى مراتبه ودرجاته أن يبتعد بالصائم عن جميع المعاصى التى تغضب الله، فيصوم بلسانه عن اللغو المحرم والكلام الفاحش البذئ ويصوم بجميع جوارحه عن استعمالها فيما حرم الله، يداً كانت هذه الجوارح أو قدماً أو سمعاً أو بصراً لا يستعملها إلاَّ فيما خلقها الله من أجله، ملتزماً طاعة ربه ومرضاته فى كل ما أمر به ونهى عنه، ففى الحديث النبوى الشريف: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه)[٤].

والصيام فى ثالث مراتبه ودرجاته، يؤول بصاحبه إلى الصوم عما سوى الله، فيصير ربانياً خالصاً، روحانياً خالصاً، فى أفكاره وتصرفاته، وحركاته وسكناته، إذا سأل، سأل الله وإذا استعان، استعان بالله، وإذا خاف، خاف الله، وإذا أبغض، أبغض أعداء الله، وإذا أحب، أحب الله، وإذا راقب، راقب الله، فهو بسبب إلى الله دائماً أبداً مشدود، يصدر فى كل ما يأتى ويذر عن متصل بالله الذى جعله نصب عينيه، يعبده كأنه يراه فإن لم يكن يراه فهو يراه:

إذا صح منك الود فالكل هين ** وكل الذى فوق التراب تراب
فليتك تحلو والحياة مريرة ** وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ** وبينى وبين العالمين خراب

---

[١] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به فى الصوم ٢/٦٧٣.
[٢] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب فضل الصوم ٢/٦٧٠.
[٣] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب الصوم ٢/٦٧٠.
[٤] رواه البخارى، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به فى الصوم ٢/٦٧٣.

وهكذا يكون الصوم إمساك عن الطعام والشراب والشهوة نهار رمضان، ثم إمساك عن فعل المعاصى وترك الطاعات، ثم إمساك عما سوى الله، وإلتزام جانبه، والفناء فى ذاته العليـــة، والإسغراق فى أنواه السنية"[١].

ولعل المرحوم **أحمد شوقى** يصور الصوم لنا أبلغ تصوير حينما يقول: "الصوم حرمان مشروع وتأديب بالجوع وخشوع لله وخضوع... لكل فريضة حكمة... والصوم ظاهرة العـذاب وباطنه الرحمة... يستثير الشفقة ويحض على الصدقة ويكسر الكبر ويعلم الصبر... ويسن خلال البر... حتى إذا جاع من ألف الشبع وحرم المترف أسباب المتع... عرف الحرمان كيف يقـع، وألم الجوع إذا لذع"[٢].

"إن فى الصيام تقديم رضا الله تعالى على رضا العبد والنفس، وتضحية بالإمساك عـن سبب الوجود الشخصى، وهو الطعام والشراب، والوجود النوعى وهو الشهوة الجنسية فى ابتغاء وجه الله وحده، ولا يتقرب به لأحد سواه، ومن هنا كان ثوابه مضاعفاً، يتولى الله وحده تقـديره بعيداً عن تقدر الحسنات الأخرى بعشر أمثالها، وفيه إحساس بقدر النعمة بـالتى حـرم منهـا، فيشكر الله عليها، وفى توقيتها بشهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن، تـذكيراً بنعمـة الرسـالة المحمدية، والهداية القرآنية، فيكون الشكر عليها بالعمل بها، وفى فترة إشراق الـروح بالصـيام وتلاوة القرآن لايرد الدعاء، وفى الصيام تخليص للإنسان من رق الشهوة، وعبادة المادة، وتربية عملية على السيطرة على الغرائز، وإشعار للإنسان بأن الحريات مقيدة من أجل الخيـر، وهـذا جهاد شاق، يعود الصبر، ويعلم قوة الإرادة والعزيمة، والإستعداد لمواجهة كل الإحتمالات.

وإذا تحرر الإنسان من سلطان المادة اتخذ لنفسه جنة قوية تحصنه ضد الأخطار، التـى ينجم أكثرها عن الإختلاط والإستسلام للغرائز والأهواء، والصائم عن المحرمات التى تـدعولها الشهوة، رجل عزيز كريم يشعر بآدميته، وامتيازه عن الحيوانات التى تسيرها الغرائز، كما يعود التواضع، وخفض الجناح، ويعرف قدر نفسه، ويحس بضعفه، ومن عرف قدر نفسه، تفتحت له أبواب الخير، وذلك إلى جانب ما فى الصيام من صحة نفسية وبدنية، كما أن فيه تعويـداً علـى النظام وتوفير واقتصاد والصائم حين يحس بحرارة العطش، ومرارة الجوع، تتحرك يده، وتمتد بالخير والبر، ولهذا كان السمة البارزة للصيام هى المواساة، وإعطاء الصـدقات، ولـذا كانـت شعيرة يوم العيد هى زكاة الفطر التى هى بمثابة امتحان للصائم بعد الدروس الطويلة التى تلقاها

---

[١] هدية من مجلة منبر الإسلام، رمضان ١٣٩٢هـ- أكتوبر ١٩٧٢م، تحت عنوان: رمضان والروح لفضـيلة الدكتور/ عبد الغنى الراجحى صـ١٥.

[٢] المرجع السابق صـ٨٢، تحت عنوان: الصوم تاريخاً وتشريعاً بقلم الأستاذ/ أحمد يوسف أحمد.

فى رمضان، والصيام الكامل عن كل المشتهيات، يكف عن الكذب والزور والفحش والغش، وسائر المحرمات، ويعود الإنسان على الإخلاص فى العمل ومراقبة الله فى السر والعلن"[١].

نعم... إنه بالصوم يظهر سلطان الإرادة وقوة العزيمة... وتتجلى ملكة المراقبة لله تعالى فى الصائم الذى ينال منه الجوع والطعام بين يديه... ويشتد به العطش والماء المثلج أمام عينيه... ويتوق إلى زوجته وهى حاضرة لديه؟ ولكنه يعرض عن هذا كله بوازع الإيمان بالله... والخوف منه.. لأنه يعلم السر وأخفى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٢]، فالصائم الذى يتغلب بقوة إرادته وسلامة عقيدته على نزعات الأهواء.. ونزعات الشيطان، لانتازعه نفسه أكل أموال الناس بالباطل.. ولا العبث بأعراضهم ولا ارتكاب محرم.. ولا يخشى فى الحق لومة لائم.. وأن الذى يحصل على هذه المزايا بواسطة الصوم.. هو الذى يدرك سر التشريع الذى عناه الله سبحانه فى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣].

وصفوة القول: هذه الآثار الحسنة فى فريضة الصوم وما تتركه من عواقب طيبة فى دين المرء وخلقه ودنياه، تجعلنا ندرك الحكمة السامية من قوله تعالى فى شأن الصوم والصائمين ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٤]، وتتركز كل هذه الفوائد وغيرها كثير مما لا يتسع له المقام فى كلمتين اثنتين ذكرهما الله تعالى تعليلاً لحكمة الصيام، حين قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، بعد قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[٥].

وبعد... فإن الصيام الذى يثمر هذا الثمار الطيبة هو الصوم الحقيقى الذى يمثل معنى الإمساك عن جميع الشهوات، والذى يقلل فيه من الطعام والشراب ويقتصر منه على ما يشعر النفس بالجوع، أما الصوم الذى يستعد له بإعداد مالذ وطاب من المطعومات والمشروبات، وتحيا لياليه بالسهرات المنطلقة والترتيبات الخاصة التى تصرف عن الروحانية والإشراق، وتباعد على الإنغماس فى الشهوات، مثل هذا الصوم يضر ولا يفيد، ويتعب ولا يريح، ويزيد النفس

---

[١] بيان للناس من الأزهر الشريف ٢/١٨٧- ١٨٨ بتصرف يسير.
[٢] سورة النازعات الآيتان ٤٠-٤١.
[٣] سورة البقرة الآية ١٨٣.
[٤] سورة البقرة الآية ١٨٥.
[٥] سورة البقرة الآية ١٨٣.

إنطلاقاً ولا يحد من جماحها ويرهق البدن ويخل بميزانية الأسرة، ويؤثر إلى حد كبير على الميزانية العامة ميزانية الخلق والمال معاً.

فليكن صيامنا محققاً لحكمة التشريع، ولنتقرب إلى الله بإخلاص وسخاء نفس فاللهم ارزقنا إيماناً خالصاً وأعنا يارب على عبادتك ووفقنا لآداء فريضة الصيام التى فرضتها وقاية ومنفعة للعباد.

وبعد... فهذه كلمات وجيزة فى فلسفة الصوم، ولاصوم يحتاج إلى بيان أكثر من ذلك، وحسبنا أن من أخلص فى هذه العبادة كان له مع الله ومع الناس شأن آخر، وبعد أن ألقينا الضوء على أثر الصوم على الفرد والمجتمع المسلم، ننتقل إلى الحديث عن عبادة أخرى، ألا وهى حج بيت الله الحرام، فنقول وبالله التوفيق...

obeikandl.com

المبحث الخامس

الحج وأثره على الفرد والمجتمع المسلم

obeikandl.com

الحج وأثره على الفرد والمجتمع المسلم

مقدمة

لقد جاء الإسلام مشتملاً على ما ينفع العباد فى دنياهم وأخراهم، فما من عبادة شرعت أو دعا إليها القرآن إلا وكان لها أبلغ الأثر فى تهذيب النفوس وتطهير القلوب وتنوير العقول.

فمثلاً دعا الإسلام إلى الصلاة التى هى صلة بين العبد وبين الرب وجعل ثوابها فى جماعة أفضل من ثوابها منفرداً بسبع وعشرين درجة ليكون اجتماع المسلم بأخيه المسلم سواء أكان غنياً أو فقيراً.. قوياً أو ضعيفاً.. داعياً إلى التآلف والتآزر والتواضع.. موجباً للتعاون والتناصر.. باعثاً على المحبة وصدق المودة.. قاضياً على ما يوجد فى النفوس من شحناء أو حقد أو بغضاء.. كذلك أمر الإسلام باجتماع أكبر يعقد كل أسبوع ليتدارس المسلمون فيه ما يصلح عللهم، وما يقضى على أمراض قد تظهر فى نفوس بعضهم، وليطمئن كل مسلم على حال أخيه، وليتزود الجميع بالمواعظ النافعة التى تبعث على الرحمة والمحبة والإخاء والوفاء والإتحاد.

وهذه المعانى الجميلة والنصائح الغالية نلتمسها فى الجمعة والعيدين وتقوى هذه المعانى وتعظم العبرة وتشرق المنافع فى الإجتماع الأعظم والمؤتمر الأكبر عند بيت الله وفى مهبط الوحى عند أول بيت وضع للناس.. هذا البيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً وألف حوله القلوب وحبب فيه النفوس وجعلهم يأتون إليه من كل فج عميق بقلوب خالصة ملؤها الإيمان ونفوس صافية مشرقة، جاءوا من كل صوب ليشهدوا منافع لهم وليذكروا اسم الله فى أيم معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

إن المسلمين يجتمعون من مشارق الأرض ومغاربها ويلتقون وليس فى القلوب إلاَّ الطاعة الخالصة والرغبة الصادقة فى عفو الله ورحمته.

فهو اجتماع ليس فيه تنافس على دنيا... أو تزاحم على باطل... أو اجتماع على ضلال وبهتان.. أو انقياد لشهوة... بل هو اجتماع تزول فيه الفوارق بين الكبير والصغير والغنى والفقير.. والرئيس والمرءوس.. وتهون فيه قيمة الدنيا ويصغر ما فيها من جاه ومتاع.

هنالك يشعر المسلم بالفروق الأرضية وقد زالت... والحواجز الجنسية وقد انمحت... فليس هناك إلاَّ رابطة الإسلام تسيطر على النفوس وراية الدين ترفرف فوق الرؤوس وغرض واحد يأتلف حوله جميع الناس.

غايتهم الطاعة، وهدفهم العبادة... قلوبهم خاشعة.. ونفوسهم ضارعة.. يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور.

تعريف الحج:

جاء فى مفردات غريب القرآن: "أصل الحج القصد للزيارة وفى تعاريف الشرع قصد بيت الله تعالى إقامة للنسك، فقيل: الحَج والحِج، فالحِج مصدر والحِج اسم، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، ويوم عرفه.

والحُجَّة: الدلالة المبينة للمحجة، أى المقصد المستقيم الذى يقتضى صحة أحد النقيضين، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ (١)،(٢).

ويقول الجزائرى: "الحج فى اللغة: هو القصد إلى معظم، وفى الشرع: أعمال مخصوصة، تؤدى فى زمان مخصوص، ومكان مخصوص على وجه مخصوص"(٣).

ويقول الإمام الأكبر/ محمود شلتوت: "الحج عبادة معروفة تنتظم من الإنسان قلبه وبدنه وماله،وليس ذلك لغيرها من العبادات، يقوم بها المستطيع من المسلمين فى زمن معلوم، وأمكنة معلومة، إمتثالاً لأمر الله تعالى، وابتغاء مرضاته، وتبتدئ تلك العبادة بنية الحج خالصاً لله، مع التجرد من الثياب المخيطة، ومن صنوف الزينة والترف، وتنتهى بالطواف حول بيت الله الحرام"(٤).

نستخلص مما سبق أن: "الحج فى الإسلام معناه قصد البيت الحرام بمكة لآداء المناسك التى شرعها الله، على الصورة التى رسمها الإسلام، وطبقها الرسول ﷺ عملياً بنية خالصة للحج لاغير، لايقصد به مجرد السياحة أو التجارة، بل هو قصد المسجد الحرام للنسك "العبادة".

والمقصود منه: هو تعويد النفس وتدريبها على الإستعداد ليوم الرحيل.. الرحيل إلى الله، وإعداد العدة ليوم لقياه، بدءاً من مفارقة الأهل والأوطان والبلدان إلى بلد الله الحرام تلبية لأمر الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٥).

وتكون الإستجابة حينئذ: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك، وتبدأ الرحلة.. حتى إذا رأى بيت الله الحرام قال الحاج: "اللهم زد هذا البيت

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٩.
(٢) مفردات غريب القرآن ٢٢١/١، والمعجم الكبير ٩٧٧/٢.
(٣) الفقه على المذاهب الأربعة للجزائرى، كتاب الحج ٦٣١/١.
(٤) الإسلام عقيدة وشريعة صـ١١٢.
(٥) سورة الحج الآية ٢٧.

تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وأمناً،وزد من شرفه وكرمه وعظمه تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وأمناً"[١].

حكمة مشروعيته:

إن عبادة الله تعالى تقتضى القيام بالتكاليف دون الحاجة إلى فهم أسرارها، والوقوف على الحكمة منها ضرورة إيمان العبد بأن أفعال الله سبحانه لاتخلو عن حكمة وإن قصرت العقول عن فهمها ولم تصل إلى إدراك سرها، كما قال سبحانه فى تشريع القتال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [٢].

والله سبحانه وتعالى يعلم أن العباد ليسوا على درجة واحدة من التسليم والإنقياد ولهذا بين لهم بعض نواحى الحكمة فى هذه التشريعات، يأتى بها مجملة أحياناً ومفصلة أحياناً أخرى، وتأتى الأحاديث النبوية فتوضح جوانب هذه الحكمة وتكشف عن بعض أسرارها، ولم يحظر سبحانه على الفكر أن يسرح فى تفهم هذه الحكمة على ضوء ما جاءت بها النصوص، فما وصلت إليه العقول لايغير حكماً قرره الإسلام، ولكنه يدعمه لتنشط النفس لآدائه، وتزداد إيماناً بحكمته.

ومن هنا احتفظ الله سبحانه بسر بعض التكاليف فلم يبينه ولم يشر إليه، ليمحص إيمان المؤمنين ويميز الخبيث من الطيب ومثل له العلماء بالحروف المتقطعة فى أوائل بعض السور، وببعض الأحكام الواردة فى ثنايا العبادات التى منها مثلاً رمى الجمرات فى الحج.

"ومهما يكن من شئ فإن الحكمة العامة تتلخص فى نقطتين أساسيتين:

أولاهما: ربط المخلوق بالخالق، لأنه هو الذى خلقه ثم رزقه ثم يميته ويحاسبه، فهو منه مخلوق وإليه راجع، فلا تنقطع صلته عن الله بدءاً ونهاية.

وثانيهما: إعداد العبد للحياة على الأرض ليحقق خلافته فيها.

ومن مظاهر النقطة الأولى: الإيمان بالله واليوم الآخر، والتوجه إليه سبحانه بالعبادة وطلب المعونة على ما يفيد قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [٣]، ومن مظاهر النقطة

---

[١] المجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق، العدد العاشر ١٩٩٨م تحت عنوان: جوانب الأخلاق فى الشريعة الإسلامية للدكتور/ سيد عبد العزيز السيلى صـ ٩٨٤- ٩٨٥.

[٢] سورة البقرة الآية ٢١٦.

[٣] سورة الفاتحة الآية ٥.

الثانية: الأخلاق الفردية والإجتماعية والتنظيمات الخاصة والعامة فى ميادين الفكر والسياسة والإقتصاد والعمران وسائر الميادين التى تحدد فيها الحقوق والواجبات.

وعلى ضوء هذه الحكمة العامة بشقيها يمكننا أن نوضح حكمة تشريع الحج فيما يلى:

قال تعالى في بيان حكمة الحج المفروض من أيام سيدنا إبراهيم عليه السلام والمأمور به فى شريعة سيدنا محمد ﷺ كأحد الأركان التى بنى عليها الإسلام: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (١).

فالمنافع التى يشهدها الحجاج منافع عامة جامعة تشمل كل منفعة دينية ودنيوية، مادية ومعنوية، سياسية واقتصادية، ثقافية واجتماعية وغيرها.

ونفصل هذه المنافع على ضوء حكمة التشريع العامة للعبادات:

أولاً: صلة العبد بربه تظهر فى الحج عندما يحرم الحاج ملبياً مقراً بوحدانية الله شاكراً له أنعمه: "لبيك اللهم لبيك – لبيك لا شريك لك لبيك- إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك"، وحين يطوف بالبيت سائلاً متضرعاً يستمنح الله عفوه وبره، وحين يقبل الحجر ويستلمه معاهداً ربه على الطاعة، وفى سعيه بين الصفا والمروة كالمتردد قلقاً على مصيره هل تفضل الله عليه عند طوافه فقبله أو لا، وفى وقوفه بعرفه متجرداً من كل زينة خاشعاً ضارعاً فى ذلة وانكسار يباهى الله بأهل عرفات الملائكة إذ أتوه شعثاً غبراً من كل فج عميق يرجون رحمته ويخشون عقابه، وفى رميه للجمرات تشبه بحربه للشيطان، وفى الهدى والفداء رمز للتضحية بالدم وبأغلى ما يملك الإنسان إيثاراً لما عند الله وجهاداً فى سبيله. وفى الحج ارتباطاً بمهد النبوة وعمارة لبيت الله، وتذكر لحوادث ماضية كانت سبباً قدسية هذا المكان من وجود هاجر وإسماعيل وحيدين فى هذا الوادى ولطف الله بهما فنبعث زمزم وعمر المكان وبنى أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين. وذلك كله إلى جانب ذكر الله بالتكبير والتلبية عند المشاعر فى عرفات والمشعر الحرام ورمى الجمرات، ما يدل على حكمة الحج فى ربط العبد بخالقه.

ثانياً: الإحرام بالحج فى ملابس متواضعة والبعد عن مظاهر الترف، درس عملى فى التواضع وعدم الغرور بزخارف الحياة، وفيه نكران اللذات وتركيز على الإخلاص لله فى الطاعة.

ثالثاً: لاينكر أحد بأن الحج فرصة لعقد مؤتمر إسلامى يتخطى حدود البيئة- الجنسى واللغة ويعلو على الفوارق والعصبيات- وينبغى أن نناقش فيه المشاكل وتوضع الحلول وتتلاقى

---

(١) سورة الحج الآيتان ٢٧-٢٨.

فيه الأفكار وتتلاقح الثقافات وتتبادل المنافع من كل لون، توكيد للوحدة الجامعة التى يقرها سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (١).

ومظاهر الوحدة فى هذه الفريضة كثيرة يدركها من يتأمل قليلاً فى أسرارها ومنها:

أولاً: وحدة المكان الذى تؤدى فيه مناسك الحج.

ثانياً: وحدة الزمان التى تقع فيه هذه الفريضة.

ثالثاً: وحدة القول والعمل اللذين يلتزمهما الحاج.

رابعاً: وحدة المظهر الذى يتحتم على الحاج أن لايخالفه مهما كان مكانه فى المجتمع"(٢).

وبهذا تظهر الحكمة الإلهية من جعل هذه الفريضة ركناً من أركان الإسلام حيث تجتمع الألوف المؤلفة من المسلمين فى صعيد واحد فى مؤتمر عام يشع بالروحانية الخالصة، لهدف موحد هو خدمة الإسلام، ومعالجة قضايا الأمة المسلمة، ووضع التخطيط المناسب الذى يمكن للمسلمين فى الأرض دينياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً... فيرهبهم العدو، ويحسب لهم كل حساب.

يقول الدكتور/ عبد العزيز الربيعة: "ويقصد منه – أى الحج– فى أصل مشروعيته الوصول إلى أغراض نبيلة، ومعان سامية فى مجال الدين والدنيا، فبه تحصل تربية النفس على البذل وتحمل المشاق فى سبيل مرضاة الله والصبر على ذلك، وبه يحصل تهذيب الأخلاق وتحمل الأذى، وبه يحصل اللقاء بين المسلمين فى جميع أقطار الدنيا، والتعارف بينهم وتعاون بعضهم مع بعض فيما يحتاج إلى ذلك، وبه يحصل اللقاء بين العلماء وعرض المشكلات التى تعرض بين المسلمين فى جميع أقطار الدنيا وبحثها والتشاور فيما ينتهى إليه من حلول"(٣).

ولاعجب فإن مبادئ هذا الدين بنَّاءه وإن تعاليمه موجهه، وإن أحكامه مربية مهذبة رادعة، لذا رضيه الله ديناً لعباده منذ نشأتهم، فهو دين قديم بقدم البشرية. هدف هذا الدين عبادة الله وحدة لاشريك له ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٤).

ولهذه العبادة أصول ثابتة من بدء تشريع هذا الدين إلى الآن، دعا إليها رسل الله جميعاً، وهى التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، فهى عماد كل دعوة دعا بها كل رسول أمته، وهى ركائز الإسلام منذ أن شرعه الله للبشرية أول عهدها بالوجود، لم تتغير ولم تتبدل من

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٩٢.

(٢) مجلة منبر الإسلام، العدد ١٢، السنة ٢٩، ذو الحجة ١٣٩١هـ– يناير ١٩٧٢م، تحت عنوان: الحج والجوانب التعبدية فى العبادات لفضيلة الشيخ/ عطية صقر صـ١٥ وما بعدها بتصرف.

(٣) صور من سماحة الإسلام للدكتور/ عبد العزيز الربيعة صـ٦٨ بتصرف يسير.

(٤) سورة الذاريات الآية ٥٦.

لدن آدم إلى محمد عليهما الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(١).

وإنما كان التغيير فى كيفيات هذه الأصول بتغير الناس مع طول الزمن، لتجد كل طائفة فيها ما يناسبها ويوافق فطرتها لتتمكن من أداء ما وجب عليها، ولتساير العبادة فطرة الناس فى كل زمن وليكون هذا الدين صالحاً لكل زمان ومكان ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (٢).

وبعد... هذه بعض جوانب الحكمة فى شريعة الحج، وينبغى أن نفهم أن هذه الحكم الرشيدة التى ذكرت فى الحج ليست هى بذاتها الحكم التى يقصدها الله تعالى من شرعية الحج فإنها حكم قصدها الله ولم يطلع عليها أحداً فينبغى أن يؤدى الحاج حجه الذى أمره الله به غير ناظر إلى ما يترتب عليه من حكم دينية كانت أو دنيوية، فإن هذا لايضفى على المؤمن روح العبودية الحقة، وإنما عليه أن يقصد بعمله هذا مجرد امتثال أمر الله والإنتهاء عما نهى الله من غير بحث عن علته أو حكمته فإنه تعالى لا يُسأل عما يفعل وعلينا أن نتقبل أمره فى إخلاص وننفذه فى ثقة وإيمان ورضا ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣).

مكانة الحج فى الإسلام:

العبادات كلها تهدف إلى تحقيق معنى العبودية لله وحده والخضوع التام له سبحانه وامتثال أوامره وتنفيذها بصدق وإخلاص واجتناب ما نهى عنه برضى واختيار وطيب نفس قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (٤).

وهذه العبودية لله تخلص العبد من تسلط الشهوات وتحكم الأهواء ومن عبادة المادة وتمده بقوة روحية تعينه على آداء واجباته وتزوده بطاقات معنوية تساعدة على تحمل مسؤلياته فى خلافته عن الله فى عمارة الأرض وترشده إلى إحسان معاملاته مع أبناء أمته.

---

(١) سورة الشورى الآية ١٣.
(٢) سورة الروم الآية ٣٠.
(٣) سورة النساء الآية ١١٤.
(٤) سورة البينة الآية ٥.

وفريضة الحج أقوى العبادات فى تأكيد مظاهر العبودية الصادقة والتسليم التام لله والإذعان لأمره ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (١).

وتنوعت العبادات التعالج أمراض القلوب وعلل النفوس وتهذب الغرائز وتقوّم الطباع، كما تنوعت أدوية الأبدان، وقد تدرج الشارع الحكيم فى فرض العبادات فبدأ بالصلاة وهى فى مظهرها عبادة بدنية، ثم فرض الصوم عبادة روحية، وبعده فرضت الزكاة عبادة مالية، وأخيراً فرض الحج عبادة شاملة وفريضة جامعة لعمل البدن والقلب والروح والمال.

فهو رأس العبادات وخلاصة الطاعات وجامع القربات، ولهذا تأخر إفتراضه إلى السنة السادسة من الهجرة حتى تستعد له النفوس وتتهيأ القلوب لتذوق أسراره وإدراك مراميه، فكانت العبادات التى فرضت قبله تمهيداً له وتمريناً عملياً على تقبله وفهم معانيه. وإن كان الحج معروفاً فى زمن خليل الله إبراهيم وإسماعيل عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام إلاَّ أن المشركين أدخلوا فيه مظاهر الشرك والوثنية وابتدعوا وبدلوا وغيروا فطافوا بالبيت عرايا وتكبروا أن يقفوا مع الناس ويفيضوا حيث أفاضوا تعاظماً واستعلاء.

فتأخر الأمر بالحج فى الشريعة المحمدية حتى يستقر الإيمان الخالص فى القلوب ويعوض الناس عما شوه شريعة إبراهيم.

فكانت الصلاة مناجاة لله ودعاء وذكراً تنهى عن الفحشاء والمنكر، وكان الصوم رياضة روحية تعلم الصبر على مشتهيات النفس وتقوى إرادة الصائم على النضال والإحتمال وتعوده البر والرحمة والبذل والمواساة.. وكانت الزكاة إشتراكية عملية تقرب الطوائف وتذيب الفوارق وتحارب غريزة الحرص وعبادة المال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢)، وبعد هذه التربية الإلهية ومداواة العلل النفسية، كان الحج الذى يزيد صلة الإنسان ويربطه بالحقائق والمثل العليا ومكارم الأخلاق، وبه يتخلى عن الرذائل ويتحلى بالفضائل ويتجرد من النقائص والعيوب ويحلق فى آفاق القرب والصفاء، والتضرع إلى الله فى بيته الحرام مصدر الهداية والسكينة والأمن والسلام.

إن كل العبادات يؤديها المسلم فى وطنه بين أهله، إلاَّ الحج فلابد له من السفر إلى مكة ومفارقة الأهل ووطن البدن إلى وطن الروح والقلب ومنبع الإيمان ومهبط الوحى ومشرق الرسالة المحمدية ومكان الذكريات الخالدة والبيت العتيق وشعائر الله وحرماته والبلد الأمين.

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٢.

(٢) سورة التغابن الآية ١٦.

والحاج حين يحضر هذه المشاهد ويرجع بفكره إلى هذه المواقف ويذكر أماكن شهدت رسل الله الصالحين من المؤمنين السابقين ويعيش معهم بقلبه وروحه ويقتدى بهم ويخلص لله مثلهم ويفقه مناسك الحج فإنه يدخل بذلك فى رحاب التوحيد ويكون حنيفياً يربط إيمانه بإيمانهم ويصل حاضره بماضيهم فيحشر معهم قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۞ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [١]،[٢] والحج هو الشعيرة الوحيدة من بين شعائر الإسلام التى لاتؤدى إلا بصفة جماعية، وعلى هيئة مؤتمر عام يعرض فيه الحجاج ما عندهم من التجارب والمعارف والقوة ثم يستعرضون ما نزل ببعض الأمم من أسباب العزلة والتخلف، ويتبادلون الآراء فى كيفية إصلاح حالهم والوصول إلى ما يرجونه من تقدم ورقى، وهذه هى مظاهر الوحدة التى خص بها الحق جل وعلا هذه الأمة التى كانت خير أمة أخرجت للناس.

يقول الشيخ/ محمود شلتوت- رحمه الله تعالى-: مشيراً إلى مكانة الحج ومنزلته: "فالحج باعتبار مكانته فى الإسلام وغايته المقصودة منه للفرد والجماعة جدير أن يتجه إليه رجال العلم والرأى، ورجال التربية والثقافة ورجال النظام والإدارة، ورجال المال والاقتصاد، ورجال الشرع، والدين ورجال الحرب والجلاد.

جدير أن تعد إليه الطبقات ذات الرأى والحزم، ذات النظر والإجتهاد، ذات الإيمان الصادق والأهداف السامية، التى يجب أن يقصدها المسلمون فى حياتهم، جدير أن يتجه إليه هؤلاء جميعاً، فنراهم وقد نشرت عليهم مكة أجنحتها، وجمعتهم بكلمة الله حول بيت الله، يتعاونون ويتشاورون ويتعارفون، ثم يعودون إلى بلادهم أمة واحدة متحدة القلب، متحدة الشعور والإحساس"[٣]. وليست هذه هى غاية الحج وكفى، بل إن الحج فيه من الصلاة مناجاة الرب جل جلاله، والوقوف بين يديه فى بيته الأول المعظم الذى قال فى شأنه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [٤].

وفيه من الصيام الصبر على المشاق والخروج عن مألوفات العادات، وفيه من الزكاة معنى التضحية بالمال وبذله فى سبيل الله، بل فيه نسيان المال عامة والخروج من جميع مشاغله

---

[١] سورة النساء الآيتان ٦٩-٧٠.

[٢] مجلة منبر الإسلام- العدد ١٢، السنة ٢٣، ذو الحجة ١٣٨٥هـ- ٢٣مارس ١٩٦٦م، تحت عنوان: مكانة الحج بين العبادات للأستاذ/ محمود على أحمد صـ٥٨، ٥٩ بتصرف.

[٣] الإسلام عقيدة وشريعة صـ١٣٠.

[٤] سورة آل عمران الآيتان ٩٦-٩٧.

ومشاكله لأن الحاج يترك أهله وأمواله وأعماله فى بلده ولا يأخذ معه من المال إلاَّ ما يكفيه فى رحلته وما يجود به صدقته.

وفيه من القرب إراقة الدماء تعظيماً لمناسك الله وتوسعة على عباد الله، وتذكراً لسنة أبينا إبراهيم عليه وعلى نبينا محمد ﷺ أفضل الصلاة وأتم التسليم وفيه قبل ذلك كله- وبعد ذلك كله- الأساس الأكبر للإسلام وهو شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله يتجرد الحاج لها ويتفرغ وينادى بالتلبية مرة بعد مرة قائلاً: لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك"[1].

وقصارى الحديث: فإن الحج يعتبر مظهراً من مظاهر المساواة بين المسلمين، ورمزاً خالداً لاتحادهم، وملجأ رحباً لمواساتهم وتراحمهم، وملاذاً قدسياً لتزكية نفوسهم، وشعاعاً وضاء ينير ضمائرهم وبصائرهم، ومتوجهاً خالصاً إلى خالقهم ومنشئهم، ليتجلى عليهم بنعمائه التى لا تعد ولا تحصى، ويعمهم بخيراته وبركاته، ويشملهم بعظيم نعمائه، وجليل تجلياته، ومثابة وأمناً يثوبون إليه كل عام لآداء مناسكهم، والتحرر من آثامهم وذنوبهم، والتجرد من متاع الدنيا الفانى وزخرفها، وتطهير قلوبهم بذكر المولى تبارك وتعالى،ورفع نفوسهم عن اللغو والرفث والفسوق والجدل، وليكبروا الله ﷻ وليشكروه على ما هداهم ووفقهم الله ورزقهم وأولاهم، وليشهدوا منافع لهم تعود عليهم بالخير فى دنياهم وأخراهم.

أثر الحج على الفرد والمجتمع المسلم:

كثيراً ما يتساءل الإنسان: وماذا فى أعمالى هذه من عبادة؟ ماذا فيها من تقرب إلى الله؟ ما معنى أن أذهب إلى عرفات لمجرد الإقامة فيها ساعات، وآكل وأشرب وأنام وأشتغل بأعمالى التى أريدها دون أن يتحتم علىَّ ذكر أو عبادة أخرى؟ إن الإنسان ليكفيه أن يذهب إلى عرفة، فيضرب خيامه، ثم ينام، ويقوم ليأكل، ويصلى صلاته العادية، التى يؤديها فى أى مكان آخر، ويكفيه كذلك أن يوجد فى أى جزء من هذا المكان الفسيح عند غروب شمس التاسع من ذى الحجة، ولو لدقائق معدودة ثم يغادره، ومع ذلك "فالحج عرفة".

ويتساءل الإنسان: وماذا فى هذا من نسك وعبادة؟ ثم ماذا فى المبيت بمنى هذا الوادى الضيق المحرق.. من عبادة؟ وأى معنى نفهمه من الإقامة المزدحمة القاتلة فى هذا المكان؟ إنها إقامة كإقامة عرفات فى الأكل والنوم بل فيها يعود الإنسان إلى ملابسه العادية، ويندفع الناس فى مواكب مزدحمة إلى مكان رمى الجمرات، ويذهب الإنسان إليها، ومعه حصى التقطه من

---

[1] مجلة منبر الإسلام، العدد ١٢، السنة٢٥، ذو الحجة ١٣٨٧هـ- ٢٩فبراير ١٩٦٨م تحت عنوان: الحج عبادة العمر، للأستاذ/ أحمد مسلم إبراهيم صـ١٤٧.

المزدلفة، لعله لا يدرى معنى التقاطه من هنا كذلك، وترتفع آلاف الأيدى لتضرب هذه البناية الصغيرة القائمة، بسبع حصيات وتنتهى بذلك الشعيرة.. ويعود الإنسان وفى نفسه علامة إستفهام ضخمة عما فى هذا العمل من العبادة!؟

ثم إذا نزلنا للسعر بين الصفا والمروة، قطعنا المسافة بينهما ذهاباً وإياباً سبع مرات، بين درجات الصفا، ودرجات المروة، فأية عبادة فى هذا المسير؟ هل المهم من هذا كله هو مجرد الذكرى؟.

إذا فهمنا بعض هذه الأعمال والمناسك على أنها رموز لأعمال قديمة منذ عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام، فهى لا تكفى وحدها لجعل هذه الأعمال شعائر ومناسك، يترتب عليها هذا الغفران الذى يمنحه للحجاج، فماذا إذن فى هذه الأعمال من عبادة تطهر الإنسان من ذنوبه كيوم ولدته أمه؟.

إن الشارع الحكيم لابد له من قصد وغرض يرمى إليه من وراء هذه التكليفات الشاقة، التى أمرنا بها، نعم لابد إن الشارع يقصد إلى هدف من هذه الأعمال، التى رتب عليها كل هذا الجزاء الضخم، الذى لم تحظ به عبادة أخرى فإن من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته... فما هو هذا الهدف إذن؟. إنه ذلك الهدف الذى رمى إليه الإسلام بجوار ذكر الله، وبجوار إحياء ذكريات قديمة لسيدنا إبراهيم وولده إسماعيل، وهو يصح أن يكون عنواناً عاماً للحج وهو:

الصبر والإمتثال:

"الصبر على متاعب السفر، والإنتقال من بيت الإنسان، والراحة التى يركن إليها فيه، والخيرات التى تحيط به، إلى هذا المكان القفر الموحش، الذى يتميز بصخورة الصادة، وحرارته المحرقة أغلب أوقات السنة... فإن الذى يصدم المسافر من متاعب ومشاق لا تستطيع أن تعبر الكلمات عنه هنا، وليس له إلاَّ الصبر... والصبر العميق.. نعم الصبر على السفر، وتزاحم الناس فيه، وتسابقهم إلى توفير الأحسن لهم، والصبر على المخاوف التى تنتاب الإنسان، الصبر على الإقامة فى مكة، هذه البلدة الطيبة حقاً، لكنها – مع ذلك– الضيقة بالوافدين عليها، المختنقة بكثرتهم، وبغبارهم ورغباتهم الصبر على الإقامة فى أمكنة لم يألفها الإنسان، وربما لا يرضى بها إن كان فى بلاده، الصبر على تنافس الناس وآذاهم، وتغاير معاملاتهم، وتصادم رغباتهم، سواء فى ذلك الوافدون على مكة من الحجاج أو المقيمون بها من أهلها، الذين ينتظرون موسم الحج....

والإمتثال... الإمتثال لله العلى الحكيم، الذى كلفنا أداء هذه الأعمال، وتركنا دون أن يبين لنا فى جلاء الحكمة منها.. فإن حقيقة الإمتثال والخضوع تظهر فى مثل هذا المجال فى الطاعة العمياء، مع الثقة بالآمر، لأن ذلك هو ميزان العبد الصالح... ولأن الأعمال التى تظهر حكمتها للعامل، وتتضح فائدتها له، ويعرف الثمرة التى سيجنيها من عمله.. قد يندفع إليها، لاقتناعه بفائدتها الواضحة، وأسبابها الظاهرة، فلا تكون الطاعة فى أدائها ممحضة للآمر، لأن الأسباب والغايات فيها كان لها نصيب كبير فى اقتناع العامل بها، وعمله لها.

وبعكس ذلك الأعمال التى لاتظهر حكمتها أو دواعيها للعامل كظهور تلك، فإنه يقدم عليها ويعملها استجابة للآمر الموثوق به، ويتحمل فيها المشاق والصعاب، وهو لايدرى الحكمة التى جعلته يتحمل هذه الصعاب، وليس أمامه إلاَّ شئ واحد، جعله يقدم على ذلك كله، وهو التماس الرضا من الآمر، وحب الإمتثال له.

ومثل هذه الأعمال يمتحن بها الشخص، ويختبر مقدار إخلاصه... ولذا يسميها الفقهاء أعمالاً تعبدية، أى أن الدافع لها هو محض عبادة الله، وخضوع العبد له، دون أن يفهم الإنسان لها فوائد وأسباباً ظاهرة ملموسة، ومن أجل هذا سميت أفعال الحج شعائر، لأنها سمة الإخلاص والخضوع.

وليس هناك من الأمور التعبدية ما تبلغ المشقة فيها مبلغها فى الحج، ففيه إرهاق مالى وجسمى ونفسى، يعرفه تمام المعرفة كل من أدى فريضة الحج، مهما توفر له من أدوات السهولة والتيسير.. وذاق ما فيه من متاعب ومشاق، لايوجد عشر معشارها فى أية عبادة أخرى.

ومن أجل هذا كله قلنا: إن الغاية الكبرى من الحج هو تعويد الناس على الصبر والإمتثال فى الأعمال والأسفار.

ولاعجب إذ استظهرنا هذه الغاية من الحج، فالإسلام دين اجتماعى يعنى بتربية النفس، وتقوية الجسم، وتعزيز الروح الجماعية فى تابعيه، والحج بما فيه من وسائل متعددة لتهذيب النفس، وتقوية الروح، وتنشيط الجسم، أقرب العبادات إلى الفائدة العملية، والمعانى السامية التى لمسناها فيه"[1].

وأيضاً من آثار الحج العامة التى تعود على الفرد والمجتمع المسلم: الإعتصام: فليس من شك أن هذا الشعور بالتماسك، وهذا الإنسجام الذى يصدر الناس فيه عن قلب واحد فى سبيل

---

[1] هدية من مجلة الوعى الإسلامى ١٣٨٧هـ- ١٩٦٨م تحت عنوان: رسالة الحج للدكتور/ عبد المنعم النمر صـ١٩، وما بعدها بتصرف.

هدف واحد صورة تتجلى فى الحج إلى بيت الله الحرام وبهذه الروح- روح الوحدة الإجتماعية ما يمكن لتحقيق القوة الذاتية لمجتمعنا الإسلامى وحمايته من الأطماع التى تتربص به الآفات والبوائق التى تصيب الجماعات المتفرقة، فليس هناك شئ يدخل الخوف والفزع فى القلوب مثل التفكك والتفرق وليس هناك شئ يمكن الثقة والأمن والفرحة فى النفوس مثل الإعتصام بحبل الله.

يقول الدكتور/ عبد العزيز السيلى: "لاشك أن القرآن والسنة هما وحى الله تعالى لعباده ودستور الخالق للمخلوق يرشده ويهديه ويعالجه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١)، إن أكثر ما تعانيه البشرية من القلق والإضطراب هو وراء بعدها عن المنهج الذى يقوم حياتها، ويهديها سواء السبيل، وإن الإنسان كأخطر مخلوق فى هذا الوجود لهو فى أشد الحاجة إلى هذا المنهج يرشده ويهديه ويصونه، ويحافظ عليه. إن جهازاً من الأجهزة قد يصعب تشغيله وصيانته بدون تعليمات التشغيل والصيانة "كتالوج" فكيف بالإنسان وهو كما علمنا أعقد الأجهزة أو أخطرها فى هذا الوجود" (٢).

والإعتصام يكون بتنحية الشهوات، والأهواء التى تثيرها بينهم العصبيات المذهبية والجنسية ... إلخ.

يقول الشيخ/ شلتوت حينما تحدث عن قول الله ﷻ: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ (٣)، "إن المنافع تقوم أساساً على الإعتصام بحبل الله ﷻ، وذلك فى عدة أمور منها:

أولاً: تنحية الشهوات والأهواء التى تثيرها بينهم العصبيات القبلية والجنسية والمذهبية، تلكم العصبيات التى تدفع بهم إلى جمر التفرق عن سبل الله الواضحة، وتجعلهم فلولاً، يستعين ببعضها العدو المشترك على باقيهم، ويقضى على الجميع.

ثانياً: والإعتصام بحبل الله يقضى بالنظر السريع فى تنقية العقائد والأعمال بيننا، مما يشوبها من صور الإشراك والإبتداع، الأمر الذى هيأ لخصوم الإسلام أن يقولوا : إن الإسلام ليس ديناً واحداً، وإنما هو أديان متعددة تختلف باختلاف الأقاليم والمذاهب، فلتركيا إسلام، وللعراق إسلام ولإيران إسلام، ولباكستان إسلام، ولمصر إسلام، وبلاد المغرب إسلام، وللحجاز إسلام، وأى إسلام من هذه، هى إسلام محمد وإسلام القرآن؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلاَّ كذباً. فالإسلام وحدة فى العقيدة والعمل، تعرف عناصرها من كتابة البين الواضح، وهذه المظاهر المختلفة التى نراها فى الجماعات الإسلامية إلاَّ أثر

---

(١) سورة الملك الآية١٤.

(٢) المجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق، تحت عنوان: جوانب الأخلاق للشريعة الإسلامية للدكتور/ سيد عبد العزيز السيلى صـ ٩٩٣-٩٩٤.

(٣) سورة الحج الآية ٢٨.

من آثار الإنحراف البشرى فى فهم المصادر بما توحيه العصبيات الكريهة، ومما ينبغى أن تكون حالة المرضى الذين انحرف المرض بطبيعتهم، مصدراً سليماً لمعرفة تلك الطبائع، فعلينا ونحن المرضى، أن نعالج أنفسنا من هذه العلة، حتى يعود إلينا النقاء والشفاء، وعندئذ تكون أحوالنا وشئوننا مصدراً حقاً لقدسية الإسلام وصلاحه، كما هو واضح فى كتابه قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (١).

والإعتصام بحبل الله يقضى ثالثاً: بالعمل الجاد السريع فى إبراز أهداف القرآن، بتفسير سهل واضح ويكون خالياً من الإسرائيليات، والخلافات المذهبية والتطبيقات العربية التى اتصلت به، وحشرت فى تفسيره حشراً، شغل الناس بها عن معرفة هوايته وإرشاده، وأن يطبع ذلك التفسير بلغات العالم المختلفة، ثم يوزع على سائر الأقاليم، ليتبين الناس عن كثب حقيقة الإسلام، ويعرفوا دعوته على وجهها الصحيح، وعندئذ تبوء بالإثم هذه الأقلام المأجورة على الدعايات السيئة ضد الإسلام وجماعة.

والإعتصام بحبل الله يقضى رابعاً: بوضع نظام محكم لنشر الدعوة الإسلامية فى أرجاء العالم، يكون أساسه الإعداد القوى لطائفة من الدعاة والمرشدين، مزودين بالنضج الفكرى والمعرفة الصحيحة، واللغات الأجنبية وأساليب العرض الملائمة، وذلك وراء إلمامهم بمواقع البلاد التى يوجهون إليها، ونفسيات أهلها وعقائدهم وتقاليدهم، وسائر شئونهم حتى يستطيعوا أن يتبوؤا فيما بينهم مكانة المواطن الحريص على خير مواطنيه، وأن يتخذوا فى دعوتهم إلى الخير سبيل الحكمة التى أمر الله بها فى كتابه.

والإعتصام بحبل الله يقضى خامساً: بالنظر السريع الجاد فى تنسيق شئون الإقتصاد فى الجماعات الإسلامية، ويكون ذلك بتأسيس منظمة إسلامية إقتصادية مهمتها: تنظيم التبادل الإقتصادى، وسد حاجات الجماعات الإسلامية، بعضها من بعض، حتى لايكون للمستعمر، أثر فى اتخاذ هذا الجانب سبيلاً لاستنزاف ثروة البلاد الإسلامية وتثبيت أقدامه فيها، ثم الحيلولة بيننا وبين الحصول على ما يحفظ كياننا ورفع مستوانا.

والإعتصام بحبل الله يقضى سادساً: صوناً لهذه المبادئ بالنظر فى تكوين قوة حربية عليا، ذات تعليم واحد، وقيادة واحدة، على أحدث ما يعرفه أهل الحرب فى هذا العصر، لا لتخرب وتدمر، ولا لتستعبد ولا لتستعمر ولا لتسلب الناس أوطانهم وأموالهم وأمنهم، وإنما لتدفع شر الإعتداء، وتخلص الرقاب المسالمة من أيدى المعتدين الظالمين، ولاريب أن قيام تلك القوة

---

(١) سورة الإسراء الآية ٩.

المحوطة بقلوب المؤمنين، من أقوى وسائل السلم المسلح الذى أمر الله به وأرشد إليه فى كتابه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (١).

هذه هى جهات المنافع التى تتوقف عليها حياتنا، والتى يجب أن نفسر بها الآن قوله تعالى فى حكمة الحج: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ (٢)، وإن تفصيلها ورسم خططها والإيمان بها يتطلب اجتماعاً فى ظل روحية صافية، وليس ذلك إلاَّ فى اجتماع الحج ومؤتمره الإلهى الكريم(٣).

ومن الآثار التى تنتج عن الحج أيضاً: نشر الدعوة الإسلامية وتبليغها: فقد شرع الإسلام للمسلمين هذا الإجتماع العام ليجتمع فيه المسلمون من أنحاء العالم فى الكعبة الشريفة وجميعهم على دين واحد ولغرض واحد حيث يقوم العلماء بتعليم الجهلاء، ويخطب الخطباء، ويتحدث الحكماء لوعظ المسلمين وإرشادهم إلى ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ويتبادل الجميع الآراء والأفكار، ويعود الحجاج إلى بلادهم وهم مزودون بكثير من الأخبار فيقوى الإخاء بين المسلمين ويزول التباغض والتحاسد.

ويشير الدكتور/ عبد العزيز السيلى: إلى الدعوة والتبليغ فى الحج حيث يقول: "إن الدعوة والتبليغ لنشر الدين بما فيه من السمو الخلقى السوى، والمنهج المستقيم. إن مسئولية التحمل والآداء من أهم المهام التى نيطت بالأمة الإسلامية، إنها مسئولية الدعوة إلى الله، والدعوة إلى الخير، والدعوة إلى الحياة الطيبة فى الدنيا، والنعيم الدائم فى الآخرة.

الدعوة إلى التعرف على الله... ألوهيته، ربوبيته، وحدانيته، قوته وقدرته، كبرياؤه وإرادته، جبروته، وقيوميته، سلطانه وعظمته، وسائر صفات الكمال والجلال له.

إنها الدعوة إلى التعرف على مبادئ الإسلام العظيم، وتعاليمه ومحاسنه، وأخلاقه وقيمه وحضارته وثقافته.

إنها الدعوة إلى تثقيف الناس بينهم وتعريفهم بما ينفعهم فى دينهم ودنياهم، وإرشادهم إلى ما يسعدهم فى أولاهم وأخراهم.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠.
(٢) سورة الحج الآية ٢٨.
(٣) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ/ محمود شلتوت صـ١٣٢، ١٣٥ بتصرف.

إنها الدعوة لإنقاذ الناس من الضلال والإنحلال، والضيق والضنك والقلق والأرق والطمع والجشع، والفزع والهلع.

الدعوة إلى الأمن والإيمان، والسلامة، والإسلام، والدعوة إلى تسليم الرقبة لله، وإسلام النفس إلى الله"[١].

ومن آثار الحج أيضاً: التذكير بيوم القيامة: فقصد البيت الحرام هو قصد لربه وبه يستحق العبد لقاء الله بوعده الكريم، وبذلك يكون العزم على الحج عزماً إلى مفارقة الأهل والمال والولد والوطن والشهوات متجرداً إلى الله وبذلك يخلص العمل لله ويتطهر الحاج من الرياء والله تعالى طيب لايقبل إلاَّ طيباً.

فيقطع الحاج كل علاقة له مع الناس ويرد المظالم ويتوب عن المعاصى لئلا يكون حائلاً بينه وبين ربه- فيتوجه إلى الله بقلبه كما سيتوجه إلى البيت بظاهره - فيكتب وصيته ويقدر عدم عوده، وليتذكر بقطع العلائق فى سفر الحج قطع العلائق فى سفر الآخرة فإنه قريب فما يقدمه فى سفر الحج هو أمل فى تيسير سفر الآخرة وهو المستقر وإليه المصير، وليتذكر أن سفر الآخرة أطول وأن زاده التقوى وهى زاد لايفارقه ولا يخونه.

وثوب الإحرام: قماش يلفه لزيارة البيت، والكفن ثوب يلفه ليلقى الله، وكلاهما يشبه الآخر فى مخالفة أثواب الدنيا، فإذا خرج من بلده فهو ذاهب إلى ربه وليكن على ثقة من القبول حتى لو مات فى الطريق فإنه قد لقى الله وافداً إليه قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [٢].

فليتذكر المحرم بمشاهدة العقبات ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال، فإذا تخيل قطاع الطريق فليتذكر سؤال الملكين فى القبر، وليتذكر بسباع الصحراء عقارب القبر وديدانه، وبانفراده عن الأهل والولد والوطن ووحشة القبر ووحدته وليكن فى هذه المخاوف متزوداً لمخاوف القبر.

يقول الشيخ/ المالكى الحسنى: "على الإنسان أن يعلم أن هذا السفر وضع على مثال سفر الآخرة، فليتذكر المريد بكل عمل من أعماله أمراً من أمور الآخرة موازناً له، فإن فيه تذكرة للمتذكرين وعبرة للمعتبرين، فتذكر من أول سفرك عند وداعك أهلك وداع الأهل فى سكرات الموت، ومن مفارقة وطنك الخروج من الدنيا إلى ميقات القيامة، ومن هول قطاع

---

[١] المجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق، العدد العاشر ٢/٩٩٦، بتصرف تحت عنوان: جوانب الأخلاق فى الشريعة الإسلامية للدكتور/ سيد عبد العزيز السيلى.

[٢] سورة النساء الآية ١٠٠.

الطريق سؤال منكر ونكير، ومن سباع البوادى حيات القبر وعقاربه، ومن انفرادك من أهلك وحشة القبر ووحدتك فيه، ومن التلبية إجابة الداعى عند البعث، وكذلك سائر الأعمال، فإن فى كل عمل سراً ينبه به كل عبد على قدر استعداده وصفاء قلبه، وقصور همه على مهمات الدين"[١].

ومن آثار الحج أيضاً: دخول الجنة إذا إلتزم الحاج آداب الحج وذلك يتضح فيما رواه البخارى عن النبى ﷺقال: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلاَّ الجنة) [٢].

يقول الشيخ/ المالكى الحسنى: "ولا غرابة بعد هذه الخصائص والمزايا التى امتاز بها الحاج فى أن يحرص المسلم كل الحرص وتشتد رغبته، ويعظم طلبه ويجتهد فى حضور هذه المشاهد، ويدرك هذه الخصائص، ولو كان من أهل الأعذار الذين قد قضوا فرضهم، وأكثروا من التطوع بهذا النسك الشريف، قال بعضهم رأيت فى الطواف كهلاً (أى رجلاً كبيراً ضعيفاً) وقد أجهدته العبادة وبيده عصا وهو يطوف معتمداً عليها فقال لى فى كم تقطعون هذا الطريق؟ قلت فى شهرين فقال: هل تحجون كل عام؟ فسكت فسألته فكم بينكم وبين هذا البيت؟ قال: مسيرة خمس سنين، فقلت والله هذا هو الفضل المبين والمحبة الصادقة فضحك وأنشأ يقول:

زُرْمن هويت وإن شطت بك الدار ** وحال من دونه حجباً وأستار
لايمنعنك بعد عن زيارته ** إن المحب لمن يهواه زوار"[٣].

وكذلك من أثر الحج على الفرد والمجتمع المسلم: تأكيد وحدة المسلمين "فالحج هو المؤتمر الأكبر الذى يضم شتات المسلمين من كل فج عميق، يجتمعون فى أيام معلومات، ويطلبون الهداية من الله تعالى، ويطهرون أنفسهم من أدران المادة، ومتع الحياة، ويستلهمون معانى العزة والقوة" [٤].

"والحج مؤتمر إسلامى يتخطى حدود البيئة والجنس واللغة، وفرصة لطرح المشكلات، واقتراح الحلول وتأكيد للوحدة الجامعة، التى يريدها الله لهذه الأمة حتى تنهض كلها بواجباتها الدينية والإنسانية، وتقف صنفاً واحداً أمام العدو المتربص، وإذا كان فى بعض شعائر الحج ما يعلو على الأفهام إدراك سره، فحسبنا الإمتثال الخالص لما أمر الله ورسوله"[٥].

---

[١] قل هذه سبيلى للشيخ/ محمد بن علوى المالكى الحسنى صـ٤٠.
[٢] رواه البخارى، كتاب الحج، باب وجوب العمرة وفضلها ٢/٦٢٩.
[٣] قل هذه سبيلى للشيخ/ محمد بن علوى المالكى صـ٧٢، ٧٣.
[٤] الآداب الإسلامية السامية تأليف الشيخ/ عبد المنصف محمود عبد المنصف صـ٢١، ط المتحدون للطباعة والكمبيوتر- بدون.
[٥] بيان للناس من الأزهر الشريف صـ١٩٠.

مؤتمر توحدت فيه الشعارات لتقضى على المحاولات الإنتهازية، ويخلص فيها العمل بعيداً عن الشوائب والأغراض.

مؤتمر تتجلى فيه وحدة المسلمين، وتزول كل فوارق الجنس والقومية، فترى المسلمين إخواناً متحابين فى الله ينمو فى قلوبهم الشعور بالأخوة الإسلامية فى أطهر بقعة وأقدس مكان فى الأرض التى أشرق منها نور الإسلام، وانبعثت منها مبادئ العدل والسلام، تمتلئ قلوبهم باليقين، وتهتف أرواحهم بأمجاد المسلمين، وتلهج ألسنتهم بكفاح الأبطال من الصحابة، والتابعين، وتضحياتهم وعدالتهم، يذكرون الله فى أيام معدودات، متمسكين بالقيم والمبادئ متجردين من الأهواء والشحناء والبغضاء والمعاصى والفسوق والعصيان والجدال، متجملين بالصبر على الشدائد والمشقات والمخاوف وأذى الناس وفراق الأهل والمال، متقبلين الإرهاق الحسى والنفسى فى الأماكن الضيقة وزحمة الحجيج، مبتعدين عن المعاصى ومساوئها وعن الدنيا وزخارفها ومغرياتها، وعن حقد الأنفس وبخلها، وعن الأردية الطبقية وغرورها مرتدين لباس الإحرام مظهر المساواة ورمز الوحدة فى صفاء روحى كيوم ولدوا على الفطرة، متجهين إلى القبلة نقطة تجمعهم، وشعار وحدتهم ومحط آمالهم مبتغين رضاء الله والدار الآخرة.

فيه يطوف المسلمون ببيت الله الحرام قبلتهم، طوافاً روحياً ملائكياً تشملهم روح السلام والأمن التى تشمل كل ساكنى الحرم حتى الطيور، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (١)، وقال: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ (٢).

فيه يقف المسلمون بعرفات تجمعهم روابط الود والإخاء هاتفين فى صعيد واحد ووقت واحد للإله الواحد "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك لبيك".

يقول د/ القرضاوى: "إن فى الحج وحدة فى المشاعر، ووحدة فى الهدف ووحدة فى العمل، ووحدة فى القول، لا إقليمية ولا عنصرية، ولا عصبية للون أو جنس، أو طبقة، إنما هم جميعاً مسلمون، برب واحد يؤمنون، وبيت واحد يطوفون، ولكتاب وحد يقرءون، ولرسول واحد يتبعون، ولأعمال واحدة يؤدون فأى وحدة أعمق من هذا"(٣).

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٩٦-٩٧.
(٢) سورة المائدة الآية ٩٦.
(٣) العبادة فى الإسلام للدكتور/ القرضاوى صـ٣٠٦.

هذه القلوب التى توجهت إلى مؤتمر الحج هى فى القمة من الإيمان، إنْ صاحبها هذا الشعور، وسيطر عليها الإخلاص، ولذلك أعطاهم وصفاً كريماً فسماهم وفداله ومنحهم منحاً سخية.

على أن هناك معانى أخرى كريمة، تتجلى فى تربية النفوس وصقلها، وإعدادها لتحمل رسالة الإسلام، فالحج إلى جانب أنه ركن أساسى من أركان الإسلام، وواجب من واجباته، وفرض على كل قادر، ومستطيع عاقل، بالغ من ذكر أو أنثى، وغلى جانب أنه آية من آيات الرسالة الإسلامية الخالدة فإنه فيه معنى الإستمرار والخلود.

يقول الشيخ/ سيد سابق: "وشعائر الحج تثير فى النفس ذكريات كثيرة إذ أنها ترتبط بالواقع التاريخى لأبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ. والحج يلقى على هذه الذكريات من الظلال والألوان ما يجعلها شامخة العيون وماثلة فى الأذهان.

إن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو الذى رفع قواعد البيت وإسماعيل وهو أول بيت وضع لعبادة الله فى الأرض، ومن ثم أمر الله الحنفاء أن يتوجهوا إليه كلما توجهوا إلى الله فى صلاتيم وأن يتلاقوا عنده كل عام، يجمعهم الحب فى الله والإجتماع عليه، ليعلنوا تضامنهم واتفاقهم على إقامة شريعة الله الواحد، ولا تزال النفس الإنسانية تهفو إلى مصدر إشعاعها الأول وتَحِنُّ إليه، وتقيم لتلك المعالم الهادية وتتخذ منها حافزاً، يرقى بحاضرها وينهض بها إلى حياة أهدى وأزكى"[1].

وسوف يبقى هذا البيت عامراً بإذن الله يحج إليه الناس من بقاع الأرض ليتعارفوا ويتذاكروا شئونهم، ويشهدوا منافع لهم استجابة لدعوة إبراهيم: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[2].

ومن آثار الحج أيضاً: أنه أفضل الأعمال التى تنفع الإنسان فى دنياه وفى أخراه، وذلك لأن فيه معنى الجهاد، فأولئك الحجيج الذين يهرعون من أقاصى الأرض وكلهم شوق وحنين إلى تلك البقاع الطاهرة التى بارك الله حولها، غير ناظرين إلى ما قد يعترض طريقهم من صعاب، ولا حافلين بما قد يصادفهم من عقبات، لاتثنيهم وعرة الطريق ومخاوفه، ولا يفكرون فى جهد يبذلونه، أو مشقة يتعرضون لها، إنما هم فى الواقع يجاهدون فى سبيل الله، وقد سمى رسول الله

---

[1] إسلامنا للشيخ/ سيد سابق صـ١٣٢- ١٣٣ بتصرف يسير.
[2] سورة إبراهيم الآية ٣٧.

ﷺ الحج بأنه من أنواع الجهاد بدليل قول السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت يارسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد قال: (لا لكن أفضل الجهاد حج مبرور) [١].

يقول الأستاذ/ مهدى عبد الحميد مصطفى: "على أن الحج ليس فريضة عادية، بل هو ضرب من ضروب الجهاد، لما فيه من مشقة بدنية، وتضحية مادية، فأداؤه يحتاج إلى قوة من الإرادة، وصدق فى العزيمة، وكفاح مرير ضد مطامع الهوى ونوازع النفس، وكيف لايكون الحاج مجاهداً، وقد تجرد من زخرف الدنيا، وخلف مباهج الحياة، وترك الأهل، والمال، والوطن، وانصرف بكليته قلباً وقالباً إلى الله رب العالمين، مستجيباً لدعوته ملبياً لندائه، متحملاً عناء السفر، وعثرات الطريق، ومشقات الزحام، يدفعه إلى ذلك شوق عارم، وحنين جارف؟ فقد روى البخارى عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد قال: (لا لكن أفضل الجهاد حج مبرور"[٢]، [٣].

وبعد فالحج فريضة جهاد وتطهير، فهى تخلص النفس من نزعات الشيطان وتقوى فيها معانى السمو الروحى فتحيا فوق المادة، ولا تكون أسيرة لها فتضل طريق النجاة فى الدنيا والآخرة.

وليس الحج جهاد لأنه مقاومة لشهوات النفس فحسب، ولكن لأنه كذلك يحقق الوحدة الإسلامية ويحميها ويدفع عنها الأذى وذلك هو مقصد الجهاد وغايته.

كما أن فى الحج منافع دنيوية، **يقول الأستاذ/ مهدى عبد الحميد مصطفى:** "والحج بمعناه الحقيقى يجمع بين حظى الدين والدنيا- وما أجملهما إذا اجتمعا- فقد كان المسلمون السابقون يتحرجون من التجارة والأعمال الدنيوية فى مدة حجهم، حرصاً منهم على أن يكون آداؤهم لهذه الشعيرة خالصاً لله رب العالمين، فلا تشوبه شائبة، ولا يعلق به متاع دنيوى زائل، ولكن الشريعة السمحة التى جاء بها خير خلق الله أجمعين لم تضيق الخناق، ولم تقف أمام المصالح الدنيوية حجر عثرة، فأباحت للمسلم أن يجمع بين حظى الدنيا والآخرة من غير تحرج ولا تأثم، على أن يكون الهدف الأسمى أداء الشعيرة أولاً وتأتى المنافع الدنيوية فى المرتبة الثانية، فقد روى البخارى عن ابن عباس ﷺ أنه قال: كان ذو المجاز وعكاظ متجر الناس فى الجاهلية فما

---

[١] رواه البخارى، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور ٢/٥٥٣.
[٢] رواه البخارى، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور ٢/٥٥٣.
[٣] مجلة منبر الإسلام، العدد ١٢، السنة ٢٩، ذو الحجة ١٣٩١هـ- يناير ١٩٧٢م تحت عنوان: مع وفد الله فى الرحلة القدسية للأستاذ/ مهدى عبد الحميد مصطفى صـ١٠٣.

جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [١]، فى مواسم الحج) [٢].

فأزالت من نفوسهم مخاوفها، وانقشعت عن قلوبهم وساوسها، وخلصت أفئدتهم، وعرفوا رأى دينهم فى صراحة ووضوح"[٣].

ويلخص الشيخ/ سيد سابق الآثار الإجتماعية للحج فيما يلى:

(١) "أن الحج رحلة سياسية لتجميع أكبر عدد ممكن من أفراد الأمة الإسلامية ليشهدوا المنافع التى تعود عليهم بالخيرات والبركات، سواء أكانت منافع روحية، أم منافع إقتصادية، أم سياسية.

(٢) إن فيه تعارف الشعوب الإسلامية وتوحيد غايتهم التى توجههم الوجهة التى تأخذ بأيديهم إلى حياة القوة والعزة، والعلم والعمل بما يفيده بعضهم من بعض ومن تبادل الآراء المختلفة والثقافات المتنوعة.

(٣) يمكن عقد معاهدات واتفاقات فى موسم الحج، ودراسة الوسائل لتيسير التبادل الإقتصادى والثقافى مما نحتاج إليه فى هذه البلاد[٤].

وفى النهاية: "فالحج تعبير عن الإخلاص لله وحده، وآداة لركن هام، ولقاء على أكبر مستوى للجماعة الإسلامية لإصلاح دينهم ودنياهم، وإرساء لقواعد التقوى، وتطهير من آفات البشر"[٥].

والحج المبرور هو الخالص لله رب العالمين لا تشوبه معصية، ولا يخالطه ذنب، فينقى قلب صاحبه، وتصفو روحه، وتدعم صلته بخالقه، فيقبل على الطاعات، وينصرف عن الأهواء والهفوات، ويتحلى بمكارم الأخلاق وصاحب الحج المبرور هو الذى يتعرض لنفحات ربه، ويسعد برضا بارئه، فتمحى ذنوبه، وتكفر سيئاته، ويثوب من حجه بصفحة مشرقة، مضيئة بصالح الأعمال، ومزينة بجميل الخلال، فقد روى البخارى عن أبى هريرة ﷺ أنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: (من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) [٦]، وروى أبو هريرة

---

[١] سورة البقرة الآية ١٩٨.
[٢] رواه البخارى، كتاب الحج، باب ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ١٦٤٣/٤.
[٣] مجلة منبر الإسلام، العدد ١٢، السنة ٢٩، ذو الحجة ١٣٩٤هـ- يناير ١٩٧٢م تحت عنوان: مع وفد الله فى الرحلة القدسية للأستاذ/ مهدى عبد الحميد مصطفى صـ١٠٤.
[٤] إسلامنا للشيخ/ سيد سابق صـ١٣٤.
[٥] مجلة الأزهر الجزء السابع، السنة ٧٤، ص١١٤، شهر رجب ١٤٢٢هـ- أكتوبر ٢٠٠١م، والمقال للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم تحت عنوان: الإسلام والعلاقات الإجتماعية.
[٦] رواه البخارى، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور ٥٥٣/٢.

أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) [١]. وروى مسلم عن ابن شماسة المهرى قال: (حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياقة الموت فبكى طويلاً، وقال فى حديثه: ... فلماجعل الله الإسلام فى قلبى أتيت النبى ﷺ فقلت ابسط يمينك فلأبايعك فبسط يمينه قال فقبضت يدى قال مالك ياعمرو قال قلت أردت أن أشترط قال تشترط بماذا قلت أن يغفرلى قال أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله) [٢].

فإذا كان الحج بهذه الدرجة العظيمة، فما أحرى أن يتحرى الحاج من هذه الرحلة الإلهية أن يلزم نفسه فى ظاهره وباطنه التبتل والترهب فى لباسه وزاده وراحلته حتى يظهر كمال العبودية والتجرد لله من المظاهر المادية فى الحضرة الإلهية، ثم يلزم نفسه فى باطنه الإخلاص فى النية وطريق الإعتبار والتذكر، فإن تمام الأعمال بما يصحبها من نية صادقة فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم، بل بذلها إيثاراً لوجه الله كما يقول الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [٣]. وبهذه المعانى الظاهرة والباطنة يتحقق بآداء هذه الفريضة جانبها الروحى المقصود.

آداب ينبغى مراعاتها:

قال الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [٤].

"يحث القول الكريم ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ على مراعاة الحاج- الذى ألزم نفسه الحج فى أشهره المذكورة ودخل فيه- لأحكامه وعلى الحرص على آدابه التى هى تنزه المحرم بالحج عن الجماع ودواعيه كالتقبيل ونحوه، وعن المعاصى مثل السباب وغيره، وعن الجدال والمراء مع رفقته فى الحج وعن ما يجر إلى الشحناء والخصام حتى يخرج المحرم بحجه مهذب النفس، ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ﴾ فليجتهد الحاج فى فعل الخير، وطلب الأجر منه جل شأنه، بعمل الصالحات، فإن الله عليم بذلك، ومجازٍ عليه، ويقول ﷻ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ أيها المدعوون للخير،

---

[١] رواه البخارى، كتاب الحج، باب وجوب العمرة وفضلها ٦٢٩/٢.
[٢] رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الحج والهجرة ١٣٦/٢.
[٣] سورة الحج الآية ٣٧.
[٤] سورة البقرة الآية ١٩٧.

لمستقبلكم فى الحياة ولآخرتكم بالتقوى، وامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وفسر التقوى الإمام على كرم الله وجه فقال: هى الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل، والإستعداد ليوم الرحيل.

وفى ختام الآية الشريفة يقول جل علاه: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ أى استشعروا خشيتى فيما تأتون، وما تذرون يا أصحاب العقول، فما طلب منكم هو مقتضى العقل والحكمة، فلا تشوبوا شيئاً من أفعالكم بدواعى الهوى، والغرض الدنيوى، الذى يبعد عن الله تعالى.

وقد حفلت السنة الشريفة، المبينة للكتاب الكريم بآداب الحج التى دعت إليها الآية الكريمة روى الإمام البخارى فى صحيحه، عن أبى هريرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) [١]، أى نقياً من الذنوب طاهراً مطهراً من الأدناس التى كانت مبعدة له عن ربه علاَّم الغيوب، ومن دواعى الألم أن نرى كثيراً من متحابين، يذهبون للحج مسلمين متوادين فى صفاء، ثم يعودون متخاصمين، وما كان ينبغى أن يكون ذلك وهم فى رحلة تحفهم فيها الأنوزار، والملائكة الأطهار، ومن العجيب حدوث الخصام لأتفه الاسباب من أجل إرادة الحاج شيئاً، وإرادة رفيقه شيئاً غيره[٢].

لذا فينبغى على المسلم أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معيناً على فعله، إن نسى ذكَّره، وإن ذكر أعانه وإن عجز قوَّاه، وإن ضاق صدره ثبته وفرج كربته، وينبغى على المسلم أيضاً إذا عزم على السفر لآداء فريضة الحج أن يبادر إلى التوبة النصوح ورد المظالم إلى أربابها وقضاء ما عليه من الديون وإعداد النفقة لجميع من تلزمهم نفقته إلى وقت الرجوع من رحلته، وأن يختار لحجه وعمرته نفقة طيبة. ويجب على المسلم أن يعجل بآداء هذه الفريضة، ولا يؤجلها مادام قادراً على آدائها، لأن الأجل غير مضمون، حتى لا يعرض نفسه لملاقاة ربه، وقد أهمل ركناً من دينه.

ولقد جاء الإسلام منددا بهؤلاء القادرين على آداء فريضة الحج، فغواهم شيطانهم أن يهملوها، فضعفت نفوسهم أمام غوايته، وخارت عزيمتهم أمام سلطانه، لضعف فى إيمانهم، وزعزعة فى عقيدتهم، فلم يستجيبوا لله ورسوله، وجحدوا فرضية هذه الشعيرة، فبرئ منهم الإسلام، وأسقطوا من سجل الإيمان، وحرموا من رحمة الرحمن.

---

[١] رواه البخارى، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور ٢/٥٥٣.

[٢] مجلة منبر الإسلام، العدد١٢، السنة ٣٣، ذو الحجة ١٣٩٥هـ- ديسمبر ١٩٧٥م تحت عنوان: تفسير آية الحج للشيخ/ محمد مصطفى أبو العلا صـ٧٩، ٨٠.

وبعد... ما أسعد الحاج المتأدب بأداب القرآن الكريم، وما أعزه فإنه سائر على نهج رسوله العظيم، وفق الله تعالى المسلمين لحج بيته الحرام وللتأدب بآداب الحج على الدوام إن ربى سميع الدعاء.

الخلاصة: إن العبادات التى فرضها الله تعالى على عباده تقوم على فكرة الإعتقاد بها والتفكير والتأمل فى معانيها، وعلى الصفة التى تستولى على القلب، والمعنى الذى يمتلك النفس، كل هذا يجعل للعبادات قيمتها المنشودة، ومعناها المراد، وسرها الحقيقة، وأهم ذلك كله هو صدق النية، والبعد عن الرياء والسمعة، وحضور القلب عند آداء هذه العبادات المفروضة.

وفريضة الحج تحمل فى طياتها من المعانى الروحية والإجتماعية ما يكيف الشخصية الإسلامية ويضفى عليها لوناً من الصفاء والسمو، فضلاً عما تحمله هذه الفريضة الفريدة فى التاريخ الإجتماعى الدينى من فكرة نبيلة هى فكرة الربط الروحى والمادى بين المجتمع الإسلامى وتوثيق التفاهم والتعاون وروح الأخوة بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها.

والنظرة العامة لهذا الركن توحى للمؤمن، بأنه يبدأ رحلته فى جو من الروحانية الخالصة، والتجرد التام من كل زينة أو عرض من أعراض الدنيا، يترك أهله وولده ويضحى بماله فى سبيل القرب من الملأ الأعلى، والإقبال على الله سبحانه وتعالى، لا بيغى من وراء ذلك إلا عفو الله ورضاه، فإذا ما أخلص النية لله، وخلى عمله من الرياء والسمعة، أجذل الله له العطاء ومد يده بالمغفرة والرحمة، فإذا سأله أعطاه، وإذا دعاه أجابه.

أى قيمة الحج المقبول المبرور عند الله تعالى، هى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم من غير أن تشوبه شائبة من الرياء أو يبغى به الحاج جاهاً أو سمعة.

من هذا كله تتجلى أسرار هذه العبادة فى ظاهرها وباطنها، وفى مناسكها ومسالكها، وفى شعائرها ومواقفها لتكون مقبولة مبرورة فإذا استعملت هذه العبادة بهذه الصورة الظاهرة من غير ترف أو بذخ، ومن غير تظاهر أو تفاخر، وبهذه الصورة الباطنة من الإخلاص فى التوجه إلى الله والرحلة فى سبيله كان حجاً لا رياء فيه ولا سمعة ورجع الحاج وقد غفر الله ذنوبه.

وهكذا فإن الإسلام يتابع سيره بالفرد المسلم أو بالجماعة المسلمة فى طريق الوحدة والتجمع، بعد أن عرف الطريق إلى الله تعالى، وانطلق لسانه وعقله وقلبه وكل جوارحه تعلن أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، وبعد أن أخذ بيده ليسير فى التطبيق العملى لمعنى ذلك التوحيد حتى لا تستبد به مع الأيام شهواته فينحرف عن الطريق السوى لمعنى التوحيد، وبعد أن

حصنه بالصلاة والصيام والزكاة فختم أركانه الخمسة بفريضة الحج إلى بيت الله الحرام ليخلص الإنسانية من طبيعة جامحة غاشمة ما كان مقداراً لها أن تتخلص فيها بغير ذلك التوجيه.

"ومن هنا نعلم أن العبادة فى الإسلام ليست مشاعر نفسية غريزية، ولا حركات جامدة لاشعورية، وإنما هى رقى روحى، وتأمل وتفكير وخضوع وانقياد، فهى أشبه ما تكون بمدارس تربوية تتنوع مناهجها الدراسية، وتختلف أساليبها التربوية، تتناول هذا الإنسان فتربيه، وتدربه على السير فى الطريق المستقيم الذى رسمه له خالقه، وتهذب له غرائزه وشهواته، وتوجهها فى الطريق الأقوم"[1].

هذا وبعد... أن ألقينا الضوء على العبادات وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم ننتقل بعد ذلك إلى الأخلاق وأثرها على حياة الفرد والمجتمع المسلم أيضاً فنقول وبالله التوفيق.

---

[1] العبادة دراسة منهجية شاملة فى ضوء الكتاب والسنة. تأليف: محمد أبو الفتح البيانونى صـ٤٠ حلب دار السلام ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

obeikandl.com

الفصل الثالث

الأخلاق وأثرها على الفرد والمجتمع المسلم

obeikandl.com

ويتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : الأخلاق وأهميتها

المبحث الثانى : الإخلاص وأثره على الفرد والمجتمع المسلم

المبحث الثالث : التوكل وأثره على الفرد والمجتمع المسلم

المبحث الأول

الأخلاق وأهميتها

obeikandl.com

الأخلاق وأهميتها

مقدمة

نحن فى عالم تتزاحم فيه المعتقدات، وتختلف فيه الوجهات، وتتنابذ فيه الأنظمة، وتكثر فيه التحديات، ويظهر فيه التشيع وتبرز العصبيات، وتتصاعد الصراعات، وتتعاظم التجمعات والتكتلات وتختل القيم والموازين فتسقط هنا مرة وتتردى هناك مرات، وتتمزق الأخلاق وتستعلى القوة فيطغى الأقوياء، ويستكين ويتوارى الضعفاء من فرط ما حل ويحل بهم من امتهانات ومن وراء كل ذلك تقف البشرية كلها على حافة الهاوية لابسبب إفلاسها المادى، فقد أحرزت نجاحاً مادياً خطيراً، واتساعاً عمرانياً هائلاً، وتقدماً علمياً شاملاً، ولكن بسبب افلاسها فى عالم القيم التى يمكن أن تنمو الحياة الإنسانية فى ظلالها نمواً سليماً، وتترقى ترقياً صحيحاً.

إن الأيدلوجيات والمذاهب الفلسفية قد تعطى حلولاً لبيئة معينة أو لعصر معين، ولكنها لا تستطيع أن تعطى للبشرية حلولاً دائمة، ولا قيماً صالحة لكل عصر وبيئة والدين الحق وحده هو الذى يستطيع أن يعطى هذا، ومن هنا فإن هذه المذاهب تفقد جوهرها مع تغير الأحداث، وتحتاج دائماً إلى التطوير وإلى الإضافة والحذف، أما قيم الإسلام، فلأنها من عند المصدر الذى أنشأ الإنسان نفسه وأنشأ الحياة كلها فإنها قادرة على أن تقدم لكل عصر وكل بيئة حاجتها دون أن تخرج عن أصولها الأصلية ومقوماتها الأساسية.

وإذا كانت بعض الأمم قدآثرت المذاهب الفلسفية لأنها لم تجد من الحقائق الثابتة ما يمدها بمنهج صحيح، فإن المسلمين يستطيعون بالإسلام أن يحققوا ثبات العقيدة والشريعة والأخلاق ويحققوا فى نفس الوقت التطور بالفروع، ويحققوا التقدم والحركة ومساوقة ركب العلم دون أن يفقدوا ميزتهم الأساسية التى اتسمت بها حضارتهم أساساً، ولا تتفكك عنها، تلك هى قيم التوحيد والإيمان بالله والإيمان بالبعث والجزاء.

ذلك لأن قيم الإسلام الأساسية ثابتة راسخة، لا يجوز عليها التطور، وإنما يجوز التطور على الفروع والتفاصيل، وأداة الإجتهاد فيه قائمة لا تتوقف، وهى ليست محاولة لإخضاع الإسلام لانحرافات الحضارة، وليست محاولة لاتخاذ الإسلام أداة لتبرير المواقف المستحدثة المعارضة للشريعة الإسلامية، أو الأخلاق الإسلامية. ومفهوم الإسلام هنا متكامل، دين ونظام مجتمع ومنهج حياة، فليس الإسلام دين لتربية الضمير وليست أحكامه الدنيوية من باب ضرب المثل، وليس التقدم الحضارى من العوامل التى تستلزم التنازل عن قيم السلوك ولا القول بأنها قيم وضعت فى عصور أخرى.

ذلك لأن التقدم الحضارى فى مفهوم الإسلام ليس تقدماً مادياً صرفاً ولكنه تقدم معنوى ومادى معاً، ولن يحول التقدم بهذا المفهوم بين قيام الأخلاق واستمرارها، بل هو يجرى معها فى طريق واحد.

والدين فى مفهوم الإسلام، يشتمل على علاقتين لا إنفصام بينهما: علاقة الإنسان بالله وعلاقة الإنسان بالإنسان، فليس فى مفهوم الإسلام أنه علاقة مع الله ولا صلة لها بالمجتمعات أو الحضارات.

والإسلام لا يقر نسبية الأخلاق أو زمانيتها أو ارتباطها بالبيئات، أو العصور، فالأخلاق قيم ثابتة مرتبطة بالإنسان من حيث هو إنسان لا تخضع للتغيير، إنما تتغير العادات والتقاليد المحدثة.

وفى مفهوم الإسلام أن هناك قيم ثابتة لا سبيل إلى تغيرها فى العقائد والأخلاق وأن هناك قيم تتغير وتتطور مع الأزمان والأحداث.

أما القيم الأصلية الثابتة فإن أى تطور حضارى أو تغير فى نظام المجتمع فإنه لا يقضى عليها ولا يترخص لتأويلها.

وليست قيم الإسلام قيم عصور مضت أو بيئات بدوية كما تردد الشبهات، وإنما نزل القرآن الكريم للعالمين جميعاً وللأزمنة والعصور على نحو سمح، مرن، يضع الأصول والضوابط ويفسح الإطار الواسع للتحرك والتطور والتغيير فلا توصف قيمة بأنها قديمة أو بدوية أو خاصة بأمة أو عصر.

فالأخلاق الإسلامية لها منهج فسيح فى نسق الكتاب الكريم إذ أن القرآن باعتباره دستوراً إصلاحياً سماوياً فإنه يحرص على النهوض بالإنسان إلى المثالية الحقة، أو المثالية التقريبية إذا وقفت دون الأولى موانع أو لم تتهيأ لكل امرئ بواعثه فى التطلع إلى مراتبها العليا فعند ذلك يكون الكمال النسبى غاية مرجوة بقدر الإمكان.

تعريف الأخلاق:

الأخلاق فى اللغة: "جمع خلق بضم اللام، وقد تسكن، والخلق هو العادة والسجية والطبع والمروءة والدين"[1].

يقول الإمام أبو حامد الغزالى: "الخلْق والخلُق عباراتان مستعملتان معاً، يقال: فلان حسن الخلق والخلق أى حسن الباطن والظاهر، فيراد بالخلْق الصورة الظاهرة ويراد بالخلُق

---

[1] مختار الصحاح مادة خلق صـ٧٣٤.

الصورة الباطنية، وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة"[١].

ويقول الدكتور/ سعد الدين صالح: "الأخلاق جمع خلق، وهو السجية والطبع، أو هو صورة الإنسان الباطنية وهو نفسه التى تجمع بين جنبيه وأوصافها ومعانيها المختصة بها فهى بمنزلة "الخلق" لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها"[٢].

وأما الخلق فى الإصطلاح: فقد عرفه **الغزالى** بقوله: "هو عبارة عن هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقاً سيئاً"[٣].

ويقول الدكتور/ توفيق الطويل: "علم الأخلاق هو علم المثل العليا للسلوك الإنسانى ويضع القواعد التى تحدد استقامة الأفعال الإنسانية وصوابها، ويدرس الخير الأقصى باعتباره غاية الإنسان القصوى التى لا تكون وسيلة لغاية أبعد منها"[٤].

وقيل إن علم الأخلاق هو: "العلم الذى يوضح معنى الخير والشر بين ما ينبغى أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم لبعض، فيشرح الغاية التى يقصدها الناس من أعمالهم"[٥].

وخلاصة القول: لئن كان للخلق إطلاقات عديدة، وتعريفات كثيرة إلاَّ أن من أبرزها هو ما يطلق عليه الصفات الراسخة فى النفس التى يمكن أن يمدح صاحبها أو يذم.

أهمية الأخلاق:

اختلف الناظرون قديماً وحديثاً فيما تناولوه من مباحث ومسائل، واتسعت شقة الخلاف بينهم فيها نفياً وإثباتاً، ووجوباً وجوازاً، وإطلاقاً وتقييداً، إلاَّ فى الأخلاق، فقد اتفقت كلمتهم على وجوبها للفرد لصالح نفسه وللمجتمع فى جملته، لا باعتبار أنها حلية أدبية، ولكن باعتبار أنها ضرورة حيوية لا تستقيم حياة فردية ولا اجتماعية إلاَّ بها، فكما أن الفرد يضيره ويفسد من أعماله أن يكون كاذباً مرائياً حسوداً شريراً ماكراً، كذلك تضر المجتمعات شيوع هذه الصفات فى آحادها، لأن هذه الصفات المنكرة كما تصد هؤلاء الآحاد عن النجاح فى معاملاتهم، تحول

---

[١] إحياء علوم الدين ٥/١٤٣٤.

[٢] المجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق، تحت عنوان: الأخلاق فى ضوء الفكر الإسلامية والمقال للدكتور/ سعد الدين صالح صـ١٨، العدد الخامس جمادى الأولى ١٤١٣هـ- نوفمبر ١٩٩٢م، دار المعرفة.

[٣] إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى ٨/١٤٣٤.

[٤] أسس الفلسفة د/ توفيق الطويل صـ٣٦٦، ط دار المعرفة- بيروت- لبنان.

[٥] الأخلاق للأستاذ/ أحمد أمين صـ٤، ط القاهرة- بدون.

بينهم وبين التماسك فيما بينهم التآليف إجتماع قوى مترابط الأجزاء لا تتسرب إليها المحللات العارضة.. لهذا السبب كان أول ما توجهت إليه عناية الفلاسفة والمشرعين والعاملين على إنهاض الجماعات البشرية، الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، باذلين فى سبيل دعمها، وتقوية أسسها أقصى جهودهم، لأنها هى التقوى الأدبية التى تربط الآحاد، وتجعل منهم مجموعاً متجانساً يصلح للحياة بين الجماعات المماثلة له، ويقوى على منازعتها الحياة كما تنازعه هى إياها بقوى متعادلة.

أما الإسلام فقد جعل للأخلاق المكان الأرفع من عنايته لكل الإعتبارات المتقدمة، ولاعتبار آخر أعلى منها قدراً وأعم أثراً وهو إعداد النفس البشرية لقبول الإشراقات العلوية، وتكييفها، وضع الإسلام الأخلاق فى مستوى لم تضعها فيه أية فلسفة فى الأرض على شدة عنايتها بها، وتباريها فى الإشادة بذكرها، فقال ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [١].

والمفهوم من هذا الحصر ببداهة النظر أن الإسلام يعتبر مكارم الأخلاق غاية للدين الحق، وثمرة لوسائله المختلفة، ولا يعقل أنه يمكن وضع مكارم الأخلاق فى مكانة أسمى من هذه المكانة"[٢].

فتشكل الأخلاق مع الإسلام جزءاً لا يتجزأ فالأخلاق هى النسيج الذى يتكون منه الإسلام، بحيث إذا خرج المسلم على مبادئ الأخلاق، فقد خرج على الإسلام، وإذا التزم بتوجيهات الإسلام كان بالضرورة ملتزماً بمبادئ الأخلاق، فإن الكتاب والسنة هى عبارة عن أمر بمعروف ونهى عن منكر، أى دعوة إلى اتباع الخير والفضيلة، ونهى عن اجتناب الشرور والرذيلة.

ولذلك نلاحظ الجانب الأخلاقى فى كل تعليماته وتشريعاته وشعائره ونظمه، ففى جانب العقيدة لا يكتمل الإيمان إلاَّ بالأخلاق الفاضلة، وفى جانب الشعائر كالصلاة والصيام والزكاة والحج لا تتحقق الثمرة من كل ذلك إن لم يكن المسلم ملتزماً بمبادئ الأخلاق ومن هنا يقول تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾ [٣].

ولا قيمة لصيام عن المأكل والمشرب إن لم يقارنه صيام الجوارح من الفواحش والرذائل وهكذا سائر الشعائر الإسلامية محوطة بسياج أخلاقى اجتماعى، وفى جانب النظم التشريعية مثل النظام الإقتصادى والإجتماعى والسياسى نجد أن لها غايات أخلاقية سامية.

---

[١] رواه البيهقى فى شعب الإيمان، باب حسن الخلق ٦/٢٣٠، ٢٣١ حديث رقم ٧٩٧٨ وإسناده حسن، ط دار الفكر بيروت- لبنان.

[٢] مجلة نور الإسلام سنة ١٣٥٣هـ تحت عنوان الأخلاق للأستاذ/ محمد فريد وجدى.

[٣] سورة العنكبوت الآية ٤٥.

ولقد كان من أخص خصوصيات الرسول ﷺ أنه نبى الأخلاق فعن سعد بن هشام بن عامر قال أتيت عائشة فقلت يا أم المؤمنين أخبرينى بخلق رسول الله ﷺ قالت كان خلقه القرآن أما تقرأ القرآن قول الله ﷻ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [١] قلت فإنى أريد أن أتبتل قالت لا تفعل أما تقرأ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [٢] فقد تزوج رسول الله ﷺ وقد ولد له)[٣].

"ودلت التجارب الإنسانية والأحداث التاريخية على أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها فى سلم الأخلاق الفاضلة، ومتناسب معه، وأن انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها، ومتناسب معه، فبين القوى المعنوية والأخلاق، تناسب طردى دائماً صاعدين وهابطين، وذلك لأن الأخلاق الفاضلة فى أفراد الأمم والشعوب، تمثل المعاملة الثابتة والروابط الاجتماعية الوثيقة، ومتى انعدمت هذه الروابط أو انقطت فى الأفراد، لم تجد الروابط الإجتماعية مكاناً تنعقد عليه، ومتى فقدت الروابط الإجتماعية صارت الملايين فى الأمة متفرقة عن بعضها مزودة بقوة الأفراد فقط لا بقوة الجماعة.

وإذا كانت الأخلاق فى الأفراد والأمم تمثل معاقد الترابط فيما بينهم، فإن النظم الإسلامية والإجتماعية تمثل الأربطة التى تشد المعاقد إلى المعاقد، فتكون الكتلة البشرية المتماسكة القوية التى لا تهون"[٤].

يقول الأستاذ/ عبد الرحمن حبنكة: "إن إنهيارأى خلق من الأخلاق الفاضلة، يقابله دائماً انقطاع رابطة من الروابط الإجتماعية، وبذلك يصبح المجتمع مفككاً متفرقاً، وقد أدرك أعداء الإسلام هذه الحقائق عن مكارم الأخلاق فعملوا على إفساد، وتدمير أخلاق المسلمين، مستخدمين فى ذلك شتى أنواع الطرق التى توصلهم إلى أهدافهم وأغراضهم ليبعثروا قوى المسلمين التماسكة بالأخلاق الإسلامية العظيمة، وليفتتوا وحدتهم التى كانت مثل الجبل الراسخ قوة، ومثل الجنة الوارفة خضرة وبهاء وثمراً،إنَّ أعداء الإسلام جندوا جيوش الفساد والفتنة لغزو رابطة المسلمين بإفساد أخلاقهم الفاضلة"[٥].

---

[١] سورة القلم الآية ٤.
[٢] سورة الأحزاب الآية ٢١.
[٣] رواه الإمام أحمد فى مسند المكثرين ٥٦٤/١٧، وإسناده صحيح ووافقه الذهبى حديث رقم ٢٥١٧٨.
[٤] بالإيمان والأخلاق تبنى الأمم صـ ٧٦، ط وزارة الأوقاف الإدارة العامة لبحوث الدعوة- جمهورية مصر العربية- وزارة الأوقاف.
[٥] الأخلاق الإسلامية وأسسها صـ٣٧.

من أجل ذلك دعا الإسلام إلى التحلى بالأخلاق الكريمة، لينقل البشرية إلى حياة سعيدة مشرقة بالفضائل والأداب الكريمة.

فمن دعوته إلى محامد الأخلاق ومحاسن الشيم، ماروى عن الأعمش قال حدثنى شقيق عن مسروق قال كنا جلوساً مع عبد الله بن عمرو يحدثنا إذ قال لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً وإنه كان يقول (إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً)[١].

كما ينبغى أن يعلم الإنسان أنه ليس هناك شئ أفضل ولا أعظم من الأخلاق الكريمة فعن أم الدرداء عن أبى الدرداء، أن النبى ﷺ قال (ما شئ أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله ليبغض الفاحش البذئ قال أبو عيسى وفى الباب عن عائشة وأبى هريرة وأنس وأسامة بن شريك وهذا حديث حسن صحيح)[٢].

"وهكذا يعلمنا الإسلام بتشريعاته القيمة، وسلوكياته الرفيعة، أن الصفات الفاضلة المحددة، تكسب أهلها المدح والثناء وتجعلهم أهلاً للمكانة العالية فى الدنيا والآخرة"[٣].

"ومن أجل هذا المعنى نجد الإرتباط الوثيق بين عقيدة الإسلام وتشريعاته فكلها وسائل لصقل النفس وتهذيبها وإقامتها على الصراط المستقيم، فالعقيدة من إيمان بالله، وتقديس له، من شأنها أن توقظ حواس الخير، وتربى ملكة المراقبة، وتبعث على طلب معالى الأمور وأشرافها، وتنأى بالإنسان عن محقرات الأمور وسفاسف الأعمال، والله سبحانه له الكمال المطلق والرحمة الواسعة، ولا يدخل فى حظيرة قدسه إلاَّ من تخلق بأخلاقه واتصف بصفاته"[٤].

وخلاصة القول: أن الأخلاق الإسلامية ضرورة حتمية للأفراد والمجتمعات، لما تنطوى عليه من مبادئ ومثل إنسانية عالمية تصلح للإنسان بصرف النظر عن مكانه وزمانه، لأنها من وضع خالق البشر العليم بخلقه، وما يناسبهم من مبادئ الأخلاق.

غاية الأخلاق الإسلامية:

إن غاية الأخلاق الإسلامية هى بيان معالم الطريق إلى الله ﷻ من أجل الوصول إلىالسعادة الأخروية.

---

[١] رواه البخارى، كتاب الأدب، باب حسن الخلق وما يكره من البخل ٥/٢٢٤٤.

[٢] سنن الترمذى، كتاب البر والصلة، باب ما جاء فى حسن الخلق حديث رقم ٤٢٠٠٢/ ٣١٨، ٣١٩، وقال أبو عيسى هذا حديث صحيح.

[٣] مكارم الأخلاق للحافظ ابن أبى الدنيا صـ٦، ٧ تحقيق وتعليق: مجدى السيد إبراهيم ط مكتبة القرآن - بدون.

[٤] دعوة الإسلام للشيخ/ سيد سابق صـ١٢١، ١٢١ ط دار الفتح للإعلام العربى- القاهرة- بدون.

ويوضح د/ سعد الدين صالح الهدف الأسمى الذى تهدف إليه الأخلاق الإسلامية فيقول: "للسلوك الإنسانى نوعان من الغايات:

- غايات شخصية أو جزئية حين يحققها الفرد يشعر أنها ليست هى غايته النهائية التى تقف عندها رغباته.
- وغايات عامة أو كلية، وهى التى ينبغى أن تكون المقصود الحقيقى من السلوك الإنسانى وهى غاية الغايات، وليست وسيلة لغاية بعدها وهى السعادة"[١].

وفى هذا يقول ابن مسكويه: "كل إنسان له غاياته فى الحياة وأما الإختلاف بينهم فى نوعية هذه الغاية، فكل واحد منهم قد نصب غاية لنفسه يقصدها بسعيه، ويسميها سعادة له، كمن يسعى للذة أو للثروة، أو للصحة أو للتعلية أو للعلم، وإنما أتوا فى هذا الإختلاف من قبل أنهم لم يلحظوا الكمال البعيد أعنى السعادة القصوى، ولو عرفوها ونصبوها غرضاً، لسعوا بالباقيات نحوها" [٢]، ولقد بين النبى ﷺ لنا جميعاً أنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق ويأمرنا بها، فقد روى البخارى فى باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل قال ابن عباس كان النبى ﷺ أجود الناس وأجود ما يكون فى رمضان وقال أبو ذر لما بلغه مبعث النبى ﷺ قال لأخيه اركب إلى هذا الواد فاسمع من قوله فرجع قال: (رأيته يأمر بمكارم الأخلاق) [٣].

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق) [٤].

يقول د/ القرضاوى: "وبهذا يتجلى شمول الأخلاق الإسلامية من حيث موضوعها ومحتواها، ولكن الشمول فى الأخلاق الإسلامية يبدو كذلك إذا نظرنا إلى فلسفتها ومصدر الإلزام بها"[٥].

فالأخلاق فى الإسلام إنسانية عالمية، لا تتيح لجنس ما تحرمه على آخر، العرب والعجم فيها سواء، بل المسلمون وغيرهم أمام أخلاقها سواسية"[٦].

---

[١] المجلة العلمية لكلية أصول الدين، العدد الخامس صـ٢٩، والمقال للأستاذ الدكتور/ سعد الدين صالح تحت عنوان: الأخلاق فى ضوء الفكر الإسلامى.

[٢] السعادة لابن مسكويه صـ٣٥، ط دار القاهرة- بدون.

[٣] رواه البخارى، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل ٥/٢٢٤٤.

[٤] رواه البيهقى فى شعب الإيمان، باب حسن الخلق ٦/٢٣٠، ٢٣١، حديث رقم ٧٩٧٨ وإسناده حسن، ط دار الفكر – بيروت- لبنان.

[٥] الخصائص العامة للإسلام، للدكتور/ يوسف القرضاوى صـ١٠٩.

[٦] الجانب الأخلاقى فى الأديان وأثره فى الحوار، للدكتور/ محمد قمر الدولة محمد ناصف صـ٤٩، ط مكتبة الأزهر الحديثة أمام جامعة الأزهر بطنطا- بدون.

ولاشك أن للإنسان سعادات أبيحت له وهى النعم المذكورة فى قوله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (١)، إلاَّ أن هذه السعادات تفنى، وتنتهى، وسرعان ما يشبع منها الإنسان، ولا تحقق رغبته، فالسعادة الحقيقية ينبغى أن تدوم ولا تحول ألا وهى السعادة الأخروية.

ومن هنا كان لابد أن تكون السعادة الدنيوية، من خلال النعم وسيلة إلى السعادة الأخروية، وإلاَّ كانت: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢).

فالسعادة الحقيقية تكون فى الدنيا بالإيمان بإله واحد خالق مدبر لأقدار عباده، منه الضر والنفع، وبيده الحياة والموت، والرزق، وبالخضوع لقضائه وقدره، وحكمه وشرعه، باليقين بأن المرجع والمنتهى إليه.

فإذا ما حقق الإنسان رغباته الدنيوية من خلال أمر الله ونهيه وحكمه وشرعه كان هو السعيد بحق فى الدنيا ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٣).

وكان هو السعيد فى الأخرة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٤).

وإذا علم الإنسان أن مرجعه، ومنتهاه إلى ربه كانت غايته القصوى هى إرضاء ربه، والسير على منهجه ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ (٥)، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ (٦)، فهذه هى السعادة التى تنتهى عندها كل أنواع السعادات الجزئية والوقتية والمتغيرة، ومن هنا تكون غاية الأخلاق الإسلامية هى بيان معالم الطريق إلى الله تعالى"(٧).

---

(١) سورة النحل الآية ١٨.
(٢) سورة النور الآية ٣٩.
(٣) سورة الحج الآية ٤١.
(٤) سورة النحل الآية ٣٠.
(٥) سورة العلق الآية ٨.
(٦) سورة النجم الآية ٤١.
(٧) المجلة العلمية لكلية أصول الدين العدد الخامس صـ٢٩- ٣٠، والمقال للأستاذ الدكتور/ سعد الدين صالح تحت عنوان الأخلاق فى ضوء الفكر الإسلامى.

"والأمة التى تريد أن تحيا بالإيمان والأخلاق لابد أن تكيف حياتها ومناهد تفكيرها وسلوكها وفقاً لما يوجبه عليها منطق الإيمان والأخلاق، وإلا كان إيمانها وأخلاقها حبراً على ورق ودعوا بلا برهان"[١].

يقول الشيخ/ محمود شلتوت: "وفى ظل الشعبة- شعبة الأخلاق- يكون الربانيون والشهداء الصالحون، وفى ظلها يكون الأئمة والهداة والمرشدون، وفى ظلها تطهر النفس الإنسانية من الحقد والحسد والنفاق والحبن والكذب والخيانة وما إلى ذلك من الأخلاق السيئة التى كثيراً ما أفسدت على الناس حياتهم وتوارت فى ظلمتها القائمة وسائل الخير والصلاح.

إن صلاح الباطن أساس لكل إصلاح ظاهرى، ولا بقاء للإصلاح الخارجى إلاَّ إذا تركز وكان نتيجة وأثراً للإصلاح الباطنى، وشعبة الأخلاق هى الكفيلة بالإصلاح الباطنى، وهى الشجرة الطيبة التى ثبت أصلها، وطاب ثمرها وأتت أكلها كل حين بإذن ربها، فصلاح الظاهر يكون نتيجة لصلاح الباطن"[٢].

"فالجانب الأخلاقى فى الإسلام يسرى فى كيان الإسلام كله من عقائد وعبادات ومعاملات بكل ما تشتمل عليه من اقتصاد وسياسة وحرب وغير ذلك، لدرجة أن سلفنا كان يكتب الكتب فى عمل اليوم"[٣].

وخلاصة القول: "إن المبادئ والقيم الإنسانية لاتؤتى ثمارها، ولا يكون لها أى أثر فعال فى النفوس حتى تتمثل فى سلوك خلقى رفيع، يشاهده الناس ويلاحظونه فى شخص من يدعو لأى هذه المبادئ وتلك القيم، والذين يقتدون به ويتأسون بأفعاله، ويترسمون خطاه، لتطبيق العملى أعمق أثراً فى الدعوة إلى المبادئ وغرسها فى النفوس من مجرد النصح والإرشاد بالكلمات.

فإذا حدث تناقض عند الداعية بين قوله وفعله، وكانت أفعاله على عكس أقواله، ونصائحه وإرشاداته، فقد ثقة الناس فيه، وفى مبادئه التى يقوم بالدعوة إليها، وبالتالى فقدت هذه المبادئ حيويتها وتأثيرها فى النفوس"[٤].

هذا وبعد أن ألقينا الضوء على الأخلاق وأهميتها، والغاية منها، نلقى الضوء على بعض النماذج من الأخلاق التى حثنا عليها الإسلام وأمرنا بها فنقول وبالله التوفيق.

---

(١) بالإيمان والأخلاق تبنى الأمم صـ٩٠-٩١.

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة صـ٤٦٥ باختصار وتصرف.

(٣) خلق الإسلام صـ٧-٨ للشيخ/ محمد الغزالى، ط دار الكتب الحديثة القاهرة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٤) الجانب الإجتماعى عن رسالة الإسلام للأستاذ/ محمد رجاء حنفى عبد المتجلى صـ٧٩-٨٠ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، العدد ٩٩، ١٣٩٧هـ- ١٩٩٧م.

المبحث الثانى

الإخلاص وأثره على الفرد والمجتمع المسلم

obeikandl.com

الإخلاص وأثره على الفرد والمجتمع المسلم

مُقَدِّمَة

القلب مصدر الإشعاع الروحى للإنسان، بصلاحه يصلح كل الجسد، وبفساده يفسد، فهو المهيمن على سلوكه، والمتحكم فى تصرفاته، وعلى قدر ما استقر فيه من نور، يكون عمل الإنسان منصرفاً إلى وجوه الخير والبر، وعلى العكس من ذلك يكون الإنحراف والضلال على قدر ما حل فى القلب من ظلام، لأنه محل النية، ومبعث الإرادة، وإنما تقاس صلاحية الأعمال، وفسادها، بقدر ما تصاحبها من نية خيرة أو سيئة، لهذا كانت النية هى الأساس فى جميع الأعمال.

تعريف الإخلاص فى اللغة:

قال صاحب اللسان: "خلص الشئ بفتح اللام يخلص خلوصاً إذا كان قد نشب، ثم نجا وسلم، وأخلص وخلص وأخلص دينه لله أمحضه، وأخلص الشئ اختاره وقرئ ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [1]".

يعنى بالمخلِصين- بكسر اللام- الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، وبالمخلَصين- بفتح اللام- الذين أخلصهم الله تعالى، أى أن المخلَص- بفتح اللام- الذى أخلصه الله تعالى، وجعله مختاراً خالصاً من الدنس، والمخلِص – بكسر اللام- الذى وحد الله تعالى خالصاً.

وكلمة الإخلاص هى كلمة التوحيد، وأخلص لله تعالى ترك الرياء"[2].

يقول الزمخشرى: "ومن المجاز أخلص له المودة وأخلص لله دينه ونطق بشهادة الإخلاص وهى كلمة الشهادة، وهذا ثوب الخلاص إذا كان صافى البياض"[3].

ويقول الدكتور/ محمد سيد طنطاوى: "كلمة الإخلاص تشير إلى الصفاء والنقاء والخلو من الشوائب والنفاق والرياء، لأن الشئ الخالص هو الخالى من كل دنس وريبة"[4].

الخلاصة: من الوقوف على حقيقة الإخلاص اللغوية عند بعض أساطين علم اللغة نستطيع أن نقول:

---

[1] سورة الحجر الآية ٤٠.

[2] لسان العرب مادة خلص ١٤٢٢/٢، لابن منظور ط بيروت- ١٣٧٥هـ- ١٩٦٥م.

[3] أساس البلاغة مادة خلص صـ٢٤٦ لأبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى- كتاب الشعب ١٩٦٠م.

[4] نماذج من خطب الجمعة للدكتور/ محمد سيد طنطاوى الجزء الأول صـ٧ الطبقة الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

١- أن كلمة الإخلاص تدل على النقاء والصفاء والتنزه من الشوائب المادية أو المعنوية يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (١).

٢- الإخلاص يحتاج إلى شئ من المجاهدة والصبر، وقوة التحمل فالخلاصة بكسر الخاء وضمها ما أخلصته النار من الذهب وغيره.

٣- وفيه أيضاً معنى السلامة والنجاة، يقال: خلصنى فلان من كذا، إذا سلم منه ونجا.

٤- كذلك فيه معنى الصدق والطهارة، يقال: أخلص فلان لفلان فى وده، إذا كان صادقاً فيه طاهراً"(٢).

تعريف الإخلاص إصطلاحاً:

لقد عنى رجال التصوف كثيراً بأمر الإخلاص، وأثرت عنهم أفانين من الكلمات والعبارات فيه، نقتطف منها:

١- **يقول القشيرى فى رسالته:** "الإخلاص أن يقصد المسلم بعمله وجه الله تعالى، وأن يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى دون أى شئ آخر من تصنع المخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعانى سوى التقرب إلى الله تعالى"(٣).

٢- **وقيل:** "الإخلاص فقد رؤية الإخلاص فإن من شاهد فى إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص"(٤).

٣- **وقيل:** "الإخلاص ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما"(٥).

٤- **وقيل:** "الإخلاص إستواء أفعال العبد فى الظاهر والباطن"(٦).

٥- **وقيل:** "الإخلاص هو القصد بالعبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحدة"(٧).

---

(١) سورة النحل الآية ٦٦.

(٢) المجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق- العدد العاشر- الجزء الثانى صـ ٨٥٦- ٨٥٧ تحت عنوان: الإخلاص فى القرآن الكريم للأستاذ الدكتور/ محمد الرفاعى عبيد.

(٣) الرسالة القشيرية ٤٤٣/٢ باختصار للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى تحقيق د/ عبد الحليم محمود، والشيخ/ محمود بن الشريف، ط دار الكتب الحديثة، مطبعة حسان ١٩٧٤م.

(٤) إحياء علوم الدين ٣٨١/٤، ٣٨٢ باختصار.

(٥) تهذيب مدارج السالكين صـ٣٢٢-٣٢٣.

(٦) من كنوز الإسلام صـ٣٠٧.

(٧) موسوعة نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول ﷺ ١٢٤/٢، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ملوح، المجلد الثانى- دار الوسيلة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ- ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م جدة- المملكة العربية السعودية.

٦- **ويقول الشيخ/ محمد بن علوى المالكى:** "معنى الإخلاص أن يكون قصد الإنسان فى جميع طاعاته وأعماله مجرد التقرب إلى الله تعالى وإرادة قربه ورضاه دون غرض آخر من مراءاة الناس، أو طلب محمدة منهم أو طمع فيهم"[١].

بناء على ما سبق أقول:

أن هذه العبارات كلها تدور حول مقصد واحد فيما أرى وهو أن الإخلاص تصفية للعمل والقول والعبادة مما يشوبها من رياء ومراءاة أو خداع أو كذب، ويأتى فى مراتب عديدة، وهى طرح العمل وعدم رؤيته، فضلاً عن طرح طلب العوض عنه، والخجل من العمل مع بذل الوسع والغاية فيه، مع رؤية التوفيق فى العمل المخلص على أنه جود من الله تعالى، ثم إخلاصه بالخلاص منه، أى جعله خالصاً لوجه الله تعالى.

وبعد هذا العرض الموجز لحقيقة الإخلاص عند أهل اللغة وأهل الشرع يتبين لنا فى جلاء ووضوح أن ثمة علاقة قوية تربط بين الحقيقتين، فالمخلص لله تعالى لابد أن يكون على درجة عالية من الصفاء والنقاء من كل الأكدار والشوائب، وأن يتمتع بدرجة سامية من الصدق والطهارة، وهو فى ذلك لابد من مجاهدة نفسه، ووساوس الشيطان ونزعاته فهو يحتاج إلى صبر كبير، لمغالبة نفسه وهواه، وبذلك يسلم وينجو من غضب الله وعقابه فى الدنيا والآخرة"[٢].

قبول الأعمال متوقف على إخلاص النية:

إن صلاح النية وإخلاص القلب لرب العالمين يرفعان منزلة العمل الدنيوى البحت فيجعلانه عبادة متقبلة، كما أن فساد النية ينزل بالطاعات وتنقلب معه معاصى، فلا ينال المرء بعد التعب فى أدائها إلاَّ الفشل والخسارة.

يقول الشيخ/ محمد الغزالى: "إن صلاح النية وإخلاص الفؤاد لرب العالمين يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوى البحث، فيجعلانه عبادة متقبلة.

وإن خبث الطوية يهبط بالطاعات المحضة، فيقبلها معاصى شائنة فلا ينال المرء منها، بعد التعب فى آدائها، إلاَّ الفشل والخسار.

---

[١] قل هذه سبيلى صـ١٩٥ للشيخ/ المالكى.

[٢] المجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق العدد العاشر صـ٨٥٨.

فقد يبنى الإنسان قصراً منيف الشرفات، فسيح الردهات، وقد يغرس حديقة ملتفة الأغصان متهدلة الأثمار وهو بين قصره المشيد، وبستانه النضيد يعد من ملوك الدنيا، بيد أنه إذا قصد من ورائه بنيانه وغراسه نفع الناس، كان له فيهما ثواب غير مقطوع"[١].

فصلاح النية، وإخلاص العمل لله رب العالمين، سبيل القبول، وطريق الوصول إلى رضا الله سبحانه وتعالى، لأن العبد لايؤجر على عمله إلاَّ إذا ابتغى به وجه خالقه قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٢].

يقول الشيخ/ عبد الرحمن حسن حنبكة: "ومسؤولية الإنسان الحقيقية عن عمله منوطة باستيفاء عدة شروط منها:

أن تتوافر فى العمل النية والقصد لما ينجم عنه من نتائج خير أو شر، أى تكون نية الإنسان وغايته المقصودة له من عمله الإيجابى أو السلبى ما ينتج عن العمل فعلاً من خير أو شر.

فإذا كان لصاحب العمل نية أو غاية أخرى غير ذلك، فإن المسؤولية الحقيقية عند الله تكون وفق نيته وغايته، دون ظاهر السلوك ومانجم عنه، وأما السلوك الظاهر فيكون عندئذ من قبيل العمل الملغى، وتكون نتائجه من قبيل القضاء والقدر المحض ولذلك تلغى عند الله اعمال المرائين والمنافقين، مهما كان مظهرها مظهر صلاح وخير ويحاسبون على نياتهم وغاياتهم التى كانوا يضمرونها فى قلوبهم، ويتجاوز الله عن أعمال المسيئين، إذا كانت نياتهم التى يضمرونها فى قلوبهم نيات صالحة، بشرط أن يكونوا معذورين فى أخطائهم بممارسة الأعمال السيئة.

وقد دلنا الله ﷻ على هذه الحقيقة بعدة نصوص، منها قول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [٣].

---

[١] خلق المسلم صـ٦٨-٦٩.
[٢] سورة الأنعام الآيتان ١٦٢-١٦٣.
[٣] سورة البقرة الآية ٢٦٤.

ومنها قوله تعالى فى سورة البقرة أيضاً: ﴿لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١).

ولما كانت دوافع الأعمال وما تكنه الصدور من نيات، كان الإبتلاء موجهاً لما فى الصدور، قال الله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢).

ولما كان الخطأ خالياً من القصد القلبى كان من مقضى العدل الربانى رفع الجناح عنه، قال الله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٣).

هذا عند الله لأن الله يعلم ما فى قلوب عباده من نيات ومقاصد، ولذلك كانت النيات عنده هى مناط المسؤولية، ومناط ترتيب الجزاء"(٤).

والنص الكلى الجامع فى هذا الباب هو ما جاء فى الحديث الصحيح الذى يقول الرسول ﷺ فيه: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى إمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) (٥).

فبدأ الحديث بأداة الحصر وهى (إنما) ليبين لنا أن حصر قبول الأعمال يكون على أساس من النية.

فالأعمال تحدد قيمتها الحقيقية بقيمة النيات الباعثة عليها، أما مظاهر الأعمال المادية فلا قيمة لها وحدها، لكن إذا استوت النيات فإنه ينظر بعد ذلك إلى قيم الأعمال المتفاوتة، والله تعالى لا يضيع مثقال ذرة من عمل يبتغى به وجهه.

يقول الشيخ/ أحمد فريد: "والنية الصالحة لا تغير المعاصى عن مواضعها، فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قولهﷺ: (إنما الأعمال بالنيات) فيظن أن المعصية تصير طاعة بالنية، فإذن قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات) يخص من أقسام العمل الثلاثة الطاعات والمباحات دون المعاصى، إذ أن الطاعة تنقلب معصية بالقصد، ودخول النية فى المعصية إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها، والطاعات مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها، وفى تضاعف فضلها، فأما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله وحده، فإن نوى الرياء صارت

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٥.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٤.
(٣) سورة الأحزاب الآية ٥.
(٤) الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/١٢٠، ١٢١ بتصرف.
(٥) رواه البخارى، كتاب بدء الوحى، تحت عنوان: كيف كان بدء الوحى إلى الرسول ﷺ ١/٣.

معصية، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة، أما المباحات فما من شئ منها إلاَّ ويحتمل نية أونيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات"[١].

والطريق إلى الإخلاص هو محاربة أهواء النفس، ومقاومة الطمع فى الدنيا، والتجرد للإقبال على الآخرة، وإحياء خشية الله فى القلب، وهذا الإخلاص إذا صدق استلزم صواب العمل وطهارته، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [٢].

روى فى سبب نزول هذه الآية: أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله: إنى أتصدق، وأصل الرحم، ولا أصنع ذلك إلاَّ لله تعالى، فيذكر ذلك منى، وأحمد عليه، فيسرنى ذلك، وأعجب به!! فسكت رسول الله ﷺ، ولم يقل شيئاً فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [٣]،[٤].

يقول ابن كثير فى تفسيره للآية الكريمة: "﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾: أى ما كان موافقاً لشرع الله، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، وهو الذى يراد به وجه الله وحده، لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل لابد أن يكون خالصاً لله وصواباً على شريعة رسول الله ﷺ"[٥].

"ولذا يقول بعض الصالحين: الإخلاص هو صدق النية مع الله ﷻ [٦].

"فالمخلص هو الذى تكون التقوى متمكنة فى قلبه يبالغ فى أداء الطاعات على سبيل الإخلاص"[٧].

كما ينبغى أن يعلم العبد أن كل خير هو فيه ، هو مجرد فضل الله ومنته وإحسانه ونعمته، والذى يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران هما:

الأول: أن يطالع العبد عيوبه وآفاته وتقصيره فيه- أى فى العمل- وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان، فكل عمل من الأعمال إلاَّ وللشيطان فيه نصيب وإن قل، وللنفس فيه حظ.

الثانى: أن يعلم العبد ما يستحقه المولى ﷻ من حقوق وواجبات وآداب ظاهرة وباطنة.

---

[١] البحر الرائق فى الزهد والرقائق صـ١٨.
[٢] سورة الكهف الآية ١١٠.
[٣] سورة الكهف الآية ١١٠.
[٤] مدارج السالكين ٦٥/٢.
[٥] تفسير ابن كثير ١٠٨/٣.
[٦] موسوعة أخلاق القرآن الكريم للدكتور/ أحمد الشرباصى ١٨٣/٢ ط دار الرائد العربى – بيروت- بدون.
[٧] تفسير الرازى ٣٣/٣٢.

يقول ابن القيم: معلقاً على هذا الأمر أى: "علمه بما يستحقه الرب جل وعلا، من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز من أن يوفيها حقاً، وأن يرضى بها لربه، فالعارف ما يرضى بشئ من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله طرفه عين ويستحيى من مقابلة الله بعمله.

فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله ﷻ يحول بينه وبين الرضا بعمله والرضا من نفسه.

وقال بعضهم: آفة العبد رضا عن نفسه، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور"[١].

فكم من أعمال يتعب الشخص فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله تعالى، ويكون فيها مغروراً، لأنه لا يرى وجه الآفة فيها، فدقائق الآفات قلماً تسلم الأعمال منها.

يقول أحمد فريد: "الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فإذا ذاك يتيسر الإخلاص، وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها من المغرورين، كما حكى عن بعضهم أنه كان يصلى دائماً فى الصف الأول فتأخر يوماً عن الصلاة، فصلى فى الصف الثانى فاعترته خجله من الناس حيث رأوه فى الصف الثانى، فعلم أن مسرته وراحة قلبه فى الصلاة فى الصف الأول كانت بسبب نظر الناس إليه، وهذا دقيق غامض قلماً تسلم الأعمال من أمثاله، وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى.

والغافلون عن الإخلاص يرون حسناتهم يوم القيامة سيئات، وهم المقصودون بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ۝ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[٢].

وبقوله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٣]،[٤].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين لابن القيم صـ٣٣٣-٣٣٤.
(٢) سورة الزمر الآيتان ٤٧-٤٨.
(٣) سورة الكهف الآيتان ١٠٣-١٠٤.
(٤) البحر الرائق فى الزهد والرقائق صـ١٦-١٧.

فليس ظاهر الإنسان، ولا ظاهر الحياة الدنيا هو الذى يمنحه الله رضوانه، فإن الله تبارك وتعالى يُقبل على عباده المخبتين المخلصين، ويقبل منهم ما يتقربون به إليه، أما ما عدا ذلك من زخارف الدنيا وتكلفات البشر فلا قيمة له ولا اكتراث به.

روى الإمام مسلم رحه الله تعالى من حديث أبى هريرة ﷺ، سمعت النبى ﷺ يقول: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل إستشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلاَّ أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار) [١].

وفى هذا الحديث الشريف تصوير كامل لأهم جوانب الإخلاص التى يجب أن يراعيها المسلم، فى الجهاد، وفى العلم وفى الإنفاق إن كل جانب من هذه الجوانب يمثل بذلاً واسعاً لابد فيه من الإخلاص.

ففى الجهاد بذل للنفس، وفى الإنفاق بذل للمال، وفى العلم بذل للمعرفة، والتعليم، حتى تسود أسس السعادة فى الدنيا والآخرة.

فالإخلاص بمعناه الحقيقى ليس قاصراً على بعض الأعمال دون البعض، فمدلوله واسع، ورحابه فسيح، وميدانه بعيد الحدود يشمل كل الأعمال حتى ما كان منها دنيوياً بحتاً، فإن الإخلاص يحولها إلى طاعات متقبلة وقربات صالحة، فما يقيمه الناس من عمارات شاهقة، وما يقوم به الموظف فى وظيفته من أعمال والصانع فى مصنعه والتاجر فى متجره، والزارع فى مزرعته، وكل عمل من أعمال الدنيا، إذا قصد به منفعة الناس، وخدمتهم تحول إلى طاعة تقرب العبد من ربه.

قال ﷺ: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلاَّ كان له به صدقة) [٢].

---

[١] رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة إستحق النار ١٥١٣/٣.

[٢] رواه البخارى، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ٨١٧/٢، ومسلم فى كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع ١١٨٩/٣.

بل إن ما تشتهيه النفس من لذة، وما تتشوق إليه من متعة، إذا قارنتها نية صالحة، وغاية مخلصة فإنها – أيضاً- تتحول إلى قربات يتقرب بها العبد من ربه، فمواقعة الرجل لإمرأته بقصد إعفافها وعفته صدقة، مصداقاً لقول خير خلق الله ﷺ: (وفى بضع أحدكم صدقة) [١].

والإنسان يتناول طعامه بقصد التَقَوىّ على الطاعة، والقدرة على عبادة الله: صدقة ويتكسب الرجل ليطعم زوجته، وأولاده وخادمه، صدقة. عن سعد بن أبى وقاص أنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال: (إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلاَّ أجرت عليها حتى ما تجعل فى فم امرأتك) [٢].

والجندى حين يجاهد أعداء الله لا يعتبر جهاده جهاداً فى سبيل الله إلاَّ إذا أخلص جهاده من كل ما ليس لله، فيجاهد لإعلاء كلمة الله ، ونصرة الحق، وخذلان الباطل، ودفع الظلم، ومحاربة الإستبداد. فقد روى البخارى ومسلم عن أبى موسى قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله ما القتال فى سبيل الله فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية فرفع إليه رأسه قال وما رفع إليه رأسه إلاَّ أنه كان قائماً فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ﷻ) [٣].

يقول أحمد فريد فى كتابه البحر الرائق: قال بعض السلف رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية.

وقال بعضهم: تجارة النيات تجارة العلماء والمعنى: أن العلماء هم الذين يعلمون كيف يعاملون ربهم ﷻ ويربحون عليه ﷻ أعظم الربح، أما فى الطاعات فينوى فى الطاعة الواحدة نيات كثيرة، كمن يقصد الذهاب إلى المسجد فينوى أنه زائر لبيت الله وقاصد كذلك صلاة الجماعة التى تعدل صلاة الفذ بسبع وعشرين ضعفاً، وينوى مع ذلك سماع الذكر من العلماء وإفادة العلم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إذ المسجد لايخلو من جاهل يسئ فى صلاته، وينوى مع ذلك أن يستفيد أخاً فى الله فإن ذلك غنيمة ونصرة للدار الآخرة، وينوى كذلك ترك الذنوب حياء من الله تعالى، فما من طاعة إلاَّ وتحتمل نيات كثيرة.

---

[١] رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن إسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروفة ٦٩٧/٢.
[٢] رواه البخارى، كتاب الجنائز، باب رثى النبى ﷺ سعد بن خولة ٤٣٥/١، ومسلم فى كتاب الوصية، باب الوصية فى الثلث ١٢٤٩/٣.
[٣] رواه البخارى، كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً ٥٨/١، ومسلم ١٥١٢/٣.

أما المباحات: فما من شئ منها إلاَّ ويحصل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات، كما قال بعضهم إنى لأحتسب نومتى كما أحتسب قوتى، ونصح بعضهم فقال: لا تعملن عملاً إلا بنية.

فيمكن للعبد أن يستحضر نية صالحة فى مباحاته فتصبح بذلك قربات، فالطيب مثلاً إن قصد به التلذذ والتنعم فهو مباح، وإن نوى به إتباع سنة رسول الله ﷺ فهو قربة، وإن نوى به التودد إلى قلوب النساء الأجنبيات والتفاخر فهو معصية، فإذن المباح بالنية الصالحة يرتفع إلى قربة، وبالنية الفاسدة يصبح معصية"[١].

ومن كمال العدل الربانى فى موضوع الأعمال والنيات الباعثة عليها، أنه إذا وجدت النيات الجازمات ولكن لم يتم التنفيذ للأعمال التى تقتضيها بسبب يرجع إلى الإنسان نفسه، فإن سيئاتها لاتكتب عليه، ويتجاوز الله عنها، فإذا كان ذلك خوفاً من الله وابتغاء مرضاته، فإن الله يكتب له بذلك حسنة، وأما حسناتها فتكتب له فى صحيفته على مقدارها دون مضاعفة بخلاف ما لوفعلها فإنها تضاعف له أضعافاً كثيرة فضلاً من الله وكرماً.

ويدل على ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن إبن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه ﷻ قال: (قال إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبه الله له عنده حسنة كامل فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة) [٢].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: (لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا إستنفرتم فانفروا) [٣].

وروى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: (إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) [٤].

ويدل ذلك على أن الأعمال لا ينظر إليها عند الله ﷻ إلاَّ من خلال النيات الباعثة عنها، وبحسب هذه النيات يجرى الحساب والجزاء على الأعمال عند الله تبارك وتعالى.

ومجمل القول: "أن النية لها فضل عظيم، وبها يتم كل نجاح وفلاح بشرط أن تكون هذه النية صالحة وصافية ويترتب عليها عملاً صالحاً ينبغى به وجه الله، وذلك يكون بألاَّ ترائى

---

[١] البحر الرائق فى الزهد والرقائق صـ١٩-٢٠.
[٢] رواه البخارى، كتاب الرقائق، باب من هم بحسنة أو سيئة ٥/٢٣٨٠، ومسلم ١/١١٨.
[٣] رواه البخارى، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير ٣/١٠٢٥، ومسلم ٣/١٤٨٧.
[٤] رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله ٤/١٩٨٦.

بعملك بشراً ولا تنافق به مخلوقاً، لأن الذى يجازيك على عبادتك، ويكافئك على طاعتك ويحاسبك على كل ما تقدمه من خير أو شر إنما هو الله، فهو وحده النافع والضار، وهو وحده الجدير بالعبادة والإجلال، الخليق بالتقدير والإحترام فلا نخشى أحداً غيره، ولا نعظم موجوداً سواه، كما ينبغى أن يعلم الإنسان أن الله مطلع على قلبه ومحيط بسره وعلانيته، خبير بظاهره وباطنه فلا يقصد بعمله غير الله لأنه ولى نعمته ومنبع كرامته وملء سمعه وبصره، كما ينبغى أن يعلم أن الرياء هو الشرك الخفى الذى يمقت الله عليه، ويحبط العمل بسببه ويفضح صاحبه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ثم يؤمر به إلى النار وعند ذلك يندم الإنسان حيث لا ينفعه الندم، ويتحسر حيث لا تفيده الحسرة ويطلب الرجعة إلى الدنيا فلا يجد إليها سبيلاً"[1].

وبعد.... فإن النوايا المخلصة الصالحة تكشف أما صاحبها الطريق، وتعبد له سبل الوصول إلى آماله وأمانيه، وتجعلها بين يديه قريبة المنال محققة الوقوع، ولو كانت كأمثال الجبال.

ثمرات الإخلاص الدنيوية والأخروية:

إبراز ثمار العمل الصالح، والسعى الطيب، والنية الصادقة، ركيزة أساسية فى منهج التنزيل الحكيم، وإذا نظرنا إلى الإخلاص نجد أنه يثمر أطيب النتائج، وأعظم الثمرات، فهو كالشجرة التى كثرت ثمارها ، وطاب جناها، وتشابكت أغصانها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ثمرات الإخلاص كأجر معجل من الله تعالى لأصحابه من عباده المؤمنين فى دنياهم، بخلاف ما هو مدخر لهم عند ربهم فى آخراهم، وكعلامة على طريق سعادتهم الأبدية التى لا تتبدل، ونعيمهم السرمدى الذى لايزول، وبهجتهم الدائمة التى لا تنقطع، ونغمات يقينهم التى لا تقف عند حد.

ذلك لأن أهل الإخلاص قد اختاروا لأنفسهم فى دنياهم الطريق الصعب ذا التبعات الكبيرة، والمغارم الثقيلة والتضحيات العظيمة، والأهداف السامية، والغايات النبيلة، وذلك فى الحقيقة ليس بكثير ولا مستغرب لأن الطريق الذى اختاروه هوبعينه طريق الرسول ﷺ وطريق أصحابه من المؤمنين به، المصدقين برسالته وبكل ما جاءهم به والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم معه، من أجل إعلاء كلمات ربهم، وتدعيم كل ما اشتملت عليه من قيم، وتأكيد كل ما فيها من حق.. إنه طريق الخيرات كلها.. كما أنه طريق الفلاح كله والفوز والنصر كله.

---

[1] سمير الصالحين وأنيس المتقين لأحمد الشهاوى سعد شرف الدين ٦٤/١ بتصرف ط المكتبة التوفيقية بالحسين- القاهرة- بدون.

فالإخلاص روح العمل، وباعث الهمم، يربى فى الإنسان العزيمة الصادقة، وينمى فيه الإرادة القوية، ويصقل إيمانه ويزكى يقينه، ويجعل لعمله ثمرة، لسعيه نتيجة.

ولقد أخبر ربنا الكريم فى محكم كتابه العزيز عن بعض ثمرات الإخلاص كثيراً، وفى آيات لا يكاد يحيط بها الحصر أو يحصيها العد فى صورة جميلة مشوقة، ترتاح لها النفس، ويزداد بها اليقين، ويتدعم بها الإيمان، ويقوى بها الرجاء ويزدهر بسببها الأمل.

يقول صاحب كتاب سمير الصالحين: "وكيف لا يكون الإخلاص كذلك، وهو أصل العبادة وجوهرها، وأساس الطاعة ولبابها، لا تصلح العبادة إلاَّ عليه، ولا تتم مقاصد الدين الحنيف إلاَّ به، فلا قيمة لعمل مهما كان كثيراً ولا وزن لخير مهما كان كبيراً، مالم يصحبه الإخلاص وتتقدمه النية، فإذا لم ينعقد عليه قلب الإنسان، وترسخ على دعائمه عقيدته، وإذا لم تنطوى عليه أعماله، وتقوم على أساسه عبادته، وإذا لم تشتمل عليه الفرائض والنوافل، وتسبق القيام بها والدخول فيها نيته، فإن ذلك كله لاشك هباء لا ينظر الله إليه، ولا يقيم الله له وزناً قليلاً كان أو كثيراً"[1].

جاءت الآيات القرآنية الكثيرة تغرس فى نفوس أهل الإخلاص ممن استقاموا على الطريقة أملاً لا يذبل ورجاء لا يزول، وثقة لا تنتهى كما أنها تمنحهم يقيناً لا يتزلزل وعقيدة لا تتزعزع فى أن ربهم الذى آمنوا به، وأنابوا إليه، وأسلموا وجوههم له، وأخلصوا العمل من أجل نيل رضاه. لن يتخلى عنهم، بل هو معهم بتوفيقه وهدايته فى كل أمورهم، وذلك فى حقيقته أغلى وأسمى ما فى ثمرات الإخلاص الدنيوية المعجلة.

وسأقدم هنا من خلال الكتاب والسنة، بعض الثمرات الدنيوية الطيبة التى تنتج عن الإخلاص وما أعده الله للمخلصين فى الآخرة ليعرف العبد عاقبة أمره، وثمار إخلاصه لربه، فيزداد إيماناً وتمسكاً بهذا الخلق الإسلامى الرفيع.

أ- فى الدنيا:

وللإخلاص ثمرات جليلة فى الدنيا على أن خير ثمار الإخلاص الدنيوية قاطبة هو: محبة الله تعالى لمن أخلص له.

فالإخلاص حينما يستقر فى القلب، ويشع نوره فى الفؤاد، يكون دليلاً على حب الله للعبد، لأن الإخلاص سر من أسرار الله يودعه قلب من يحب من عباده، ودليلاً على رضا الله

---

[1] سمير الصالحين وأنيس المتقين لأحمد الشهاوى ٦٣/١.

عن العبد، لما روى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: (من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لاشريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مات والله عنه راض) [١].

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ: (أن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال أين تريد قال أريد أخاً لى فى هذه القرية قال هل لك عليه من نعمة تربها قال لاغير أنى أحببته فى الله ﷻ قال فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه) [٢].

وإذا كان الإخلاص فى العمل يورث حب الله ورضاه، فإنه- أيضاً- يستوجب تقدير العباد لكل عمل مخلص.

"فقد ورد أن جندياً من جنود المسلمين فى موقعة القادسية عثر على كيس به جواهر غالية، فحمل الكيس، وسلمه لقائده، فتعجب القائد من أمانة هذا الجندى على الرغم من فقره، وقال له: ما اسمك حتى أذكرك لعمر، فيعطيك ويثنى عليك أمام الناس، فغضب الجندى المؤمن الباسل المخلص، وقال لقائده: لو أردت عمر، ما رأيته أنت ولا عمر، ولكنى أردت وجه ربى وربك ورب عمر، فدعا له القائد بخير، وأرسل الجواهر إلى عمر، فلما عرف عمر قصة هذا الجندى قال: أشكر الله أن جعل فى جيشى مثل هذا الجندى الأمين، فقال له أحد الحاضرين: يا أمير المؤمنين: عففت فعفوا ولو رتعت لرتعوا!! [٣].

ولاريب فإن المخلص يحبه الناس، ويثنون عليه بمكارم الأخلاق وطيب الخصال، وتلك بشراه العاجلة فى الدنيا قبل الآخرة، عن أبى ذر قال قيل لرسول الله ﷺ: (أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن) [٤].

"هذا بالإضافة إلى تكريم القرآن لأهل الإخلاص والتقوى، فهذا هو القرآن الكريم يأمر سيدنا محمد ﷺ بتكريم أهل الإخلاص حيث يقول: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٥]،[٦].

---

[١] رواه ابن ماجه فى "سننه" فى المقدمة، باب فى الإيمان ٢٧/١، رقم ٧٠ والحاكم فى المستدرك ٣٦٢/٢، رقم ٣٢٧٧ وقال: صحيح.

[٢] رواه ابن مسلم، كتاب البر والصلة ١٢٤/١٦.

[٣] مجلة منبر الإسلام، العدد ٢، السنة ٢٩. صفر ١٣٩١هـ، أبريل ١٩٧١م، تحت عنوان: طوبى للمخلصين، للأستاذ/ مهدى عبد الحميد صـ٧٣.

[٤] رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب،باب إذا أثنى على الصالح فهى بشرى ولا تضره ٢٠٣٤/٤، رقم ٢٦٤٢ وأحمد فى مسنده ١٥٦/٥ من حديث أبى ذر.

[٥] سورة الأنعام الآية ٥٢.

[٦] قبس من التربية الإسلامية للدكتور/ محمد سعيد عرام ٢٧/٢ مطبعة العبير الزقازيق ٢٠٠٢م.

وهل بعد تكريم النبى لهم بأمر الله له تكريم؟

ومن ثمرات الإخلاص الدنيوية أيضاً: انقطاع الوسواس عن المخلص، فقد تكفل الله سبحانه وتعالى للمخلصين بحمايتهم من الشيطان فلا يستطيع السيطرة عليهم يقول تعالى على لسان إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١).

أى لأغوينهم أجمعين إلاَّ عبادك الذين أخلصوا لك القول والعمل، فأخلاقهم صورة من صور أعمالهم وعباداتهم، وإخلاصهم أثر من آثار ذلك فى حياتهم، إذ الناس صنفان: صنف خاضع لشهواته ونزواته وهم حرس الشيطان، وصنف أخلص فى عبادته ولم يخالف أمر خالقه ورازقه، وأولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون.

يقول الشيخ/ أحمد فريد فى كتابه البحر الرائق فى الزهد والرقائق: "ولا يتخلص العبد من الشيطان إلاَّ بالإخلاص لقول الله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢)، ويروى أن أحد الصالحين كان يقول لنفسه: أخلصى تتخلصى، وكل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب، قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوة وزال به إخلاصه، والإنسان مرتبط فى حظوظه منغمس فى شهواته، قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس، فلذلك قيل: طوبى لمن صحت له خطوة لم يرد بها إلاَّ وجه الله تعالى فالإخلاص تنقية القلب عن الشوائب كلها قليلها وكثيرها، حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه، والشيطان قد يحاصر العبد ويحبط له كل عمل ولا يكاد يخلص له عمل واحد، وإذا خلص عمل واحد فقد ينجو به العبد"(٣).

ومن ثمرات الإخلاص كذلك: صرف السوء والفحشاء عن الشخص المخلص، ولعل هذا بعض ما نفهمه من قول الله تعالى عن سيدنا يوسف عليه السلام ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤).

---

(١) سورة الحجر الآيتان ٣٩-٤٠.
(٢) سورة الحجر الآيتان ٣٩-٤٠.
(٣) البحر الرائق فى الزهد الرقائق صـ١٥.
(٤) سورة يوسف الآية ٢٤.

يقول الإمام الألوسى فى تفسيره للآية: "الهم همان: هم ثابت، هو ما كان معه عزم، وعقد، ورضا، مثل: هم إمرأة العزيز، وهم عارض: وهى الخطرة، وحديث النفس، من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام" (١).

"فالنفس بطبيعتها تحب الظهور والمدح والرياسة، وتميل إلى البطالة والكسل، وزينت لها الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث فأشد شئ على النفس إخلاص النية لله ﷻ، فينبغى لمن أراد الإخلاص أن يقطع محبة الشهوات من قلبه، ويملأ قلبه بحب الرب جل وعلا ويستغرق لهم بالآخرة فمثل هذا لو أكل أو شرب أو قضى حاجته، كان خالص العمل صحيح النية"(٢).

وأيضاً من ثمرات الإخلاص الدنيوية: تفريج شدائد الإنسان المخلص، والنجاة من الهلاك.

فالإنسان يدرك أنه لا متصرف فى هذه الكون إلاَّ الله سبحانه وتعالى، ومن ثم فهو يدعوه عند شدة الخوف، أن يكشف عنه ما هو فيه يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٣).

والمعنى: أنه سبحانه هو الذى يمكنكم من السير والإنتقال من مكان إلى مكان بما أودع فيكم من القدرة، وبما أعطاكم من الوسائل للوصول إلى الأهداف والغايات بكل سهولة ويسر، فإذا صادفتم فى وسيلة من الوسائل ما يعصف بكم ويدخل الفزع على قلوبكم فالتجئوا إلى الله داعين راجين بشرط الإخلاص فى الدعاء والرجاء وعدم الوقوع فى الشرك والكفر، حتى لا تكونوا من الذين دعوا فاستجاب الله تعالى لهم وكشف ما بهم فعادوا إلى الكفر والشرك بضلالهم، وجحدوا نعمة ربهم.

وهذا يشير إلى آيات الله فى النفس البشرية، فإن الإنسان لايكاد يبتلى بشئ من الشدة حتى يهرع إلى ساحة مولاه، داعياً راجياً، وهنا ينسى الإنسان كبرياءه وعناده. وتستيقظ فى نفسه حينئذٍ الطبيعة الفطرية الخالصة، أما المؤمن الذى لاينسى الله فى أى حال، فإنه إذا نزلت به شدة يكون إقباله على الله أشد، وطمعه فى رحمته سبحانه أوسع.

---

(١) تفسير الألوسى ٢١٥/١٢.
(٢) البحر الرائق فى الزهد والرقائق صـ١٦.
(٣) سورة يونس الآية ٢٢.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (١).

يقول الألوسى فى تفسير الآية الكريمة: "دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى كائنين فى صورة من أخلص دينه، وملته أو طاعته من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلاَّ الله تعالى، ولا يدعون سواه سبحانه لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد إلاَّ هو ﷻ، وفيه تهكم به سواء أريد بالدين الملة أو الطاعة، أما على الأولى فظاهر، وأما على الثانى فلأنهم لا يستمرون على هذه الحال، فهى قبيحة باعتبار المآل" (٢).

أى عجباً لهؤلاء وأى عجب، يدعون الله تعالى فى الشدة ثم يكفرون به فى النعمة، ولقد سماهم الله تعالى غدارين جاحدين وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣).

ويبين **الألوسى** سبب لجوء الإنسان إلى ربه عند الشدة رغم بعده عن ربه قبلها فيقول: "وإنما فعلوا ذلك حينئذ لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما هم فيه من الخوف الشديد" (٤).

يقول صاحب الظلال فى تفسيره لهذه الآية الكريمة: "فأما هذا الخطر والموج يغشاهم كالظلل، والفلك كالريشة الحائرة فى الخضم الهائل، تتعرى النفوس من القوة الخادعة، وتتجرد من القدرة الموهومة التى تحجب عنها، فى ساعات الرخاء، حقيقة فطرتها، وتقطع ما بين هذه الفطرة وخالقها، حتى إذا سقطت هذه الحوائل، وتعرت الفطرة من كل ستار، استقامت إلى ربها، واتجهت إلى بارئها، وأخلصت له الدين، ونفت كل شريك، ونبذت كل دخيل ودعوا الله مخلصين له الدين" (٥).

من خلال ذلك يتبين لنا أن الإخلاص ينجى صاحبه من الهلاك ومن جميع أنواع البلاء والإيذاء ويجعل له مع العسر يسراً ويمن عليه المولى سبحانه وتعالى بسببه- أى الإخلاص- بالفرج من كل شدة ويجعل له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً.

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٥.
(٢) تفسير الألوسى ٢١-١٣.
(٣) سورة لقمان الآية ٣٢.
(٤) تفسير الألوسى ١٠٦/٢١.
(٥) تفسير الظلال ٢٥٩٧/٥.

ويتضح ذلك فيما أخبرنا به سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام بقصة ثلاثة نفر ممن كانوا قبلنا، نجاهم إخلاصهم فى أعمالهم من هلاك محقق، وبلاء عظيم، فعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلاَّ أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فقال رجل منهم اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً فنأى بى فى طلب شئ يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج قال النبى ﷺ وقال الآخر اللهم كانت لى بنت عم كانت أحب الناس إلىَّ فأردتها عن نفسه فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت لا أحل لك أن تفض الخاتم إلاَّ بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلىَّ وتركت الذهب الذى أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ابتغاء ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فهي فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها قال النبى ﷺ وقال الثالث اللهم إنى استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال يا عبد الله أد إلىَّ أجرى فقلت له كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال ياعبد الله لا تستهزئ بى فقلت إنى لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون)[1].

ولقد كان لذلك أثره فى الرعيل الأول من الصحابة والتابعين، أولئك الذين رباهم أكرم الخلق على مائدة هذا الدين، فغذوا منها بالإخلاص لله، وطبعت نفوسهم على الإعتزاز به وحده، وتلمس العزة والكمال منه دون سواه، وإفراده بالألوهية التى تخشع لها القلوب، وتعنو لجلالها الجباه.

ومن ثمرات الإخلاص كذلك: أنه يحقق الطمأنينة لقلب الإنسان ويجعله يشعر بالسعادة.

---

[1] رواه البخارى، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيراً فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد، أو من عمل فى مال غيره فاستفضل ٢/٧٩٣.

يقول الله تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله وأخلص له العمل، وانقاد لأمره واتبع شرعه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (١).

يقول الصابونى فى تفسير الآية الكريمة: "﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى ومن يقبل على طاعة الله ينقاد لأوامره، ويخلص قصده وعبادته لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾أى وهو مؤمن موحد قال القرطبى: لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع، ونظير الآية ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (٢)، فلا بد من الإيمان والإحسان ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أى تمسك بحبلٍ لا انقطاع له، وتعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب قال صاحب الكشاف: هذا من باب التمثيل، مثلت حال المتوكل بحال من تدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة، من حبلٍ متين مأمون انقطاعه وقال الرازى: أوثق العرى جانب الله، لأن كل ما عداه هالك منقطع، وهو باق لا انقطاع له ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أى إلى الله وحده – لا إلى أحدٍ سواه، مرجع ومصير الأمور كلها فيجازى العامل عليها أحسن الجزاء"(٣).

ويقول الإمام الألوسى: "أى تعلق أتم تعلق بأوثق بما يتعلق به من الأسباب، وهذا تشبيه تمثيلى، حيث شبه حال المتوكل على الله ﷻ المفوض إليه، أموره كلها، المحسن فى عمله، بمن ترقى فى جبل شاهق، أو تدلى منه، فتمسك بأوثق عروة من حبلٍ متين مأمون انقطاعه"(٤).

ومن ثمرات الإخلاص الدنيوية أيضاً: أنه يقوى عزيمة الإنسان وإرادته فى مواجهة الشدائد.

فالإخلاص تضحية وفداء، وبذل واستشهاد، ونصرة للحق، وخذلان للباطل، ودفع للظلم والعدوان، وحرب على الذل والهوان، والإستعمار والإستبداد، به خاض الأولون غمار الشدائد، وواجهوا ما لا قِبَل لأحد بإحتماله من عناء وبلاء.

"وقد كان سحرة فرعون أية فى اليقين الصحيح والإخلاص العالى، عندما رفضوا الإغراء وحقروا الإرهاب، وداسوا حب المال والجاه، وقالوا للملك الجبار ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٢.
(٢) سورة النساء الآية ١٢٤.
(٣) تفسير الصابونى ٣٠/١٢.
(٤) تفسير الألوسى ٩٥/٢١.

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١).

وشتان بين هؤلاء الذين يستهينون بالدنيا فى سبيل الله وبين الذين يسخرون الدين نفسه فى التقرب من كبير، أو الإستحواذ على عرض حقير"(٢).

ولاشك فى ذلك فإن الإخلاص سببه الإيمان بالله إيماناً كاملاً، فيعتقد الإنسان أن الله وحده هو الذى يملك النفع والضر، ولايملك سواه شيئاً إلا بإذنه تعالى، لذا إذا عمل عملاً فإنه يعمله تنفيذاً لأمر الله، وإرضاءً له دون النظر إلى خلقه، فالمخلص واثق من ربه صادق فى قوله وعمله، شجاع فى دنياه، عالم أن الله هو أقوى من فى الوجود ومهيمن على الكل فلا يمضى أمراً إلاَّ بإذنه ومشيئته سبحانه وتعالى.

ومن ثمرات الإخلاص الدنيوية أيضاً: قبول الله تعالى العمل من المخلص وزيادة مضاعفة الحسنات.

فإذا كان الله تبارك وتعالى قدر وعد- وهو الكريم صاحب الفضل العظيم- بأن يثيب الحسنات بأضعافها، وقال ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (٣)، ووعد بأكثر من العشرة إلى سبعمائة ضعف، بل إلى ما فوق السبعمائة، فإن هذه الزيادة فى الأضعاف تنمو بحسب تمكن الإخلاص من نفس المؤمن، فكلما زادت مكانته فى الإخلاص علواً، زادت مثوبته على الحسنات أضعافاً مضاعفة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.

ويوضح ذلك النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ فيقول: (قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه) (٤).

ولهذا قال معاذ بن جبل: لما بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمين قلت له: يارسول الله أوصنى فقال: (أخلص دينك يكفك القليل من العمل) (٥)، أى اجعل إيمانك خالصاً مما يشوبه من شهوات النفس واجعل طاعتك كلها لوجه الله، يصبح القليل من عملك كثيراً مباركاً.

"ويظهر أن تفاوت الأجور التى رصدت للحسنات، من عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف، يعود إلى سر الإخلاص الكامن فى أطواء الصدور وهو مالا يطلع عليه إلاَّ عالم الغيب والشهادة، فعلى قدر نقاء السريرة، وسعة النفع تكتب الأضعاف"(٦).

---

(١) سورة طه الآيتان ٧٢-٧٣.
(٢) خلق المسلم صـ٧٦.
(٣) سورة الانعام الآية ١٦٠.
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب تحريم الرياء ١١٥/١٨.
(٥) رواه الحاكم فى المستدرك كتاب الرقائق ٣٤١/٤ وقال حديث صحيح الإسناد.
(٦) خلق المسلم صـ٧١.

ب- فى الآخرة:

أما ثمرات الإخلاص فى الآخرة، فبرغم ما أكده ربنا الكريم فى حديثه القدسى الذى أخرجه الشيخان عن أبى هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: (قال الله ﷻ أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاقرءوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١]،[٢].

وهو حديث نفهم منه أن ثمرات الآخرة هى ثمرات مدخرة لأهل الإخلاص مغيبة عنهم، قد أخفاها الله عن أصحابها، ولن يجليها لوقتها ويظهرها فى حينها إلاَّ هو، حتى يتوافر عنصر المفاجأة لأصحابها، فيكون وقعها عليهم أكبر وأثرها فى نفوسهم أعظم، وفرحهم بها أعمق، إلاَّ أن القرآن الكريم قد تحدث عن بعض هذه الثمرات كثيراً، فى صورة جميلة مشوقة... ترتاح لها النفس ويزداد بها اليقين. يقول سبحانه: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٣].

على أن خير ثمار الآخرة قاطبة هو: دخول الجنة، والتمتع بنعيمها وذلك نعمة كبرى، وثمرة عظمى، عبر عنها ربنا فى كتابه العزيز: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٤].

يقول الدكتور/ محمد محمود حجازى فى تفسيرة للآية الكريمة: ﴿وَأَخْبَتُواْ﴾ أصل الإخبات قصد الخبت، وهو المكان المطمئن المستوى والمراد: خشعوا وأخلصوا لله، والمعنى إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخشعوا له، واطمأنت نفوسهم بالإيمان، ولانت قلوبهم ووجلت بالقرآن "أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" [٥].

فالمخلصون هم الذين قد شرح الله صدورهم للإسلام، ومـلأ قلوبهم بنور الإيمان فأصبحوا أشداء على الكفار رحماء بينهم يستمدون من الله قوتهم وعزتهم وليس أشقى ممن حرموا طمأنينة الأنس إلى الله والثقة بالله والله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم

---

[١] رواه البخارى، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء فى صفة الجنة ٣/١١٨٥، ومسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٤/٢١٧٤، من حديث أبى هريرة ﷺ.

[٢] سورة السجدة الآية ١٧.

[٣] سورة النساء الآية ١٤٦.

[٤] سورة هود الآية ٢٣.

[٥] التفسير الواضح للدكتور/ محمد محمود حجازى ٢/١١٢، ١١٣ باختصار.

بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ۞ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ (١).

والمؤمن المخلص هو الذى يجعل إرادته قوية، وأعماله نقية، لأنه يحمل نفساً تعلو عن كل رياء وترتفع عن كل هوى وغرض شخصى قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٢).

ويبين لنا سبحانه المنفقين فى سبيله ابتغاء وجهه ومرضاته، وما أعده لهم من خير عميم، ونعيم مقيم قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ۞ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ۞ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ۞ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ (٤).

وقد حفل القرآن الكريم بوصف هذا النعيم العظيم ومن ذلك ما جاء فى مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا۞ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا۞ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا۞ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا۞ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ (٥).

ثم مع نعيم الجنان، هناك درجات عند الله تعالى فى الآخرة.. درجات فى القرب الإلهى، والنعيم الأخروى يرتفع إليها أهل الإخلاص فى الآخرة على قدر إخلاصهم لرب العالمين.

---

(١) سورة الرعد الآيتان ٢٨-٢٩.
(٢) سورة النازعات الآيتان ٤٠-٤١.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٦٥.
(٤) سورة الرعد الآيات ٢٠-٢٣.
(٥) سورة الإنسان الآيات ٩-١٤.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا۝ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا۝ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (١).

ومن ثمرات الإخلاص الآخروية أيضاً: أن الله ﷻ يجعل المخلص في كنفه وستره ورعايته، فعن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: (إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لاظل إلاَّ ظلى) (٢).

هذا بالإضافة إلى الفوز بشفاعة سيد المرسلين يوم العرض والحساب، فعن أبى هريرة أنه قال قيل يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة قال رسول الله ﷺ: (لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلاَّ الله خالصاً من قلبه أو نفسه) (٣).

كذلك من ثمرات الإخلاص الأخروية أيضاً: أن الله سبحانه وتعالى تكفل للمخلصين بصرف السوء عنهم ونجاتهم من العذاب الأليم يقول سبحانه: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ۝ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ۝ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ۝ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ۝ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ۝ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ۝ بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ۝ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (٤).

يقول الشيخ/ أحمد بن محمد طاحون: "استثنى الله ﷻ عباد الله المخلصين ممن يذوق العذاب يوم الدين، فقال سبحانه فى سورة الصافات: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ بعد خطاب منكرى الوحدانية والرسالة بقوله ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ۝ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . و﴿ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ : بفتح اللام هم الذين أخلصهم الله لطاعته ودينه وولايته، وبكسر اللام، أى ﴿ الْمُخْلِصِينَ﴾ أى الذين أخلصوا لله العبادة.

وقيل: إن المعنى إنكم أيها المجرمون ذائقوا العذاب الأليم لكن عباد الله المخلَصين لايذوقون العذاب، ولا يناقشون فى الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات،

---

(١) سورة الإسراء الآيات ١٩-٢١.
(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الحب فى الله تعالى ١٢٣/١٦.
(٣) رواه البخارى، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث ٤٩/١.
(٤) سورة الصافات الآيات ٣٨-٤٩.

ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما يشاء الله من التضعيف"[١].

ولقد أخبر سبحانه فى محكم كتابه العزيز أن رحمته، والنجاة من عذاب النار يوم القيامة سوف تكون وقفاً على أهل الإخلاص وحدهم فى الآخرة كثمرة باقية لهم من ثمرات إخلاصهم وبركة من بركات يقينهم يقول سبحانه: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى۞ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى۞ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى۞ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى۞ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى۞ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى۞ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى۞ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [٢].

وإذا كانت الدار الآخرة غيباً، والغيب قد يخاف الإنسان منه بفطرته لأنه مجهول، فإن عباد الله من أهل الإخلاص- من أولئك الذين استمدوا معارفهم الدينية من الوحى المعصوم- بمأمن من أن يرد عليهم مثل هذا الخوف الذى قد يصيب غيرهم من الناس، كما أنهم فى أمان تام من أن يعانوا مما يعانى من عداهم، ويكفى دلالة على ذلك ما سوف يتلقاهم به ربهم يوم يقبلون عليه ويسعون إلى رحمته وينعمون فى رحابه من هذا الخطاب اللطيف، وبهذا النداء الحبيب: ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ۞ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ۞ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ۞ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ۞ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ۞ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٣].

بل إن بواكير هذا الفضل، وبشارات هذا الأمان، وثمرات هذا الإخلاص لتتجلى واضحة كأبهى ما يكون، متلألئة مشرقة كأضوء ما يكون من أول الطريق إلى أعتاب الأخرة، ومن آخر العهد بكل ما يتعلق بالدنيا متمثلة مرة فى هذه النداءات الربانية ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [٤]، وواضحة مرة أخرى فى بشارات الملائكة التى تحملها إلى عباد الله المخلصين وهم على أعتاب الطريق إليه عند آخر عهدهم بالدنيا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا

---

[١] أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم، تأليف أحمد بن محمد طامون، صـ٢٣١- ٢٣٢ باختصار الكتاب الثالث الطبعة الأولى ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

[٢] سورة الليل الآيات ١٤-٢١.

[٣] سورة الزخرف الآيات ٦٨-٧٣.

[٤] سورة الفجر الآيات ٢٧-٣٠.

تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ ﴾[1].

ومجمل القول: إن طريق الإخلاص، طريق طويل وجليل، وعر وصعب طريق واضح وبصير وواع وحكيم، بل إن معالم هذا الطريق لتتضح أكثر، حين تتساقط ثماره شهية طيبة من كل جانب، فى خطاب الله تعالى لأهل الإخلاص متلطفاً بهم، رقيقاً معهم حين يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ۞ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [2].

أجل... ذلك هو حق الإخلاص الذى لا يضيع، ولازمته التى لا تتخلف وثمرته الحتمية التى لابد أن تكون.

---

[1] سورة فصلت الآيات ٣٠-٣٢.
[2] سورة الصف الآيات ١٠-١٣.

المبحث الثالث

التوكل وأثره على الفرد والمجتمع المسلم

obeikandl.com

التوكل وأثره على الفرد والمجتمع المسلم

مُقَدِّمَة

كثير من المفاهيم الدينية اليوم فى مجتمعات المسلمين تختلف عما يريده الإسلام لها، وتختلف أيضاً عما طبق من قبل فى حياة الرسول ﷺ، وحياة المؤمنين حقاً برسالة الله تعالى.

وقد طرأ هذا التغير وذلك الإختلاف على هذه المفاهيم بمرور القرون، وباختلاف العهود من قوة إلى ضعف، ومن تقرب إلى كتاب الله تعالى إلى هروب منه، ومحاولة ابعاده عن مجالات الحياة، كذلك آل أمر هذه المفاهيم- أو كثير منها- فى تصور الجيل المعاصر: إلى أنها لا تستحق الإكتراث بمضمونها، فهى – بزعمه- تنتسب إلى الماضى الذى لايعود، وتتحدث عن أمور لا تعيش فى واقع الحياة اليوم.

مثلاً: آل أمر "الإحسان" إلى أنه العطاء التافه مع أن "الإحسان" مبدأ إسلامى أساسى، جاء مفهومه فى القرآن الكريم ليعطى حقيقة ضرورية يترابط على أسسها المجتمع، ويتماسك بعضه إلى بعض فى: مودة، وإخاء، وهو حقيقة تسمو فوق العدل، لأنها تمثل الإنسانية.. بقدر ما تبعد الأنانية فى المواقف والسلوك.

وآل أمر: "قوامية الرجل" على المرأة فى الأسرة وفى العلاقة الزوجية، إلى أنها إستبداد يباشره الرجل بعضلاته ويحطم به كل مودة ومحبة فى العلاقة الأسرية!! مع أن "قوامة الرجل" على المرأة مسئولية ألقيت على عاتقه، بفضل تكوينه الخاص فى طبيعته، وبفضل قدرته على مشاق الحياة، فى سبيل السعى لتحصيل الرزق على هذه الأرض

ومن هذه المفاهيم التى أساء كثير من الناس فهمها: "التوكل على الله ﷻ " فقد بلى الإسلام فى العهود الأخيرة بطائفة من الكسالى والمتواكلين، ظنوا القعود عن طلب الرزق توكلاً، وعاشوا عالة على العاملين.

تعريف التوكل:

التوكل فى اللغة: جاء فى القاموس المحيط: "وَكَلَ بالله يَكِلَ وتَوَكَّلَ على الله وأوْكَلَ وأتَكَلَ إستَسْلَمَ إليه. ووَكَلَ إليه الأَمْرَ وَكْلاً ووُكُولاً: سَلَّمَهُ وَتَرَكَهُ"[1].

وجاء فى مختار الصحاح: "و ك ل: الوَكِيلُ معروف يُقال وَكَّلَهُ بأمر كذا تَوْكِيلاً والإسم الوِكَالَةُ بفتح الواو وكسرها والتَّوَكُّلُ إظهار العجز والإعتماد على غيرك والإسم التُّكلانُ وإتَّكَلَ

---

[1] القاموس المحيط ٦٧/٤ ط دار الكتاب العربى- بيروت- لبنان.

على فلان فى أمره إذا إعتمده ووكَلَه إلى نفسه من باب وعد ووُكُولاً أيضاً وهذا الأمر مَوْكُولٌ إلى رأيك ووَاكَلَه مُوَاكَلَةً إذا إتَّكَل كل واحد منهما على صاحبه" [١].

وجاء فى مفردات غريب القرآن: "التوكيل: أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك، والوكيل فعيل بمعنى المفعول. قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [٢] أى: اكتف به أن يتولى أمرك، ويتوكل لك، وعلى هذا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [٣]،﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [٤] أى: بموكل عليهم وحافظ لهم، كقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۞ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ [٥]، فعلى هذا قوله تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [٦]، وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [٧]،﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلا﴾ [٨] أى: من يتوكل عنهم؟ والتوكل يقال على وجهين، يقال: توكلت لفلان بمعنى: توليت له، ويقال: وكلته فتوكل لى، وتوكلت عليه بمعنى: اعتمدته قال ﷻ: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [٩]،﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[١٠]،﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [١١]،﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [١٢]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [١٣]،﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [١٤]،﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [١٥]، وواكل فلان: إذا ضيع أمره متكلاً على غيره، وتواكل القوم: إذا اتكل كل على الآخر، ورجل وكله تكلة: إذا إعتمد غيره فى أمره والوكال فى الدابة، أن لايمشى إلاَّ بمشى غيره، وربما فسر الوكيل بالكفيل، والوكيل أعم، لأن كل كفيل وكيل، وليس كل وكيل كفيلاً"[١٦].

---

[١] مختار الصحاح صـ٧٣٤.
[٢] سورة النساء الآية ٨١.
[٣] سورة آل عمران الآية ١٧٣.
[٤] سورة الأنعام الآية ١٠٧.
[٥] سورة الغاشية الآيتان ٢٢-٢٣.
[٦] سورة الأنعام الآية ٦٦.
[٧] سورة الفرقان الآية ٤٣.
[٨] سورة النساء الآية ١٠٩.
[٩] سورة التوبة الآية ٥١.
[١٠] سورة الطلاق الآية ٣.
[١١] سورة الممتحنة الآية ٤.
[١٢] سورة المائدة الآية ٢١.
[١٣] سورة النساء الآية ٨١.
[١٤] سورة هود الآية ١٢٣.
[١٥] سورة الفرقان الآية ٥٨.
[١٦] مفردات غريب القرآن للأصفهانى صـ٥٤٦ مادة وكل.

وعلى هذا يمكن أن يقال: أن التوكل فى اللغة يقال على وجهين: الأول توكلت لفلان بمعنى توليت له، ويقال وكلته فتوكل لى، وتوكلت عليه بمعنى اعتمدته والتوكيل أن تجعل غيرك نائباً عنك وتعتمد عليه.

أما فى الإصطلاح:

"التوكل: هو الثقة بما عند الله واليأس عما فى أيدى الناس"[١].

يقول الشيخ/ محمد المالكى: "أصل التوكل: يقين القلب بأن الأمور كلها بيد الله تعالى وفى قبضته، وأنه لاضار ولا نافع ولا معطى ولا مانع غير الله تعالى ثم طمأنينة القلب وسكونه إلى وعد الله وضمانه حتى لا يضطرب ولا يتزلزل عند ورود الشدائد والفاقات ولا يفزع ولا يرجع فى المهمات والمسلمات إلاَّ إلى الله تعالى، وإن رجع فى شئ من ذلك إلى الخلق كان فى الظاهر دون الباطن ويكون على موافقة الأمر الإلهى المشروع"[٢].

وخلاصة ما سبق: أن حقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله وحده، والثقة به وحده والسكون إليه وحده، والطمأنينة به وحده، لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته وجميع مصالحه كلها بيده وحده لابيد غيره.

ولكى يتم التوكل يحتاج إلى لوازم بيَّنها الشيخ/ برهان الدين البقاعى- رحمه الله-.

حيث يقول: "وللتوكيل أركان ثلاثة لا يصلح إلاَّ بها:

الأول: العلم المحيط لئلا يدلس عليه.

الثانى: القدرة التامة لئلا يعجز.

الثالث: الرحمة بالمتوكل لئلا يخيف عليه"[٣].

وهذا كله يثمر الرضى بما يقضى به الله سبحانه وتعالى، فالتوكل كما يفهمه الإسلام سلوك إيجابى، فليس رباطة الجأش وثبات الجنان عند الشدائد اعتماداً على الله وتوكلاً عليه إلاَّ نتيجة لإيمان راسخ، يهزم القوى المادية مهما تكن خطورتها.

أهمية التوكل:

والتوكل فضيلة إسلامية مفروضة، إذ بها يتحقق معنى الإيمان، ولو راجعنا الأنبياء والمرسلين -عن طريق القرآن الكريم- لوجدنا فضيلة التوكل كالقسط المشترك بين هؤلاء

---

(١) التعريفات للجرجانى صـ٧٠.

(٢) قل هذه سبيلى للمالكى صـ١٨٦.

(٣) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ١٢٧/٢٠ للإمام المفسر برهان الدين أبى الحسن إبراهيم بن عمر البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥هـ الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

الأكرمين، محمود فى كل دين، ممدوح فى كل شريعة، فهو ليس مقصوراً على شريعة سيدنا محمد ﷺ، بل هو طريقة جميع الأنبياء، وشريعة كل المرسلين، عبر الأجيال والقرون، فإبراهيم- عليه السلام- هو القائل كما حكت سورة الممتحنة: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (١).

وروى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٢)،(٣).

وهذا هو يعقوب -عليه السلام- يأمر أولاده بأخذ الحيطة واتباع الحذر، وإخفاء أمرهم عن غيرهم قدر إستطاعتهم، ثم يتوكل على ربه، كما جاء فى سورة يوسف: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٤).

وهذا هو موسى -عليه السلام- يحكى عنه القرآن الكريم فى سورة يونس فيقول: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٥).

أى إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان، فعليه وحده فتوكلوا، وثقوا بوعده دون سواه إن كنتم مذعنين لربكم بالفعل، فامتثلوا الأمر، ونطقوا بكلمة التوكل، لأن التوكل أكبر مقامات الإيمان وأعلى درجات اليقين، ولا يكمل إلاَّ الصبر على الشدائد، وهو يستلزم مقارنة إتخاذ الأسباب، وحقيقته أن يبذل الإنسان كل ما يستطيع، ثم يرجو من ربه أن يسخر له مالا يستطيع.

وهذا هو شعيب -عليه السلام- يقول القرآن الكريم على لسانه فى سورة الأعراف: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ

---

(١) سورة الممتحنة الآية ٤.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٣.
(٣) رواه البخارى، كتاب تفسير القرآن- باب إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم (رقم ٤٢٨٨) والحاكم (٣٢٦/٢)، والنسائى (١٥٤/٦ رقم ١٠٣٩).
(٤) سورة يوسف الآية ٦٧.
(٥) سورة يونس الآيتان ٨٤-٨٥.

أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (١).

وهذا هو نوح -عليه السلام- يقول عنه القرآن المجيد فى سورة يونس: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ (٢).

أى إن كانت قد كبرت عليكم دعوتى وتذكيرى لكم بربكم، وأردتم الإعتداء علىَّ أو معارضتى، فإننى قد فوضت أمرى إلى الله جل جلاله، فهو الذى بعثنى إليكم، وكلفنى دعوتكم، وأنا أعتمد عليه وحده، بعد أن بذلت جهدى فى نصحكم ودعوتكم، وهذا هود -عليه السلام- يقول كما جاء فى سورة هود: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٣). وهذا هو صالح -عليه السلام- يقول كما جاء فى سورة هود: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٤).

وهذه هى طائفة من الرسل يتحدث عنها القرآن المجيد فى سورة إبراهيم فيقول: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ۞ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٥).

ومن جلال المكانة لفضيلة التوكل أن نرى الحق جل جلاله يأمر بها خاتم رسله ﷺ، ويكرر هذا الأمر ويؤكده فى مواضع كثيرة من كتابه المجيد، فيقول له فى سورة النساء: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلًا﴾ (٦)، ويقول فى سورة هود: ﴿وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧)، ويقول فى سورة التوبة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ

---

(١) سورة الأعراف الآية ٨٩.
(٢) سورة يونس الآية ٧١.
(٣) سورة هود الآية ٥٦.
(٤) سورة هود الآية ٨٨.
(٥) سورة إبراهيم الآيتان ١١-١٢.
(٦) سورة النساء الآية ٨١.
(٧) سورة هود الآية ١٢٣.

الْعَظِيمِ﴾ (١)، ويقول فى سورة الرعد: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ (٢). ويقول فى سورة النمل ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٣).

ويقول فى سورة الفرقان: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ (٤).... إلخ.

وكان ﷺ فى توكله على ربه سيد المتوكلين وإمام المفوضين وقدوة الواثقين، ومن أجل كان من أسمائه المتوكل، فقد روى البخارى فى صحيحه من حديث فليح بن سليمان عن هلال بن على عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قلت أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وحرزاً للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلاَّ الله ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً تابعة عبد العزيز بن أبى سلمة عن هلال وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن ابن سلام (غلف) كل شئ فى غلاف سيف أغلف وقوس غلفاء ورجل أغلف إذا لم يكن مختوناً) (٥).

ولقد أراد الله جل جلاله وهو أعلم بمراده أن يعلم نبيه ﷺ أن يبدأ بأخذ الحيطة والأهبة والإعداد والإستعداد فى المواطن التى تحتاج إلى هذا، وأن يستعين بآراء من حوله من أهل العلم والخبرة والبصر بالأمور، فإذا انتهى إلى رأى أو خطة، أقدم على التطبيق والتنفيذ فى همة وعزيمة، متوكلاً على الله تعالى، مستمداً من نصره وهداه، واثقاً بأنه مولاه ولا مولى له سواه، فذلك حيث يقول له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٦).

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٩.
(٢) سورة الرعد الآية ٣٠.
(٣) سورة النمل الآية ٧٩.
(٤) سورة الفرقان الآية ٥٨.
(٥) أخرجه البخارى- كتاب البيوع باب كراهية السخب فى السوق (٢٠١٨)، وأحمد (١٧٤/٢) والبيهقى فى الكبرى (٤٥/٧) والطبرى فى التفسير (٨٣/٩).
(٦) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

والمعنى: أنك إذا عزمت بعد المشاورة فى الأمر، على امضاء ما ترجحه الشورى، وأعددت له عدته، فتوكل على الله فى امضائه، وكن واثقاً بمعونته، وتأييده لك فيه، ولا تتكل على حولك وقوتك، بل اعلم أن وراء ما أتيته وما أوتيته قوة أعلى وأكمل هى قوة الله جل جلاله، ويجب أن تكون بها الثقة، وعليها المعول، وإليها الملجأ، إذا تقطعت الأسباب، وأغلقت الأبواب.

وأن العزم على الفعل، وأن أتى بعد التفكير والمشاورة وأحكام الرأى وإعداد العدة، لا يكفى للنجاح إلاَّ بمعونة الله وتوفيقه لأن الموانع الخارجية للنجاح والعوائق دونه، لا يحيط بها إلاَّ الله تعالى، فلابد للمؤمن من الإتكال عليه، والإعتماد على حوله وقوته، والله جل جلاله يحب المتوكلين على حوله وقوته مع العمل فى الأسباب بسنته، ومن أحبه الله عصمه من الإغترار باستعداده، والركون إلى عدته وعتاده، والبطر الذى يصرفه عن النظر فيما يعرض له بعد ذلك حتى لا يقدره قدره، ولا يحكم فى أمره، فبدلاً من أن يكون نظره فى الأمور بعين العجب والغرور، واستماعه لأنبائها بإذن الغفلة والإزدراء ومباشرته لها بيد التهاون، يلقى السمع وهو شهيد، وينظر بعين العبرة فبصره حينئذٍ حديد، ويبطش بيد الحزم فبطشه قوى شديد، ذلك بأنه يسمع ويبصر ويعمل للحق لا للباطل الذى يزينه الهوى ويدلى به الغرور.

وكذلك بين الله تعالى أن التوكل صفة من صفات المؤمنين فمن الإيمان تفويض الأمر لله والإعتماد عليه فى السعى فى الحياة واستمداد العون منه فى الشدة والرخاء والإعتقاد بأنه الإله، المدبر للملك، الفعال لما يشاء، وأنه بيده وحده الإعطاء والمنع، والضر والنفع، والرزق والحرمان، والنصر والهزيمة، والتقدم والتأخر.

ومن هنا نستطيع أن ندرك أن التوكل فى جوهره عمل من أعمال القلب، وليس قولاً باللسان أو عملاً بالجوارح فحسب، فبداية التوكل هى الإيمان، وعماده هو اليقين ولذلك جعل القرآن الكريم فضيلة التوكل صفة أساسية للمؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١).

قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ "أى لا يرضون سواه ولا يقصدون إلاَّ إياه ولا يلوذون إلاَّ بجنابه ولا يطلبون الحوائج إلاَّ منه ولا يرغبون إلاَّ إليه، ويعلمون أنه ماشاء ومالم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف فى الملك وحده لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب"(٢).

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٥٥٢/٣ طبعة الشعب.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١).

يقول الألوسى رحمه الله: "إن تخصيص المؤمنين بالأمر بالتوكل لأن الإيمان بأن الكل منه سبحانه يقتضى التوكل، ومن هنا قيل: ليس من الآيات- لمن تأمل- فى الحث على التوكل أعظم من هذه الآية لإيمائها إلى أن من لا يتوكل على الله تعالى ليس بمؤمن"(٢).

وقد حذرنا الله ﷻ من الاغترار بالقوة أو الكثرة أو السلاح عند مواجهة الخطوب، فإن كل ذلك لا يجدى مالم يكن معه من الله ظهير ومعين، وقد لقن الله المؤمنين درساً يوم حنين حينما أعجبوا بكثرتهم، وظنوا أنها كفايتهم فى النصر على الأعداد: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (٣).

وإذا تخلى عون الله عن الإنسان فلن تغنى عنه قوته ومهارته، وذكاؤه، واستعداده، والمؤمنون فى أشد الساعات عندما تشتد الأهوال، ويخرب الشيطان، وتكفهر الحياة، لا يلتمسون إلاَّ عون الله وفضله، ولا يطلبون إلاَّ رعايته ومدده، وسرعان ما تزول عنهم بذلك الشدائد، وتفرج الكربات: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۞ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٤).

فالله جل جلاله هو خير من يعتمد عليه، ويوكل إليه، ويستمد منه، ويستعان به، قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٥).

التوكل لا يقتضى ترك الأخذ بالأسباب:

إن التوكل ليس معناه إطراح الإنسان للأسباب التى وضعها الله، والإتكال عليه أن يخرق له العوائد ويجعل السماء من فوق رأسه تمطر الذهب والفضة، بلا جهد ولا سعى ولا تفكير ولا عمل.

---

(١) سورة التغابن الآية ١٣.
(٢) تفسير الألوسى ١٢٦/٢٨.
(٣) سورة التوبة الآيتان ٢٥-٢٦.
(٤) سورة آل عمران الآيتان ١٧٣-١٧٤.
(٥) سورة النساء الآية ٨١.

إن معنى التوكل أن يرتب الإنسان المقدمات ويدع النتائج لله تعالى أن يقوم بالجانب البشرى الذى يخصه، ويترك الباقى لربه، ويُهيئُ له الأسباب ويُزيلُ من طريقه الموانع، وما أكثر الأسباب التى يجهلها الإنسان، وما أكثر الموانع التى لا يعلمها فضلاً عن أن يستطيع تذليلها.

يقول الإمام القشيرى: "اعلم أن التوكل على الله محله القلب وأما الحركة بالظاهر أى الأخذ بالأسباب، فلا تنافى توكل القلب بعدما تحقق العبد أن التقدير من فعل الله ﷻ، فإن تعثر شئ فبتقديره، وإن تيسر شئ فبتيسيره"[١].

ويقول الإمام ابن القيم: "فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لابها، وحال بدنه قيامه بها، فالأسباب محل حكمة الله وأمره دينه، والتوكل على الله متعلق بربوبيته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلاَّ على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلاَّ على قدم العبودية، بل التجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً، وما أخل رسول الله ﷺ بشئ من الأسباب وقد ظاهر بين درعين يوم أحد، ولم يحضر الصف عرياناً قط، أى بغير دروع، كما يفعل من لا علم عنده ولامعرفة، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه يدله على طريق الهدرة، وقد هدى الله به العالمين وعصمه من الناس أجمعين، وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين، وكان إذا سافر فى جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه كانوا كذلك وهم أولوا التوكل حقاً، وأكمل المتوكلين بعدهم هو من اشتم رائحة توكلهم للمسيرة البعيدة أو لحق أثراً من غبارهم فحقيقة التوكل مع القيام بالأسباب والإعتماد بالقلب على المسبب سبحانه والإعتقاد أنها- أى الأسباب- بيده سبحانه إن شاء جعلها تؤتى ثمرتها وإن شاء منعها"[٢].

فليس التوكل ترك الأسباب، والتخلى عنها، بل معناه انحصار الأمل فى الله تعالى والإلتجاء إلى تدبيره وحكمته، وعدم تعلق القلب بالأسباب، لأنها وحدها لا تغنى من الله شيئاً.

"والمسلم إذ يؤمن بسنن الله فى الكون فيعد للأعمال أسبابها المطلوبة لها، ويستفرغ الجهد فى إحضارها وإكمالها لا يعتقد أبداً أن الأسباب وحدها كفيلة بتحقيق الأغراض وإنجاح المساعى... لا، بل لايرى وضع الأسباب أكثر من شئ أمر الله به، يجب أن يطاع فيه كما يطاع فى غيره مما يأمر به وينهى عنه، أما الحصول على النتائج، والفوز بالرغائب فقد وكل أمرهما

---

[١] الرسالة القشيرية ١/٢٢٠.
[٢] تهذيب مدارج السالكين صـ٣٣٧، وما بعدها.

إلى الله تعالى، إذ هو القادر على ذلك دون غيره، وأن ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكم من عامل كادح لم يأكل ثمرة عمله وكدحه، وكم من زارع لم يحصد مازرع"[١].

يقول الإمام المالكى: "وليس شرط المتوكل أن يكون متجرداً عن أسباب الدنيا، بل قد يكون ملابساً للاسباب مع التوكل، ولكنه يكون معتمداً على الله لا على الأسباب وعلامة صدقة فى ذلك أن لا يسكن إليها، ولا يطمئن بها فى حالة وجودها ولا يتزلزل ولا يضطرب عند فقدها وتشوشها"[٢].

أما التواكل فهو العجز والخلود إلى الراحة وعدم الأخذ فى الأسباب التى تحفظ على المرء آدميته وماء وجهه والمتواكل إنسان على بصره غشاوة فلم يتبين معالم الحق ولم يفهم الدين على حقيقته فهو عضو أشل فى المجتمع الذى يعيش فيه كل على غيره حمل ثقيل على مجتمعه هذا العاجز المتواكل لم يفرق بين فضيلة التوكل ورذيلة التواكل فشأنه كمن يطلب زخرف الدنيا ومتاعها بدون أن يضرب فى جنباتها وما علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

يقول د/ عرام: "أما المتواكل فهو عبد يستسلم للخمول والكسل ويرتضى لنفسه حياة البؤس والحرمان بحجة أنه ما كان له سيأتيه وما كتب له لن يعدوه، وما قدر عليه فلا بد أن يقع فى وقته المعلوم، وهذا فهم خاطئ للقدر لأن جميع المُسَبَّبَات مقرونة بأسبابها وهذه الأسباب منها ما يقع من غير إرادتنا ولا يتوقف على أعمالنا، ومنها ما يتوقف حصوله على اختيارنا وبسعينا، فما يتوقف منها على سعينا واختيارنا لابد أن نطلبه بالوسائل التى شرعها الله ﷻ لنا، فإن تكاسلنا عن ذلك أصابنا ما أصاب مما نخاف ونحذر، وحلَّ بنا ماحلَّ بغيرنا من المتواكلين"[٣].

والعبد يتوكل على الله أن يقيمه فى سبب يوصله إلى مطلوبه، فإذا قام به توكل على الله فى حال مباشرته، فإذا أتمه توكل على الله فى حصوله ثمراته، فكأن التوكل سيصاحب المؤمن فى مراحل سعيه وعمله، ولقد كان رسول الله ﷺ أصدق المتوكلين، ومع ذلك فقد كان يعمل ليلاً ونهاراً، وصيفاً وشتاءً، فى السلم والحرب كان يعد العدة ويتخذ الحيطة، ويلزم الحذر ويشاور أصحابه فى الأمور التى لم ينزل عليه فيها وحى، كان يجيش الجيوش، ويعد السلاح ويرسل العيون ويبعث الجواسيس ليراقب تحركات الأعداء، ولقد تداوى رسول الله ﷺ ، وأمر بالتداوى وسعى وأمر بالسعى، وعمل ودعا إلى العمل، واستعاذ بالله من العجز والكسل وأخذ بالأسباب التى شرعها الله تعالى ليعلم الناس أن الأخذ بالسبب لايتعارض مع فضلية التوكل، وإنما معناه بذلك الجهد فى سبيل الوصول إلى الهدف مع اعتقاد أن الأمر كله بيد الله الذى له الخلق والأمر.

---

[١] التفسير الموضوعى صـ١٤.
[٢] قل هذه سبيلى صـ١٨٧.
[٣] التفسير الموضوعى صـ١٨.

يقول د/ سعيد عرام: "كان هديه ﷺ فى الجمع بين الأسباب المادية، والروحية، ثم يعلق أمر نجاحه على ربه وينوط فلاحه وفوزه بمشيئته مولاه، مثال ذلك: فقد انتظر ﷺ أمر ربه فى الهجرة إلى المدينة بعد أن هاجر إليها جلُّ أصحابه، وجاءه الإذن من الله تعالى بالهجرة، قام ببعض الترتيبات على النحو التالى:

١- أحضر رفيقاً من خيرة الرفقاء ألا وهو صاحبه أبو بكر الصديق ﷺ ليصحبه فى طريقه إلى دار هجرته.

٢- أعد زاد السفر من طعام وشراب، ربطته أسماء بنت أبى بكر بنطاقها حتى لقبت بذات النطاقين.

٣- أعد راحلة ممتازة للركوب عليها فى هذا السفر الشاق الطويل.

٤- أحضر خرِّيتاً (أى جغرافياً) عالماً بمسالك الطريق ودروبها الوعرة ليكون دليلاً وهادياً فى هذه الرحلة الصعبة.

٥- ولما أراد أن يخرج من بيته الذى طوقه العدو وحاصره فيه حتى لا ينفلت منه، أمر ﷺ ابن عمه على بن أبى طالب ﷺ أن ينام على فراشه تمويهاً على العدو الذى ما برح ينتظر خروجه من المنزل ليفتك به، ثم خرج وترك العدو قومته من فراشه الذى يتراءى لهم من خلال شقوق الباب.

٦- لما طلبه المشركون واشتدوا وراءه يبحثون عنه وعن صاحبه أبى بكر الصديق الذى فرَّ معه، أوى إلى غار ثور فدخل فيه ليستتر عن أعين طالبيه الناقمين الحاقدين عليه.

٧- لما سأل أبو بكر النبى ﷺ قائلاً له يارسول الله، إن الأعداء لو تتبعوا آثارنا ونظروا تحت أقدامهم لأبصرونا وفى ذلك خطر عليك ياحبيب الله، فرد عليه النبى ﷺ رد المتوكل على الله قائلاً له لا تحزن يا أبا بكر، فإنا محفوظان بعناية الله ورعايته فلقد روى عن أنس عن أبى بكر رضى الله عنهما قال قلت للنبى ﷺ وأنا فى الغار لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما) [١]،[٢].

وهو بذلك قد رسم لأصحابه والمسلمين طريق التوكل الصحيح، على الله تعالى، التوكل الذى لايهمل الأخذ بالأسباب، ولا ينظر إلى الأسباب وحدها فى تحقيق الأمر المتوكل فيه فإعداد العدة للقتال مهما كان عظيماً أو دقيقاً ليس وحده كافياً لإحراز النصر وتحقيق الغاية وبالتالى يكون الإعتماد على السبب وحده دون الأخذ فى الإعتبار الإعتماد على المسبب سبحانه، الذى إن

---

[١] رواه البخارى، كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم ١٣٣٦/٣.

[٢] التفسير الموضوعى صـ١٦، بإختصار وتصرف.

نشاء سلب الأسباب قوة التأثير فلا يتأتى منها نفعاً البتة، أبداً، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١)، وقال أيضاً: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢).

ولقد فهم المسلمون السابقون التوكل فهماً صحيحاً، فشمروا عن ساعد الجد وعملوا في عزم شديد في جميع مجالاتهم، متوكلين على الله واثقين بفضله حتى في جهادهم لأعدائهم، كانوا دائماً متوكلين على ربهم، واثقين بنصره، معتصمين بحبله، آخذين في اعتبارهم قول الحق سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (٣)، فنصرهم الله سبحانه وتعالى وأيدهم بروح من عنده حتى فتحوا أكثر بلاد العالم وسادوه من شرقه إلى غربه وامتد مجدهم، وانتشر سلطانهم، ورفرفت راية الإسلام من أسوار الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً"(٤).

على هذا الإدراك السليم من التوكل القائم على الإيمان كان أصحاب رسول الله ﷺ والسلف الصالحون يبتغون من فضل الله ويعملون لدنياهم ليجعلوها مطية وزاداً لأخراهم، لم يناموا في يقظة أعدائهم ولم يعيشوا ضيوف الأجانب في أوطانهم ولم يكن سعيهم في الدنيا جشعاً بل شجاعة وتمسكاً بالعفه والقناعة، وتمكيناً من خدمة الجماعة ولم يكن توكلهم تواكلاً، ولا يقينهم ضعفاً وتخاذلاً.

فالرسول ﷺ يرشدنا إلى ما في التوكل من إيجابية ونزعة عملية حين يقول: (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً) (٥).

فقد أعطانا في هذا الحديث صورة حسية لحركة الطيور التي تترك أعشاشها عند الصباح، وتخرج باحثة عن الطعام والقوت، وهي خالية البطون، وما تزال هكذا في سعيها وحركتها، حتى تعود آخر النهار وهي ممتلئة البطون.

من هذا يتكشف أن الإسلام يدعو إلى الوسطية بين التكالب على الدنيا، والإعراض عنها، ونعني بالإعراض التبتل، او الرهبنة، ولذلك حين دعا الرسول ﷺ إلى التقليل من شأن

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٦.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٤٩.
(٣) سورة الأنفال الآية ٦٠.
(٤) التفسير الموضوعي صـ٢١.
(٥) رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين صـ٦٠٧، ورواه الترمذي، كتاب الزهد، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

الدنيا، إنما دعا ليربط بين المؤمن وربه، وليجنبه نسيان الله بسبب الإنكباب عليها، ولكنه دعا فى نفس الوقت إلى العمل لأن الحياة لاتقوم إلاَّ به، ولأن كرامة الإنسان وحريته وعزته لا تتحقق إلاَّ عن طريقه، بل إن الدين نفسه لا ينتصر بغير العمل والمال والتضحية.

والحق إن التوكل إن دلَّ فإنما يدل على فهم لحقيقة الدين وأن الإسلام لايقر الرهبانية – فالله لم يشأ أن يقطع الناس دنياهم – وبالأخذ فى الأسباب مكَّن الله للمسلمين فى الأرض وارتفعت كلمة التوحيد، وكان للإسلام دولة قوية عزيزة منيعة فالرعيل الأول للمسلمين لم يخلدوا للعجز والراحة ولم يستسلموا للكسل إيماناً منهم بأن مصير الدولة الإسلامية مرتبط كل الإرتباط بالسعى فى جنبات الأرض والتخلق بفضيلة التوكل على الله تعالى.

فلنأخذ أنفسنا بفضيلة التوكل فى كل جوانب الحياة لتزداد إيماناً بربنا وثقة فى أنفسنا وبهذا تكون العزة التى كتبها الله لذاته ورسوله والمؤمنين ولنعلم أن الإسلام دين ودولة شريعة وعقيدة ربط بين الحياتين وبهذا كان ديناً متكاملاً تتمثل فيه آمال الإنسانية كلها لتشق طريقها إلى الحياة الحرة الكريمة.

ثمرات التوكل الدنيوية والأخروية:

التشريع الإلهى هو منهاج قيوم السموات والأرض الذى أتم به النعمة على خلقه لتستكمل الحياة البشرية وسائل نموها وارتقائها، فكلمة الإنسانية تبقى مبهمة التعبير غامضة الأهداف والمصير حتى يسلك بها الإيمان طريق العمل الصالح فى حدود الفضائل الأدبية، التى لا يضع حدودها إلاَّ الذى منح الخليقة وجودها فسبحانه تبارك الله رب العرش العظم، هو الذى أرسل محمداً بالهدى ودين الحق متمماً لشرائع النبيين جامعاً لأنوار المرسلين، بعثه فى الإنسانية رسولاً منها وبشيراً نذيراً منه إليها، بشرع حكيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إلى الناس كافة، وما كلفهم فى الدين فوق طاقتهم ولا جعل عليهم فيه من حرج ولا سألهم عليه من أجر ولا كشف أستارهم عند الخطيئة ولا عجل لهم عقوبة المعصية، ولا منعهم التوبة ولا حجب عنهم المغفرة ولا تعبدهم بشئ وهو فى حاجة إليهم بل هو الغنى عنهم والقادر عليهم والقريب منهم والرحيم بهم.

والتوكل الذى بدايته العزم وطريقه العمل، خليق بأن تكون نهايته نيل وبلوغ الآمال.

وسأقدم هنا من خلال الكتاب والسنة، بعض الثمرات الدنيوية الطيبة التى تنتج عن التوكل، وما أعده الله للمتوكلين فى الآخرة ليعرف العبد عاقبة أمره، وثمار توكله على ربه ﷻ، فيزداد إيماناً وتمسكاً بهذا الخلق الإسلامى الرفيع.

أ- الثمرات الدنيوية:

١- فمن ثمرات التوكل وآثاره التى تنتج عنه فى الدنيا

والتوكل على الله تعالى عصمة من الشيطان ونزغاته ومن أجل ذلك أمر الله تعالى من أراد أن يقرأ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم حتى يحبط على الشيطان وساوسه ويقضى على تسلطه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۞ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١).

أى أن الشيطان الرجيم على شدة عداوته لابن آدم لن يكون له تسلط أو قدرة على إغواء الذين آمنوا بالله وتوكلوا عليه ففوضوا أمورهم كلها إليه فالإيمان بالله والتوكل عليه تعالى يمنعان الشيطان من وسوسته وإن وسوس لأحد من الذين آمنوا فلا تؤثر فيه وسوسته لأن الذين آمنوا بالله وتوكلوا على الله تعالى هم الذين قال فيهم إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢)، وقال الله عنهم لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٣).

وهكذا نجد أن التوكل على الله تعالى ينجى العبد من المهالك ومن الشيطان الرجيم، وتجعل العبد دائماً فى مأمن من وساوس الشيطان وفى حصن حصين من سلطانه، ومن لم يتوكل على الله تعالى يكن عرضة للشيطان، والوقوع فى شباك وسوسته وحبال سلطانه فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال يعنى إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له كفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان) (٤).

"ومن هنا يجب على الإنسان أن يتوكل ويعتمد على الله ﷻ ولا يكون اعتماده على مال أو عقل أو جاه، فقد قال الإمام على ﷺ: من اعتمد على ماله قل، ومن اعتمد على عقل ضل، ومن اعتمد على جاهه ذل، ومن اعتمد على الله لاقل ولا ضل ولاذل ويقول الشاعر:

توكل على الرحمن فى الأمر كله ** ولا ترغبن فى العجز يوماً عن الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم ** وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أدلى الجذع من غيره هزة ** إليها ولكن كل شئ له سبب"(٥)

---

(١) سورة النحل الآيتان ٩٨-٩٩.
(٢) سورة الحجر الآية ٤٠.
(٣) سورة الحجر الآية ٤٢.
(٤) أخرجه الترمذى قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه كتاب الدعوات، باب ٣٤ ما يقول إذا خرج من بيته ٥/٤٥٦.
(٥) التوكل على الله صـ٤٠ لابن أبى الدنيا، ط الكتاب العربى- بدون.

٢- ومن ثمرات التوكل الدنيوية أيضاً: حب الله ﷻ

حيث يعجل الله تعالى لأهل التوكل عليه طرفاً من ثمرات التوكل فى الدنيا، ومن هذه الثمرات حب الله تعالى للمتوكلين عليه المفوضين أمرهم إليه قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١)، ومن أحبه الله تعالى منحه العديد من الهبات والعطايا، فكان الله سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى عليها ولئن سأله لأعطاه ولئن إستعاذ به من شئ لأعاذه منه، كما ورد ذلك فى الحديث القدسى الذى أخرجه الإمام البخارى فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله قال من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلىَّ مما افترضت عليه ومايزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى لأعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) (٢).

فهذا هو حال أهل التوكل على الله ﷻ فهم بتوكلهم على ربهم قد فازوا بحب الله لهم فصاروا فى عين الرعاية وأنس العناية، ومن أحبه الله ﷻ حببه إلى عباده، حيث يوضع له القبول فى أهل الأرض جميعاً، فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلاناً فأحببه فيحبه جبريل فينادى جبريل فى أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض) (٣).

"ومما يوضح أن التوكل على الله تعالى يحبب العبد ويقرّبه إلى الله سبحانه ما قاله لقمان الحكيم فى وصيته لإبنه حين قال له: ومن الإيمان بالله ﷻ التوكل على الله تعالى يحبب العبد إلى الله تعالى وأن التفويض إلى الله من هدى الله، وبهدى الله يوافق العبد رضوان الله وبموافقته رضوان الله يستوجب العبد كرامة الله" (٤).

٣- ومن ثمرات التوكل على الله تعالى الراحة والطمأنينة

فالتوكل على الله تعالى زاد المؤمنين فى الحياة يثبتهم عند الفزع، ويدفعهم إلى الإقدام ويملأ قلوبهم بالعزة عند السؤال. والمؤمنون يجدون فى توكلهم على الله تعالى راحة نفسية، وطمأنينة قلبية، فإذا أصابهم خير علموا أن الله تعالى المدبر هو الذى ساقه إليهم، فحمدوا

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩.
(٢) أخرجه البخارى، كتاب الرقاق، باب التواضع ٥/٢٣٧٤.
(٣) أخرجه البخارى، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ٣/١١٧٢.
(٤) قوت القلوب لأبى الفرج المكى ٢/١، طبعة الأنوار المحمدية القاهرة- بدون.

وشكروا لله، وإن اصابتهم شدة أيقنوا أن الله العليم الحكيم هو الذى أصابهم بها، اختباراً لهم، لرفع درجاتهم، وتكفير سيئاتهم أو لمصلحة تعود عليهم.

وقد أرشد الله المؤمنين إلى التوكل عليه، ووصل قلوبهم به، إذا سعوا فى الحياة لتحقيق مطلب، أو لاستدفاع ضر، حتى تكون يد الله فوق أيديهم، وعنايته فوق تصرفهم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[١]. "أى فهو سبحانه وتعالى كافيه وناصره ومؤيده وحافظه"[٢].

يقول الإمام القرطبى فى تفسيره للآية الكريمة: "أى من فوَّض إليه أمره كفاه ما أهمّه، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أى قاض أمره فيمن توكل عليه وفيمن لم يتوكل عليه إلاَّ أن من توكل عليه فيكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً"[٣]. فالمتوكلون على الله تعالى يكونون فى راحة بال وطمأنينة قلب وهدوء نفس وإنشراح صدر فى الدنيا وفى الآخرة.

هذا ولقد ذكرنا طرفاً من الثمرات التى يتحصل عليها العبد المتوكل على الله فى الدنيا ونذكر هنا طرفاً آخر من الثمرات التى يتحصل عليها العبد فى الآخرة وهى كثيرة أيضاً.

ب- الثمرات الأخروية:

فمن هذه الثمرات الأخروية أن المتوكلين على الله تعالى يدخلون الجنة بغير حساب وينعمون بنعيمها الدائم، حيث يرون مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، "فو الله ما العيش إلاَّ فى الجنة حيث يقع اليقين بالرضى، والمعاشرة لمن لا يخلو ولا يؤذى، والله إنى لأتخيل ، دخول الجنة ودوام الإقامة فيها، ومن غير مرض ولا نوم ولا آفة نظر، بل صحة دائمة وأغراض متصلة، لا يعتريها منعص، فى نعيم متجدد فى كل لحظة إلى زيادة لا تتناهى،.... ومعلوم أن منازل الجنة لا تكون إلاَّ على قدر الإجتهاد، وهاهنا فى الدنيا، فواعجباً من مضيع لحظة فيها فتسبيحة واحدة تغرس لك شجرة فى الجنة أكلها دائم وظلها.....

فيا أيها الخائف من فوات ذلك شجع قلبك بالأمل والرجاء، فمنذ خروج الروح تنكشف هذه المنازل لأصحابها تستقر هذه الأرواح فى حواصل طير، تعلق فى أشجار الجنة، فالبدار

---

[١] سورة الطلاق الآية ٣.

[٢] الآداب الشرعية والمنح المرعية للشيخ/ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن مفلح المقدسى ٢١٨/٢، ط دار الفكر- بدون.

[٣] تفسير القرطبى ١٥١/١٨.

البدار قبل أن تصفر شمس العمر، وقبل أن يأتى الغروب، فمن تخيل دوام اللذة فى الجنة، هان عليه فى الدنيا كل بلاء وشدة[١].

ويوضح ابن القيم نعيم أهل الجنة بالجنة فيقول: "وإن سألت عن يوم المزيد، وزيارة العزيز الحميد، ورؤية وجهه المنزه عن التشبيه، والتمثيل كما ترى الشمس فى الظهيرة والقمر ليلة البدر فاستمع يوم ينادى المنادى يا أهل الجنة، إن ربكم تبارك وتعالى يستزيركم فحيُّ على زيارته فيقولون سمعاً وطاعة، وينهضون إلى الزيارة مبادرين فإذا بالنجائب قد أعدت لهم موعداً، فيستوون على ظهورها مسرعين، وحتى إذا انتهوا إلى الوادى الأفيح الذى جعل لهم موعداً وجمعوا هناك مالم يغادر الداعى منهم أحداً، أمر الرب تبارك وتعالى بكرسيه فنصب هناك ثم نصبت لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من زبرجد ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، وجلس أدناهم وحاشاهم أن يكون فيهم دنى على كثبان المسك ما يرون أن أصحاب فوقهم المطايا حتى إذا استقرت بهم مجالسهم واطمأنت بهم أماكنهم نادى المنادى يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموْه فيقولون ما هو ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار، فبينما هم كذلك إذ سطع لهم نور أشرقت له الجنة فرفعوا رؤسهم فإذا الجبار جل جلاله وتقدست أسماؤه وقد أشرف عليهم من فوقهم، اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام، فيتجلى لهم الرب تبارك وتعالى ويضحك إليهم ويقول يا أهل الجنة فيكون أول ما يسمعون منه تعالى: أين عبادى الذين أطاعونى بالغيب، ولم يرونى فهذا يوم المزيد فيجتمعون على كلمة واحد قد رضينا فارض عنا، فيقول: يا أهل الجنة إنى لو لم أرض عنكم لم أسكنتكم جنتى، هذا يوم المزيد فاسألونى فيجتمعون على كلمة واحدة، أرنا وجهك ننظر إليه فيكشف لهم الرب جل جلاله الحجب ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره ما لولا أن الله تعالى قضى أن لا يحترقوا لاحترقوا، ولا يبقى فى ذلك المجلس أحد إلاَّ حاضره ربه تعالى محاضرة، حتى إنه يقول يا فلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذا يذكره ببعض غدارته فى الدنيا، فيقول يارب ألم تغفر لى؟ فيرد عليه المولى ويقول له بمغفرتى بلغت منزلتك هذه، فيالذة الأسماع بتلك المحاضرة، وياقرة عين الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم فى الدار الآخرة، وياذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[٢].

---

[١] نعيم الجنة فى القرآن والسنة لعبد اللطيف عاشور صـ٥، باختصار ط مكتبة القرآن للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة - بدون.

[٢] سورة القيامة الآيات ٢٢-٢٥.

ويقول الجزائرى: "أية زيارة أكرم، وأية زيارة أعظم، وأية زيارة أشهى على النفس وأحب من تلك التى هى زيارة الرب تبارك وتعالى"[١].

وعن هشام بن حسان عن محمد يعنى ابن سيرين قال حدثنى عمران قال قال نبى الله ﷺ: (يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بغير حساب قالوا ومن هم يارسول الله قال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال أدع الله أن يجعلنى منهم قال أنت منهم قال فقام رجل فقال يانبى الله ادع الله أن يجعلنى منهم قال سبقك بها عكاشة) [٢]، فهذا الحديث يدل دلالة واضحة على أن المتوكلين على الله تعالى هم من طوائف المسلمين الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

قال الشيخ/ عبد الرحمن بن حسن فى شرح الحديث: "أما قوله على ربهم يتوكلون فقد ذكر الأصل الجامع الذى تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال، وهو التوكل على الله وصدق الإلتجاء إليه، والإعتماد بالقلب عليه، الذى هو نهاية تحقيق التوحيد الذى يثمر كل مقام شريف من المحبة والرجاء، والخوف والرضا به رباً وإلهاً، والرضا بقضائه"[٣].

كما أنهم ينالون فى الآخرة الأجر الأكبر والثواب الأعظم فضلاً عما نالوه فى الدنيا من العيش الحسن والحياة الرغيدة.

وبعد..... فإن التوكل على يظهر فى عمل الفلاح حين يحرث الأرض، ويبذر الحب، ثم ينتظر الثمار من الرب يظهر فى عمل الصانع حين يتقن صنعته، ويطلب من الله ربحها، ويظهر فى عمل التاجر حين يحسن العرض، ويطلب من الله الكسب، يظهر التوكل على الله تعالى فى عمل الطالب حين يستذكر دروسه جيداً، ويستعد للإمتحان تماماً، ثم يطلب من الله التوفيق للنجاح، والتوجيه للصواب، يظهر التوكل على الله تعالى فى عمل المريض حين يتناول الدواء، ويطلب من الله تعالى الشفاء، يظهر التوكل على الله تعالى فى عمل الأمة الرشيدة الواعية التى تستعد لأعدائها بكل أنواع الإستعداد ثم تلجأ إلى الله تعالى طالبة منه النصر والظفر، فهى لا تتكل على إستعدادها، وإنما تتكل على ربها الذى بيده نواصيها ونواصى أعدائها، فإنما هو رب الأرباب، ومسبب الأسباب وقيوم الأرض والسموات.

ألا إن فضيلة التوكل تبدأ بالإيمان، يتلوه العمل مع ذكر الله ورجائه، مع بذل غاية الجهد الذى يطيقه الإنسان، مع ثقة فى الله مع هذا كله، وبعد هذا كله، وبهذا المفهوم كانت وسطية

---

[١] الجنة دار الأبرار والطريق الموصل إليها صـ٢١.

[٢] رواه البخارى كتاب القلق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ٥/٢٣٩٦.

[٣] فتح المجيد شرح كتاب التوحيد صـ٥٧، للشيخ/ عبد الرحمن بن حسين بن محمد عبد الوهاب ت ١٢٨٥هـ مكتبة الصفا، وكتاب التوكل على الله لابن أبى الدنيا صـ٤٠.

الإسلام وبهذا التصور كان الإعتدال والخير فى العقيدة والسلوك ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (١).

وفى النهاية: يجدر بى أن أنبه إلى أن ما ذكرته من الأخلاق لا يعد إلاَّ نماذج فقط إذ أن الأخلاق كثيرة ومتعددة، كالصدق والأمانة، والحب والتعاون، والصبر، والعلم، والتقوى، والتواضع، .... إلخ، وإن المتدبر لجميع الأخلاق الإسلامية يجد أن مرجعها جميعها إلى أى خلق يذكر، فلا يصح لإنسان مسلم أن يتخلق بخلق ويترك آخر، فمن يتخلق بالتواضع مثلاً فلا بد أن يكون صادق وأمين ومخلص ومتوكل على الله تعالى... إلخ، ولذلك نجد أن القرآن وصف النبى ﷺ بالأخلاق الحميدة، ولم يذكر خلقاً بعينه فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٢).

وصفوة القول:

لو أن الأفراد والجماعات والشعوب حققت هذه المبادئ (العقائد، والعبادات والأخلاق) فى صدق وإخلاص وعزم قوى، لصفت الحياة، ومحيت بين الناس أسباب الشقاء والحقد والظلم والإعتداء، واقتلعت من القلوب نوازع الشر والدمار، ولظفرنا بالنظام المثالى الذى تنشده كافة الشعوب المحبة للسلام .. والإسلام يعنى عناية كبيرة بأن يسمو بهذه الأهداف الثلاثة، فيهتم بتربية الفكر، وتنمية الإرادة، وغرس نبيل العواطف، وهذه هى الدعامة للكيان الروحى للإنسان، وهى فوق ذلك رباط وثيق بين أفراد المجتمع، توحد أهدافه، وتحقق التجانس بين عناصر الأمة، وتكون عاملاً قوياً فى رقيها ونهوضها وهى فى مستواها الرفيع وسيلة للصلة بين الإنسان وربه، وخير وقاية من شعور المطامع المادية ومطالب النفس الأمارة بالسوء.. وعلى قدر رقى هذه الناحية الروحية يكون رقى الإنسان.. وتكون سيطرته على نفسه، وعلى ما سخره الله له من موارد هذا الكون.. وبذلك نضع الأساس القوى لبناء المجتمع الرشيد والوصول إلى الأهداف المنشودة للحياة المثالية.

هذا وبعد أن انتهيت من طرق الوقاية من الشقاء الداء الذى أصاب هذه الأمة، ووصفت له الطرق الوقائية فيما مضى فى هذا الباب، أنتقل الآن إلى إلقاء الضوء على العلاج الحسى والمعنوى وأثره على الفرد والمجتمع المسلم والله أعلم.

---

(١) سورة الممتحنة الآية ٤.

(٢) سورة القلم الآية ٤.